

وقائع الندوة التى أقامتها بالقاهرة فى يونيو ١٩٨٧ ، اللجنة المصرية للتضامن بالاشتراك مع مركز الدراسات العربية بلندن وشارك فيها فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر وقداسة البابا شنودة و١٦ من المؤرخين والمفكرين المصريين والعرب والأجانب .



دار الشروق


800 عام
حطين صلاح الدين
والعمل العربي الموحد

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف . ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس . 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

محتويات الكتاب

القسم الثالث : حطين ودروس المستقبل

القســم الأول

كلمات الافتتاح

ذكرى حِطّين
وضرورة العمل العربى الموحَّد

كلمة الأستاذ أحمد حَمرُوش
رئيس اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية

فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر.
قداسة البابا شنودة بطريرك الأقباط الأرثوذكس .
السيدات والسادة .

لا أستطيع أن أخفى ما أشعر به فى أعماق صدرى من رهبة أمام هذه اللوحة الوطنية والقومية التى أشاهدها اليوم تتجسد فى هذه القاعة التى تصادف أنها تحمل اسم البطل الذى نجتمع اليوم حول سيرته وبطولته ودوره فى التاريخ .

لا أستطيع أن أجد تعبيرًا عن أصالة أمتنا العربية خيرا من هذا التعبير الذى يقدمه وجودكم وتفضلكم بالحضور والمساهمة فى هذه الندوة التى نحتفل فيها بذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين.

لا أستطيع أن أمنع طموحا يملك على نفسى ؛ لربط الماضى بالحاضر والمستقبل ، خلال هذا اللقاء الذى يضم قمما دينية وفكرية وثقافية .. حتى يزداد فى قلوبنا اليقين بأن العمل العربى الموحد هو طريق التحرر والتقدم .

فضيلة الإمام الأكبر.
قداسة البابا .

إن وجودكم اليوم معنا فى هذه القاعة هو تشريف لنا نحن أعضاء اللجنة المصرية للتضامن الذين نحمل فى قلوبنا هدفا يملك علينا كل مشاعرنا ، ويحرك كل خطواتنا ... وهو السعى والعمل من أجل الوحدة الوطنية والتضامن القومى .

إن وجود شيخ الأزهر وبطريرك الأقباط فى أية مناسبة تقدم لنا جميعا رمزا

رائعا لوحدتنا الوطنية .. ولكنه فى هذه الندوة يقدم لنا مغزى أكثر دلالة وعمقا ... فنحن نجتمع اليوم للبحث فى أبعاد النصر الذى تحقق على يد صلاح الدين الأيوبى ضد غزاة وفدوا من أوربا ، وأخفوا أغراضهم خلف الصليب .

ومن هنا يأخذ لقاء الهلال والصليب فى هذه الندوة أبعادا دينية ووطنية وإنسانية يجب أن نتأملها فى عمق لأنها ترسى فى قلوبنا الإيمان بأن الدين لله والوطن للجميع .

إننا فى هذه الظروف أحوج مانكون إلى تدبر المعانى التى نجمت عن الحروب والحملات الصليبية ضد المسالمين من أبناء هذه الأرض سواء أكانوا من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود .

قال المؤرخ سور هايم :

(إن صلاح الدين لم يكن متعصبا ولم يكن يحمل ضغينة أو بغضاء للصليبيين باعتبارهم بشرا ولا للمسيحيين الخاضعين لحكمه لذلك لم يضرب الصليبيين كمسيحيين بل كان يضربهم كأعداء بادأوا العرب العداء وجاءوا ليضربوا الإسلام فى دياره) .

لن أحاول الحديث عن سيرة صلاح الدين ... ولا عن معركة حطين .

أترك ذلك للعلماء والأساتذة المؤرخين المشاركين فى هذه الندوة .. ولكنى أقف فقط عند ظاهرة هذا القائد الذى ولد فى تكريت بالعراق لأب كردى كان واليا على قلعتها ... ثم انتقل إلى سوريا وأقام دولته فى مصر وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره .

زحفت جيوش صلاح الدين من مصر وسوريا ... ولم تكن هناك حدود ولا جوازات سفر أو تأشيرات دخول تمنع العربى من الانتقال فى وطنه بغير قيود .

وأثبت صلاح الدين أن النصر العربى مرتهن بالتضامن القومى والعمل العربى الموحد .

وهذه قضية هامة تربط بين نصر حطين ... وبين ما نعانيه اليوم فوق أرض فلسطين .

ولعل هذه الندوة تكون بداية لقراءة جديدة فى تاريخنا ... قراءة صحيحة تبرز الأبعاد القومية ، وتظهر أن العمل العربى الموحد هو الباب الوحيد الذى ينطلق منه النصر والاستقلال والتقدم .

إن ترسيخ الحقائق التاريخية أصبح ضرورة قومية وواجبا وطنيا يدفع عنا الزيف ، وينمى فى نفوسنا الثقة والأمل .

ولعلى لا أضيف جديدا إذا قلت إن إسرائيل تعقد خلال الأيام القادمة ندوة عن هذه المناسبة نفسها تفسر فيها الأمور من وجهة نظر صهيونية ... تماما كما فعلت منذ شهور عندما عقدت ندوة توافقت فى الزمن مع الندوة التى أقامتها اللجنة المصرية للتضامن بمناسبة مرور ٣٠ عاما على حرب السويس .

قد تختلف وجهات النظر ، ولكن الحقائق كما يقول المثل البريطانى أجسام صلبة عنيدة .

إن توقيت عقد الندوة فى هذه المناسبة التاريخية الهامة ، يفتح الأبواب للأحداث المعاصرة ، ويثير كثيرا من التساؤلات وعلامات الاستفهام التى تتطلع إلى إجابات علمية وموضوعية لها .

سيداتى وسادتى .

وأخيراً لاشك أن نوعا من الصفاء يغمر قلوبنا فى هذه القاعة ونحن نلتقى مع أئمة الدين والفكر والثقافة الذين وفدوا لتبادل الرأى وتسليط الضوء على فترة باهرة من تاريخنا ، وبث الحذر فى نفوسنا من أخطار تهدد منطقتنا ...

فى هذا اللقاء تأكيد لوحدتنا الوطنية ... تأكيد لقوميتنا العريقة .. تأكيد

لسماحتنا الدينية ... تأكيد لأهدافنا الإنسانية .. تأكيد ليقظتنا الجماعية ..

وفى النهاية أكرر الشكر العميق باسم جميع أعضاء اللجنة المصرية للتضامن إلى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر وقداسة البابا شنودة بطريرك الأقباط الأرثوذكس وإلى أئمة الدين والفكر والثقافة من العرب والأجانب الذين تفضلوا بالحضور لنسهم معا فى الوصول إلى الحقيقة الخالصة المضيئة .

والسلام عليكم ورحمة الله ،،،

كلمة فضيلة الإمام الأكبر
جاد الحق على جاد الحق
شيخ الجامع الأزهر

« إن هذا الصراع لم يكن صراع ديانة وعقيدة وإنما
كان عدوانا باسم الصليب والمسيحية من هذا براء »

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله .

وبعد ،

فهذه ذكريات يوم عظيم فى تاريخ أمة مجيدة ، شاء الله تعالى أن نعايش هذا اليوم فكرا ، ورؤية ، بعد قرون .

والتاريخ حين ندع حقائقه تتكلم ، ووثائقه الصحيحة تروى يكون المعلم الذى لا يكذب فى نصيحته ، أو يخدع فى روايته .

ومن هنا فإن احتفاءنا بيوم حطين ينبغى أن يكون تعبيرا منصفا ، ورؤية واعية ، وتحليلا عادلا وتذكرة تحيل الأمل إلى العمل ، وتدفع إلى سعى دؤوب لجمع كلمة الأمة التى اختصها الله بالرسالات .

إننا بذلك نلتقى مع المؤرخين ـ المسلمين والغربيين ـ فى نظرتهم إلى الصراع العسكرى الذى كان فى حطين والقدس ، وغيرهما من ساحاته ومعاركه حين قال المنصفون منهم : إن هذا الصراع لم يكن صراع ديانة وعقيدة ، وإنما كان عدوانا باسم الصليب والمسيحية من هذا براء .

فما كانت ـ بحق ـ إلا محبة ، وما كان الإسلام إلا سلاما وسلامة ، إنه السلام مع الله والسلام مع النفس والسلام مع الناس .

ولقد كان واقع تلك الحروب التى عرفت فى التاريخ بالحروب الصليبية ـ كانت ـ حروبا استعمارية اتخذت الدين سلعة وعنوانا ، حيث غابت عن قادتها الرؤية الصحيحة للأديان السماوية ، تلك الرؤية التى ترتفع بمكانة

الإنسان ، فلا يكون مجالا تباع فيه كرامته وإنسانيته .

ولقد غفل هؤلاء البغاة عن أن العقائد المنزلة من عند الله هى مفاهيم رحمة ، ومضامين عدالة وإنسانية تتسع لآلام البشرية علاجا وبرا ولآمال الإنسانية رعاية وتقديرا .

حضرات السادة :

بهذا لم تكن الحروب الصليبية تنتسب إلى المسيحية بصحيح النسب ، وإنما كانت حربا استعمارية بربرية قاومها العالم العربى والإسلامى ، باعتبارها زحفا طامعا ، وعدوانا ظالما غاشما .

ولقد تتابعت موجات هذا العدوان ، ولكنها لم تلبث أن انحسرت متراجعة ، وارتدت خاسرة ، حيث صدتها قلوب عامرة بحب وطنها ، حريصة على الحفاظ على أرضه وتراثه .

والحق أن الأمة العربية حين تنزل بساحتها نازلة يتلاقى أبناؤها ـ على اختلاف عقائدهم ـ فى وحدة لا تغلب ، وقوة ـ بنصر الله ـ لا تقهر ، وتلك حقيقة كانت وستظل مثمرة ، وما حرب العاشر من رمضان منا ببعيد . فقد وقف هذا الشعب ـ المسلمون والمسيحيون ـ صفا واحدا ، يدافع عن أرضه ، ويطهر عرضه ، ويحمى مقدساته ، ذلك لأن الجميع مواطنون ، شعب واحد ومصير مشترك ومن هنا كان النصر (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

حضرات السادة :

إذا كانت الأجيال تعيش على أمجاد تتوارثها ، تؤصل بها لحاضرها ، وتستشرف بها إلى المأمول فى مستقبلها ، فإن صفحات التاريخ ـ وهى مليئة ببشارات الخير ـ مازالت تشع سطورها بعطاء من الرفق والرحمة ، والعفو والتسامح كتبتها أخلاقيات القائد المسلم صلاح الدين فى الحرب والسلام .

لقد أعطى القدوة ـ فى ساحة المعارك ـ رفقا بالأسير ، ورعاية للمهزوم ، ورأفة بالمكلوم مع سماحة المنتصر وتواضعه ، مرتفعا بهذا إلى إنسانية الإنسان التى دعا إليها الإسلام وكافة الأديان التى أنزلها الله الرحمن الرحيم ، فقد قررت جميعا أن الإنسان أخ الإنسان .

حضرات السادة :

حين تنعقد هذه الندوة فى القاهرة التى قادت الحرب الدفاعية عن هذه الأمة لتتدارس سيرة ومسيرة هذا القائد العظيم ـ صلاح الدين ـ بمدارسة موقعة حطين ، فإنما تمجد عظيما ، مذكرة بموقفه ، ناشرة أمجاده التى تعتز بها أمتنا ، بل والإنسانية كلها .

« وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

فلنأخذ من سيرة قائد النصر فى حطين إنسانيته فى الحرب والسلام ، ولنطرح أساليب الظلم والعنف والحقد والكراهية والعدوان والانتقام وليتنادى الجميع إلى كلمة سواء :

ينصرون بها المستضعفين ، ويقفون بها إلى جانب المقهورين والكادحين .

إن فعل الناس ذلك قامت الحياة الإنسانية على أصول تتواصل بها آفاق من الحب والصدق وهذه من قيم هذه الأمة الدينية والحضارية .

أيها الحفل الكريم :

إذا كانت هذه الندوة بهذا الحشد من العلماء تستذكر حطين بعد بضعة قرون فإن المأمول أن تشد على يد المدافعين عن حقوقهم وأن تناصرهم ، وأن تزأر فى وجه الفساد والمفسدين أيا كانت وسائلهم ، وأن تندد بأولئك الذين طغوا فى البلاد ـ كل البلاد ـ فأكثروا فيها الفساد وأن يذكروا قول الله فى القرآن الكريم « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » وقول الله سبحانه : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

مأمول من هذه الندوة وهى تنعقد لتحيي انتصار القائد صلاح الدين على الصليبيين ـ مأمول منها : أن تقول لهذا الشرق العربى الإسلامى : لقد وحد صلاح الدين الجيوش المتجاورة واستطاع بهذه الوحدة أن يحرز النصر الذى نذكره ونشكره لأنه سطر فى تاريخنا ما نفخر ونفاخر به ، وأن تقول لكتابنا أبرزوا هذه المثل لشبابنا بدلا من كشف السوءات ونشر السيئات ، فنحن فى حاجة إلى مدارسة عوامل النصر والانتصار وممارسة طرق التغلب على أسباب الهزيمة والانكسار فى حياتنا الاجتماعية والسياسة والاقتصادية ولنواجه الصعوبات برباطة جأش ، وقوة عزيمة مفكرين فى الخلاص منها ، وليس الاستسلام والتخاذل ، والاختلاف والتنابذ والجزع والخنوع وتوزيع الاتهام .

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

حضرات السادة :

بكل التقدير أحيي هذا الحفل الكريم مرحبا بضيوف مصر ، وتحية طيبة إلى كل الساعين من أجل الحق وفى سبيل الخير والفضيلة ومن أجل حياة أفضل للإنسانية : تسودها المودة والتعاون وصولا إلى خير الناس ـ كل الناس ـ وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ، ، ،

كلمة قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

« تسمية الحروب الصليبية بهذا الإسم تسمية خاطئة فهي حرب استعمارية ، أو هي حرب أوروبية ، أو هي حرب الفرنجة أو هي حرب للاحتلال . والمسيحية تدين الحرب عموما وتدين الاحتلال . ونقطة الاستثناء الوحيدة التي تسمح بها المسيحية هي الحرب الدفاعية » .

بسم الإله الواحد الذى نعبده جميعا أحييكم فى هذا الحفل المبارك ..

أخوى العزيزين .. صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر .. فضيلة مفتى الديار المصرية .. وإخوتى أعضاء اللجنه المصرية للتضامن الإفريقى الآسيوى .

أود أولا أن أشكركم على هذه الدعوة الكريمة ، فلقاؤنا رمز وصورة طيبة . ويسرنى أن نلتقى جميعا فى إدانة الحروب الصليبية .

فى كل قضايانا الوطنية والقومية . نحن لا نختلف إطلاقا ، كلنا قلب واحد ، فكر واحد ، وعمل واحد .

وأنا أشكركم لأنكم تذكرتم التاريخ وتذكرتم حطين .. وتذكرتم صلاح الدين ، على رأى الشاعر الذى قال :

ومن وعى التاريخ فى صدره أضاف أعمارا إلى عمره

والتاريخ ليس مجرد أحداث ، وإنما هو دروس وعبر ، وأحداث التاريخ معروفة لكم جميعا ، وأنتم تعرفونها أكثر منى . لذلك أود أن أعبر عن بعض تأملات بسيطة .

النقطة الأولى التى أقولها .. إن تسمية الحروب الصليبية بهذا الإسم ، هى تسمية خاطئة ، وكثير من المؤرخين المسلمين يقولون إنها تسمية خاطئة ، فهى حرب استعمارية ، أو هى حرب أوروبية ، أو هى حرب من الفرنجة . أو هى حرب للاحتلال ، والمسيحية تدين الحرب عموما ، وتدين الاحتلال . نقطة

الاستثناء الوحيدة التى تسمح بها المسيحية ، هى الحرب الدفاعية ، أما الهجوم والاعتداء ، فلا تقبله المسيحية على الإطلاق ، وهنا أقول .. إن المسيحية دين سلام ودين محبة ، بل قال السيد المسيح : «حبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا للذين يسيئون إليكم» ، فكيف باسم المسيح تقوم حرب ؟! .. كذلك الصليب فى المسيحية هو رمز حب وبذل وفداء ، ولم يكن فى يوم من الأيام رمز هجوم أو اعتداء ، إطلاقا . وعندما يقول السيد المسيح .. من أراد أن يتبعنى ، فلينكر ذاته ويحمل صليبه ويتبعنى . يقصد من هذا ، أن الإنسان يحتمل التعب والألم من أجل الله . فمعنى الصليب هو أن الشخص يفدى الآخرين بسفك دمه وليس معناه أن يسفك دماء الآخرين .. لذلك فالتسمية ، تسمية خاطئة .

وأقول .. إن كثيرين من المسيحيين الذين يحملون اسم المسيح .. لا ينتمون إلى مبادئ المسيح بأى صلة .

هذه الحرب التى استمرت مدى قرون ، كانت حرب اعتداء . ساعد على ذلك انقسام المسلمين فى ذلك الوقت .. حينما بدأ العرب دولة قوية فى بداية القرن السابع ، استطاعت هذه الدولة الواحدة القوية أن تدخل فى الشام وفى فلسطين وفى مصر ، بل استطاعت أيضا أن تذهب إلى أسبانيا وتكون دولة هناك ، كانت على أبواب فرنسا أيضا ، وأصبحت دولة العرب المتحدة ، هى أكبر دولة فى الشرق بلا منافس ، بل أصبحت لها قوة الغرب أيضا .. ولكن على مرور الوقت ، وفى وقت الحروب الصليبية كانت هناك خلافة أموية فى الأندلس وخلافة عباسية فى بغداد ، وخلافة فاطمية فى مصر والشام ، وكان بين هؤلاء وأولئك اختلاف ، وأحيانا عداء ، ثم قامت دولة السلاجقة واستطاعت أن تضرب الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية ضربة قوية ، فى موقعة « منزكرت » سنة ١٠٧١ ، قبل الحروب الصليبية بحوالى ربع قرن ، وأصبحت قوة شديدة ، استطاعت أن تأخذ نيقيا وقيليقيا وفريجيا ، وبسيلية ، واستطاعت أيضا أن تأخذ انطاكية واللاذقية وتستولى على كثير من

بلاد الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، بل إن امبراطور الدولة الرومانية الشرقية «اليكسيوس» استنجد بالبابوات فى روما لكى ينصروه على السلاجقة .

ولكن ، للأسف الشديد ، حينما قامت الحرب الصليبية الأولى ، كانت دولة السلاجقة قد انقسمت أيضا إلى ولايات ، فأصبحت هناك أقسام لها فى فارس فى خراسان ، فى حلب ، فى دمشق ، فى دولة الروم ، فى آسيا الصغرى ، ولم تكن هناك وحدة عربية تستطيع أن تقاوم هؤلاء الصليبيين ، فانتصروا فى الحرب الأولى ، وكان لابد للعرب من وجود رجل قوى مثل صلاح الدين ، يستطيع أن يوحد ، لأن العرب لا يستطيعون أن ينتصروا إلا لو كانوا وحدة قوية ، تستطيع أن ترغم الناس على احترامها وتوقير قوتها .

أنا أعتقد ياإخوتى الأحباء ، أن انتصار حطين بدأ قبل ذلك بخمس سنوات ، موقعة حطين فى سنة ١١٨٧ ، صلاح الدين استطاع أن يوحد الدولة العربية فى سنة ١١٨٢ وأصبحت قوات صلاح الدين تنتشر من الفرات إلى النيل ، وأصبحت هناك قوة ترغم هؤلاء الغزاة الأجانب على احترامها ، وتستطيع أن تصد وترد وتردع .

وهنا أقول كلمة أخرى .. إن الأحداث معارك ، وإذا انتصر الإنسان فى معركة ليس معنى هذا أن انتصاره قد ثبت .. ملاحظة لطيفة جدا يمكن أن نقولها فى هذا المجال ، وهى ، إن هؤلاء الصليبيين أخذوا القدس سنة ١٠٩٧ واستطاع صلاح الدين أن يرد القدس إلى العرب بعد ذلك بتسعين سنة تماما سنة ١١٨٧ ، السنوات ليست شيئا كثيرا فى حياة البلاد ، فلا ييأس أحد إطلاقا .. استرجعت القدس بعد تسعين سنة على يد صلاح الدين ، وإن كان الصليبيون استطاعوا أن يأخذوها مرة أخرى ، فإنها استرجعت مرة ثانية بعد ٥٧ سنة ١٢٤٤ على يد الملك الصالح أيوب .

الحروب ليست وضعا مستقرا ، فلذلك مهما أخذت بلدة من البلاد ، لا ييأس إنسان ، يمكن استرجاعها .

لدى نقطة أخرى ، موقعة حطين كانت بداية لعملية تنشيط واسعة النطاق قام بها صلاح الدين .. صدقونى أننى أقف أمام التاريخ وأعجب . فى مدة أقل من ثلاثة شهور ، موقعة حطين فى ٤ يوليو سنة ١١٨٧ . ودخول القدس فى ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ ، يعنى أقل من ثلاثة شهور . استطاع صلاح الدين أن يستولى على طبرية ، وطبعا انتصار بحطين ، والرملة ، وعسقلان ، ويأخذ باقى البلاد أمثال قيصرية وحيفا . واستطاع أيضا أن يأخذ بيروت وجبيل ، ثم يأخذ القدس ، كل هذه البلاد فى ثلاثة شهور . فى وقت لم تكن فيه الحرب الميكانيكية والآلات الحديثة موجودة ، ولكن كانت هناك القوة ، والعزيمة ، والوحدة ، والإصرار على تحرير البلاد .

نقطة أخرى أريد أن أقولها .. إن الحرب الصليبية ، أو الحروب الصليبية ، لم تكن ضد المسلمين فقط ، إنما كانت ضد المسيحين أيضا ، وهنا أذكر على لأقل اتجاهين ، ما قام به الصليبيون فى المجر ، وكيف اعتدوا على أهل المجر ، بينما المجر كانت بلاد مسيحية ، حوادثهم فى سنلم ، فى براغ ، فى بلجراد ، فى نيش ، لدرجة أن ملك المجر طردهم واعتبرهم أعداء ، وتخلص منهم ، هذه واقعة .

الواقعة الثانية .. هى قيام هؤلاء الغزاة ضد الدولة البيزنطية ذاتها ، امبراطور الدولة الرومانية استنجد بأوروبا لكى تحميه من السلاجقة ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن هؤلاء الغزاة حلوا عليه بعنف ، كغزوة جراد على حقل بسيط ، حتى إن بعض المؤرخين قالوا فى تشبيه هذا الأمر ، إن امبراطور الدولة البيزنطية كان مثل راعى يطلب قليلا من المطر لينبت العشب لغنمه ، فإذا به يصادف بطوفان يغرق كل شىء ، وكان هذا الطوفان ، هؤلاء الغزاة الأجانب .

ثم ماذا حدث ؟ أراد منهم أن يحموه من السلاجقة ، فكانت النتيجة أنهم نافسوه فيما يأخذونه من البلاد التى تحت يد السلاجقة ، مثال ذلك ، أخذوا أنطاكية ، ثم بعد ذلك قاوموه مقاومة شديدة فى أن يأخذوا أيضا اللاذقية ،

واضطر أن يسلم ، وكثير من البلاد الأخرى التى أخذها السلاحقة وأرجعها هؤلاء الغزاة ، بدلا من أن يردوها إلى الدولة البيزنطية ، استولوا عليها وكونوا فيها إمارات ، كونوا إمارة فى الرها ، وإمارة فى طرابلس ، وإمارة فى أنطاكية ، وازداد الأمر جدا حتى لم يعودوا يبحثون عن بيت المقدس ، أو عن الحج ، تغير الهدف . أنا آسف .. فعبارة تغير الهدف ليست تعبيرا سليما ، إنما أقول ، انكشف الهدف الحقيق .. إنهم استتروا وراء الدين ووراء عبارة الأماكن المقدسة ، ووراء عبارة حماية الحجاج ، ولكنهم كشفوا أنفسهم حينما اتسعوا شرقا وغربا ، بل جاء وقت استولى فيه هؤلاء الغزاة على القسطنطينية نفسها ، عاصمة الدولة البيزنطية واستانبول حاليا .

وإذن ليست مسألة حجاج ، وليست مسألة صليب ، وليست مسألة القدس ، إنما مسألة احتلال .

بل أراد هؤلاء الغزاة أيضا ، ليس فقط لأسباب سياسية أن يحتلوا ، وإنما أرادوا أيضا لأسباب اقتصادية أن تكون لهم أسواق فى بلاد العرب ، وهكذا وجدنا تجار جنوا وبيزا والبندقية يقومون بتمويل حملات ، ويستولون على بلاد لكى توجد هناك أسواق فى الشرق يتعاملون معها ويعملون فيها ، أين مسألة الدين فى كل هذا ، لا علاقة للدين بهذه المسائل الاقتصادية والتجارية والسياسية ، والاحتلال . المنصفون فى التاريخ يقولون إن الحروب الصليبية كلها حروب احتلال وغزو أجنبى واستعمار ، ربما كاستثناء ، يستثنون حملة الأطفال . وربما يستثنون أهداف لويس التاسع ، ولكن هؤلاء الأطفال كانوا مغررين . مسألة الدين يمكن أن تستخدم مع الأطفال .. مع صغار السن .. لتغريرهم ، ومع ذلك حملة الأطفال لم تكن حملة .. قاموا من البندقية ورحلوا ، وأخذهم تجار الرقيق وباعوهم فى أسواق الرقيق ، ولا نقول إن حملة الأطفال كانت حملة ، إنما نقول سعى الأطفال للقيام بحملة كانت له أهداف دينية ، وهنا أحب أن أثبت نقطة هامة ، وهى أن الهدف الطيب لابد أن تكون له وسيلة طيبة . ومع ذلك ، فحتى حملة الأطفال لم يكن هدفها سليما ، ولم تكن الوسائل

الصليبية سليمة لأن المسيح لم يقل فى يوم من الأيام بدولة يملكها الناس ، وإنما قال «أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله» .

وعندما أراد اليهود أن ينصبوا المسيح ملكا ، عارضهم فى ذلك ورفض ، وهرب من هذا الملك ، وكان يقول «مملكتى ليست من هذا العالم» . المملكة التى أرادها المسيح ، أن يملك الله على القلب ، وعلى الفكر ، وعلى المشاعر ، وعلى النيات ، وهذا هو ملكوت الله الذى تقول عنه المسيحية (ملكوت الله داخلكم) داخلكم .. داخل قلوبكم .. أما مملكة على الأرض .. إطلاقا .. لا يمكن أن يفكر فيها أى مسيحى يحترم مبادئ المسيح .. الممالك هى عالم السياسة .. ولكن ليست عمل الدين ، فالمسيحية لا توافق على أن يخرج غزاة ، ليملكوا باسم المسيح ، والمسيحية لا توافق على احتلال أرض الغير ، والمسيحية لا توافق أن يظلم بعض المسيحيين شعوبا أخرى ، كل هذه أمور بعيدة عن المسيحية تماما .

نقطة أخرى أحب أن أقولها .. وهى أن هؤلاء الغزاة الذين يسمون أنفسهم أو الذين أسماهم التاريخ بالصليبيين كشفوا أنفسهم فى نقطة واضحة جدا سنة ١٣١٩ ، حينما أحتلوا دمياط ، حاصروا دمياط .. احتلوها ، فكانت النتيجة هى أن الملك العادل لكى يكسب موقفا سياسيا قال لهم لا مانع عندى من أن تأخذوا القدس ولا مانع عندى من أن تأخذوا غالبية بلاد فلسطين ـ استثنى بعض مناطق معينة ـ على أن تتركوا مصر ودمياط .. فأصروا على أن يأخذوا مصر ودمياط ، فكانت النتيجة أنهم ضربوا هناك وطردهم الملك الكامل خليفة العادل ، ولا كسبوا القدس ، ولا كسبوا دمياط ، وهذه إحدى نهايات الظالمين .

الحروب الصليبية كانت عملية ظلم ، عملية احتلال ، عملية شهوات سياسية وشهوات اقتصادية ، بل إن البعض يقولون إن الاقطاعيين فى أوروبا وقد ضاقت البلاد بهم ، أرادوا أن يستولوا على بلاد أخرى تصلح إقطاعيات . أنتم تعرفون أن النظام الإقطاعى فى أوروبا أن الابن البكر يستولى على الأرض

وإخواته يريدون أراضى مثله ، فلو تفككت الأرض كلها ، لا تقوم إقطاعية كبيرة ، وهؤلاء المحتاجون إلى أراضى ، وجدوا فيما يسمونه بالحروب الصليبية مجالا لنشر الإقطاع فى الشرق ، والعبيد الموجودون فى أوروبا وجدوا فى هذه الحرب مجالا للتخلص من العبودية .

ونحن لا نوافق إطلاقا على موقف الكنيسة فى الغرب من الحروب الصليبية . نحن فى الشرق لنا مبادئنا الروحية التى لا ندعو فيها إطلاقا إلى غزو الغير ، واحتلال الغير ، أو الاستيلاء على أراضى الناس ، والربح بهذه الوسائل . مبدأ روحى نقوله باستمرار وهو (لا تبنى راحتك على تعب الآخرين) .

أود أن أقول ملاحظة أخرى وهى إنسانية صلاح الدين .. إننى أوافق تماما فضيلة شيخ الأزهر على ما قاله فى هذا المجال .. صلاح الدين لم يكن قائدا مظفرا فقط . وإنما أيضا كان إنسانا على خلق ، ولذلك صلاح الدين هو من الشخصيات القليلة فى التاريخ التى امتدحها أعداؤها واحترموها ، كان الصليبيون يحترمون شخصية صلاح الدين ، لا أقول فقط يخافونه .. إنما يحترمونه ، لأن الاحترام هو شعور بالتقدير داخل القلب ، وكانوا أحيانا يصغرون أمام أنفسهم حينما ينقضون اتفاقا معه ويقفون أمامه موقف الذى هو فى عار .

صلاح الدين بعد موقعة حطين ، حينما استولى على كل هذه البلاد التى ذكرناها ، كان يعرض على أهل هذه البلاد التسليم والأمان ، ومن كان فيهم يقبل أن يسلم البلدة على أساس الأمن والأمان ، كان يسلم ويخرج من الاعتداء ، ولذلك كثير من هذه البلاد التى استولى عليها بعد موقعة حطين ، استولى عليها بدون سفلك دم ، احترام لقوته وقدرته وشدة حصاره ، واحترام أيضا لوعوده . ما عدا القدس ، رفض أهالى القدس هذا الأمر ، فأصر صلاح الدين أن يأخذها بالقوة ومع ذلك حينما رجعوا إليه ، كان قلبه فيه حنو عليهم ، ويقال فى التاريخ إن بعض النساء حينما أتين إليه يبكين من أجل رجالهم الصليبيين الأسرى دمعت عينا صلاح الدين وأشفق وأخرجهم من القدس بدية بسيطة .

إننا نحيي شخصية صلاح الدين كرجل قوى وكرجل وحد كلمة العرب وكرجل استطاع أن ينتصر وكرجل إنسانية ورجل لا يميل إلى سفك الدماء .

وإن كان بعد صلاح الدين تفرقت الدولة قليلا ، ولكن أمكن توحيدها بعده .. العجيب أن موقعة حطين كانت سنة ١١٨٧ ثم استطاع الصليبيون أن يستولوا على عكا بعد ذلك ١١٩١ ولكنهم فقدوا عكا واسترجعها العرب مرة أخرى سنة ١٢٩١ يعنى بعد مائة سنة بالضبط ، أمام هذه الأرقام ، نحن نأخذ دروسا من التاريخ أنه لا يأس إطلاقا ، القدس أخذت ١٠٩٧ واسترجعت سنة ١١٨٧ بعد تسعين سنة ، عكا أخذت سنة ١١٩١ واسترجعت سنة ١٢٩١ بعد مائة سنة .

لا أريد أن أطيل عليكم لأننى أحب أن أستمع ، وقد استفدت كثيرا من الكلمات التى قيلت قبلى ، ولا شك أننى سأستفيد من الكلمات التى ستقال فيما بعد .

وأشكر ، تحية الأستاذ أحمد حمروش ، فى الكلمة اللطيفة التى قالها فى استقبالنا وأشكركم جميعا على حسن إنصاتكم وأرجو للعرب أن يتحدوا لكى ينتصروا ، إذا اتحد العرب ـ صدقونى ـ حتى دون أن يحاربوا ، مجرد اتحادهم سيخيف أعداءهم ، مجرد اتحادهم . أما التفكك فلا يفيد العرب ولا يفيد الشرق ولا يفيد الإسلام ولا يفيد إلا أعداء العرب ، فلتكن دعوتنا ليس فقط للتضامن الأسيوى الإفريقى وإنما أيضا للتضامن العربى ، فى كل مكان . فى الاتحاد قوة ، وفى القوة إخافة للأعداء ، وفى القوة احترام للذات ، أمام النفس وأمام الآخرين ، وبالقوة ، قوة الوحدة نستطيع أن نسترجع حقوقنا .

فليكن الرب مع العرب ، وليساعد على وحدتهم ، وأن يعطيهم النصر على أعدائهم ، ولكم منى جميعا الشكر ،،،

حتى يسود السلام
لابدّ من قوة تحميه ..

كلمة فضيلة الدكتور سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

فضيلة أستاذنا الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر.. قداسة البابا شنودة الثالث .. الأخوة والأخوات .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إنها لأوقات طيبة ، وساعات مباركة ، ولحظات سعيدة تلك التى نقضيها سويا لنتعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان .. وأن العقول البشرية مثلها كمثل المصابيح ، كلما تقاربت . كلما سطع ضوءها ، وكلما إزداد نورها ، كلما جاء الخير والنفع من ورائها . لأننا جميعا فى حاجة إلى التعاون وفى حاجة إلى التكاتف وفى حاجة إلى امتثال قوله الله عز وجل « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . والأمور الصعبة تتحول إلى أمور سهلة متى كان هناك تعاون ، ومتى كانت هناك النيات الطيبة والعزائم الصادقة ، والاتجاه نحو الأهداف الشريفة التى جاءت بها الأديان السماوية ، وأيدتها العقول السليمة .

وعندما نجتمع فى هذا المكان بدعوة من اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الإفريقية والآسيوية ، عندما نجتمع فى هذا المكان أشعر بالسرور والارتياح ، وأشعر بأن من واجبى أن أشكر هذه اللجنة الموقرة على تلك الدعوة الكريمة ، لأنها قد سنت سنة حسنة بالتعاون الصادق ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

إن الهدف الذى اجتمعنا من أجله هو أن نحيي ذكرى معركة حطين بمناسبة

أنقضاء ثمانمائة عام عليها، وللذكريات قيمتها فى حياة الأمم فهى تشحذ العزائم وهى تعلم الناس ما لم يكونوا يعلمونه ، وهى التاريخ الذى أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن نتدبره وبأن نأخذ العبر والعظات منه ، والذى يقرأ القرآن الكريم يجد ثلثه تقريبا فى الحديث عن أخبار السابقين ، ساق لنا من بين ما ساق قصة نوح مع قومه ، وقصة هود مع قومه ، وقصة إبراهيم مع قومه ساق لنا ما تعرض له الأنبياء ، وما تعرض له المصلحون ، ساق لنا كل ذلك لكى نعتبر ، ولكى نتعظ ، ولكى نأخذ من هذا القصص ما ينفعنا فى ديننا وفى دنيانا ، وصدق الله إذ يقول « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله » والمقصود بالتذكير بأيام الله تلك الأحداث التى نعلمها جميعا ، تلك الأحداث التى ذكرها لنا القرآن الكريم ، وذكرتها لنا كتب التاريخ ، تلك الأحداث التى ستستمر ما بقيت الدنيا ، لأنه ما دامت هناك حياة ، فلابد أن تكون هناك أحداث ، ولابد أن تكون هناك مشكلات ، ولابد أن تكون هناك أمور تجرى بين الناس ، لأن اختلاف العقول من طبيعة البشر ، « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » .

الذكريات لها قيمتها ، والكلمات التى استمعنا إليها من فضيلة أستاذنا الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، والتى استمعبا إليها أيضا من قداسة البابا ، والتى استمعنا إليها من غير سماحتهما ، هذه الكلمات لها وقع عميق فى نفوسنا جميعا ، التحليل الواعى المستنير المدعم بالأرقام ، الذى ساقه قداسة البابا ، لا أستطيع أنا شخصيا أن أجاريه فيه ولا أستطيع أن أدخل فى هذا الجانب بعد أن ذكر لنا قداسته مايشفى فى هذه الناحية ، إنما الكلمات التى دارت بذهنى فى هذه المناسبة الكريمة ، الكلمات التى دارت بذهنى وأنا أجلس فى هذا المجلس أن هناك عبراً وعظات علينا أنْ نأخذها من معركة حطين .

الأديان .. والسلام

على رأس هذه العبر والعظات ، أن الأديان السماوية جميعها إنما جاءت بالسلام ولم تأت بالحروب .

والحرب يبعثها القوى تجبرا ... وينوء تحت بلائها الضعفاء

ما جاءت الأديان بالحروب ، وإنما جاءت بالسلام ، جاءت لغرس الأمانى والاطمئنان فى نفوس الناس لأن الحياة لا قيمة لها إذا لم يسدها الأمان . السعادة الحقيقية ليست فى الأموال وليست فى المناصب، وإنما السعادة الحقيقية عندما ينام الإنسان فى بيته وهو آمن مطمئن ، أما إذا كان يملك ما يملك من جاه أو منصب أو مال وهو لا يعيش آمنا ، فإنه لا يشعر بلذة لكل ذلك ، فالأديان السماوية جميعها إنما جاءت لكى تقيم السلام والأمان والاطمئنان بين الناس ، خصوصا إذا ما أخبرنا القرآن الكريم بأن الناس جميعا قد انحدروا عن أصل واحد ، ونجد ذلك فى آيات متعددة ، منها قوله ـ عز وجل ـ «يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا» . إذن الأصل أو الرسالة التى أوجدنا ـ الله تعالى ـ من أجلها فى هذه الحياة هى أن نعبده وأن نعمل على نشر الأمان والاطمئنان بين الناس ، لأن نعمة الأمان كما قلنا على رأس النعم التى منحها الله سبحانه وتعالى لعباده .

ولكن هذا السلام لابد من قوة تحميه ، لابد من قوة تقف إلى جانبه لكى تثبته ، السلام لا يأتى اعتباطا أو مصادفة ، وإنما السلام الحقيقى يتأتى عندما يكون هناك قادة مصلحون ، قادة قد سلمت قلوبهم من الطغيان ، ومن الأنانية ، ومن الأحقاد ، وهؤلاء القادة تسندهم قوة ، هذه القوة ليست للبطش ، وليست للإرهاب ، وليست للعدوان ، وليست لانتهاك الحرمات وإنما هذه القوة لكى تحمى هذا السلام ولكى تصونه . ولذلك الأديان السماوية بجانب أنها تأمر أمراً صريحا وواضحا بإقامة السلام فى الأرض .. تأمر فى الوقت

نفسه أن يكون هناك قوة تحمى هذا السلام . وتصون هذا السلام . وتثبت بنيان هذا السلام . ومن هنا وجدنا بأن من صفات الله ـ عز وجل ـ صفة القوة وصفة السلام. نجد بأن من تحية المؤمنين فيما بينهم السلام، ومع ذلك وصف الله سبحانه وتعالى أنبياءه بالقوة . ووصف الله ـ عز وجل ـ ملائكته بالقوة . «عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» ... «علمه شديد القوى ذو مِرَّة فاستوى» .. «وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث طالوت ملكا ، قالوا أنّا يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه . ولم يؤت ساعة من المال ، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم» .

فمن العبر التى نأخذها من معركة حطين أنها كانت تقوم على السلام من جانب صلاح الدين .. هو لم ينتقل من مملكته أو من أرضه لكى يغزو الناس فى ديارهم .. وإنما هو عندما هوجم . وعندما جاءه من جاء ـ كما استمعنا من قداسة البابا ـ من أواسط أوروبا ومن أطراف أوروبا ، وجاءوا يتمسحون بالدين ، وهم لا يحملون فى قلوبهم شيئاً من الدين ، إنما جاءوا بدافع التوسع . وبدافع العصبية . وبدافع الحقد . لأنهم عندما جاءوا ، جاءوا يحملون كل ضغينة لكل عربى شرقى . سواء أكان هذا العربى مسلما أم مسيحيا .

ونجد فى التاريخ عندما نقرأ ، نجد بأن بعضهم عندما جاء آذى بعض المسيحيين ، أكثر من إيذائه لبعض المسلمين. ويحدثنا التاريخ أن الأسقف الكاثوليكى «أميرى دى ليموج» عندما قاوم هؤلاء الصليبيين ، وعندما قبض عليه القائد الصليبى «شتيون» عذبه عذابا شديداً ، بأن جرده من ملابسه ثم بعد ذلك طلى جسمه ببعض الطلاء ، يقال إنه العسل ، ثم بعد ذلك تركه للذباب وللذنابير ، ولغير ذلك إلى أن مات . وعندما بلغ صلاح الدين ذلك خرج عن طبيعته التى استمعنا إلى جانب منها ، وهى طبيعة المسالمة والرحمة وأبى إلا أن ينتقم بنفسه ، وأن ينفذ حكم القصاص بنفسه فى ذلك القائد الصليبى .. كان يترك تنفيذ القصاص لقواته ، ولكن بالنسبة لهذا القائد بالذات وهو «شتيون» قال أنا الذى أعدمه بيدى لأنه فعل ما فعل بالنسبة لذلك الأسقف الكاثوليكى ، وهذه قصة

مشهورة نراها فى كثير من كتب التاريخ .

هم عندما جاءوا ، لم يجيئوا من أجل إصلاح ، إنما جاءوا وهم يحملون فى قلوبهم كل معانى الحقد لكل شرقى ، سواء أكان مسلما أم كان غير مسلم ، لذلك قاوم صلاح الدين تلك العصابات التى جاءت وهى تتمسح بالدين ، قاومها وهو يحمل السلام بيده اليمنى ويحمل أيضا القوة التى تثبت هذا السلام بيده الأخرى ، عملاً بأن هذه الحياة ، لابد أن يكون بجانب السلام ، أو بمن يقول بالسلام فيها ، لابد أن تكون معه القوة التى تحمى هذا السلام .

إذا كنت بين العالمين أخا قوة	رعتك عيون الناس حين تنام
حمى الغاب بأس ليث من كل طارق	ولم ينج من فتك البوزات حمام
يقولون إن الحق من فوق قوة	وما الحق إلا مدفع وحسام

الحــق .. والقــوة

تلك هى طبيعة الحياة .. السلام يجب أن يسود ، ولكن هذا السلام لابد له من قوة تثبته ، لابد له من قوة تقويه ، لابد له من قوة تؤيده ، وإذا كان أنبياء الله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما أحاط المنحرفون والممسوجون ، أحاطوا بالمؤمنين وأرادوا أن يعتدوا عليهم ، وهو لا يملك القوة ، تمنى أن تكون معه القوة التى تصد أولئك ؛ وتمنع أولئك الأشقياء المفسدين عن الاعتداء على الأطهار وقال كما حكى القرآن الكريم عنه « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » تمنى أن تكون إلى جانبه القوة لكى يدافع عن الحق ، لكى يدافع عن الفضيلة وهذا مافعله صلاح الدين ، إنه ينشد السلام ولكنه بجانب نشدانه للسلام كانت معه القوة التى تدافع عن الحق وتثبت أركان السلام .

من العبر التى نأخذها من هذه المعركة ، وهى معركة حطين ، أن القائد الصالح عندما يوجد على رأس أمة ، فإن صلاحه يسرى فى هذه الأمة إن لم يسر فى جميعها ، فلا أقل من أن يسرى فى مجموعها ، لأن النفوس جبلت على أن

تتأسى بالصالحين ، وجبلت النفوس على أن تقتدى بالأخيار ومن هنا القرآن الكريم يبين لنا فى آيات متعددة ، أن من الواجب أن نتأسى بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه لم يكن قدوة بقوله فقط . وإنما كان قدوة بقوله وبعمله ، « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . فعندما وجد هذا القائد المصلح الذى حارب من أجل الحق ومن أجل الفضيلة ، والذى عاش حياته زاهداً ، عندما وجد هذا القائد التف الناس من حوله ودافعوا عن عقائدهم وعن أوطانهم ، دافعوا دفاع الأبطال لأنهم يجدون القدوة الطيبة ويجدون الأسوة الحسنة .

إن المؤرخين يحدثوننا ، أن صلاح الدين الأيوبى عندما توفى اقترض أهله من الناس ما يتمكنون به من تشييع جنازته . رجل يجمع القوة ، ويجمع السلام ويجمع النقاء ، ويجمع طهارة اليد ، ويجمع سلامة البصيرة ، ويجمع الرحمة القلبية التى منحها الله ـ سبحانه وتعالى ـ إياه . جميع هذه العوامل جعلت الناس تلتف من حوله وتدافع عن دينها وتدافع عن أوطانها دفاع الأبطال لأنهم يجدون الأسوة الطيبة فيه .

الناس والمصالح المشتركة

من العبر التى نأخذها أيضا من هذه المعركة .. معركة حطين .. من هذه العبر أن الناس فى كل زمان ، وفى كل مكان ، فى الأوطان التى يعيشون فوق أرضها وتحت سمائها ويستنشقون من هوائها ، وتجمعهم المصلحة المشتركة .. الناس فى كل زمان وفى كل مكان يدافعون عن تلك المصالح المشتركة بدون تفرقة بين مسلم وبين مسيحى ، يدافعون عن تلك المصالح المشتركة .. ولنا فى التاريخ فى قديمه وفى حديثه ، لنا ما يؤيد ذلك . الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما هاجر إلى المدينة كان من أوائل الأعمال التى عملها بالمدينة المنورة أن عقد معاهدة بينه وبين اليهود الذين كانوا يسكنون فى المدينة المنورة مع الأوس والخزرج ، وكان من بنود هذه المعاهدة ، أنه إذا دوهمت المدينة من عدو خارجى ، سواء أكان هذا العدو

من قريش أو من غير قريش ، فعلى أهل المدينة جميعا من مسلمين ومن يهود ومن مسيحيين ومن غيرهم ، أن يخرجوا جميعا للدفاع عنها ، كان على رأس الأعمال التى عملها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن عقد تلك المعاهدة ، لماذا ؟ لأن الأمم التى تعيش على أرض واحدة وتحت سماء واحدة وتستنشق من هواء واحد، وتجمعها المصالح المشتركة، هذه الأمم عندما يأتيها عدو خارجى ، هنا تخرج كلها ، تخرج الأمة على اختلاف أديانها وعلى اختلاف عقائدها لكى تدفع ذلك العدو الذى جاء يداهمها فى أرضها .

ونجد ذلك فى معركة حطين ، لقد خرج المسلم إلى جانب المسيحى ، الكل خرج لكى يدافع عن أوطانه ، لكى يدافع عن عقائده ، لكى يدافع عن عرضه ، لكى يدافع عن أهله ، لكى يدافع عن نفسه . الكل خرج .

نحن عندما نقرأ تاريخنا القديم ، وتاريخنا الحديث ، وتاريخنا الحاضر ، نجد أن ذلك يتمثل كأحسن ما يكون التمثل . فى ثورة سنة ١٩١٩ ، ماذا كنا نرى ؟ وماذا كنا نسمع ؟ نسمع أن المسيحى كان إلى جانب المسلم ، وكانا فى ميدان واحد ، وكانا فى قلعة واحدة ، وكانا فى شارع واحد ، وكانا فى خندق واحد ، الكل يدافع عن دينه ، والكل يدافع عن عقيدته ، والكل يدافع عن مصالحه المشتركة .

الجيش المصرى فى قديمه ، وفى حديثه ، وفى تاريخه القريب ، وفى تاريخه البعيد وفى تاريخه الحاضر.. الجيش المصرى .. الجندى المسيحى إلى جانب الجندى المسلم ، الكل يدافع عن دينه وعن عرضه وعن بلاده . وفى حرب أكتوبر وفى غير حرب أكتوبر .. هذا كله يدل على أن معركة حطين كانت المصالح المشتركة فيها أبرز ما تكون ، وكان أهل مصر جميعا من مسلمين ، ومن غير المسلمين ، بل غير أهل مصر أيضا من الدول المجاورة ، الكل خرج لكى يدافع عن دينه ، ولكى يدافع عن عرضه ، ولكى يدافع عن عقيدته ، لأن الأديان جميعا تأمر بذلك ، تأمر بالدفاع عن الحق ، «أذن للذين يقاتلون بأنهم

ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق . إلا أن يقولوا ربنا الله »

هذه خواطر جالت بنفسى عندما جلست فى تلك الجلسة المباركة واستمعت إلى تلك الكلمات الحكيمة من فضيلة أستاذنا الإمام الأكبر ومن قداسة البابا شنودة ومن غيرهما من المتكلمين .. هذه الكلمات ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمعنا جميعا على طاعته وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا وسلوكنا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا جميعا لكى نتعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان .

وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وحدة الوطن تعلو على وحدة العنصر :
درس من حِطّين

كلمة الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى

رئيس منظمة التضامن بين الشعوب الأفريقية والآسيوية

فى تاريخ كل أمة لحظات مضيئة .. وفى مسيرة كل شعب منعطف حاسم ..

ومن تلك اللحظات والمنعطفات تتجدد الحياة وتتألق .. ويصوغ الإنسان شكلا جديدا للعلاقات ، ويتخذ الزمن له مجرى غير مجراه القديم . وفى اندفاع تيار الزمن الجديد تتولد طاقات جبارة تحول الحياة إلى ضياء ، وأزهار ، ونماء ، وتقدم .

من تلك اللحظات المضيئة فى تاريخنا يوم بدر ، وكان الانتصار فيه منعطفا حاسما فى مسيرة الإسلام ..

وتتوالى اللحظات المضيئة والمنعطفات الحاسمة فى تاريخنا : اليرموك .. القادسية .. الفسطاط .. ثم الأندلس .. وتعبر العصور بما فيها من خير وشر ، وظلمات وومضات حتى يوم حطين ..

ولحطين معنى خاص .. فقد تألقت فى تاريخنا بعد فترة مضنية معذبة من الظلمات والخلافات ..

وكانت حطين بشيرا بمشرق عهد من التضامن والتعاون والتآخى .. وتلك بعض عبرتها ..

ولو أننا وقفنا لنتأمل عظمة حطين لوجدنا عجبا ! . فتلك معركة وحد فيها العرب قائد عظيم هو نفسه ليس من العرب ! .. ولكنه من بعض الشعوب التى تحيا على أرض العرب ، وتحمل للأرض التى غذاها بر الأبناء ، وروعة الوفاء ..

فصلاح الدين الأيوبى بطل حطين كردى لا عربى .. ولكنه أحد الذين أثبتوا

أن وحدة الوطن تعلو على وحدة العنصر .. فما حرك صلاح الدين فى كل ما كان يأخذ ويدع إلا شعور قوى بالانتماء إلى الوطن العربى .. وذلك بعض أسرار معجزة الانتماء : أن ينازع حب الوطن نزعة العرق والعنصر . لتصبح الدماء التى يحملها كل عرق فى بدنك خفاقة بحب وطنك . وبما أولتك الأرض التى ولدت عليها وحبوت . وأنماك هواؤها وماؤها وغذاؤها ..

وهكذا كان أهل الأرض العربية مهما تختلف أصولهم وأعراقهم يدينون بالولاء للأرض التى أنشئوا من ترابها . وسيثوون آخر الأمر تحت ترابها . ليصبحوا بعض هذا التراب ..

ولعل بعض ما يطالعنا من عظمة حطين تلك اليقظة التى عصمت أهل المشرق من أن يقعوا فى فخاخ المكيدة والخديعة . وكل ما ملأت به أوروبا طرق الحياة فى بلادنا من شراك ! !

فقد اضطرمت فى أوروبا المصالح الدنيوية والأطماع وأحلام السيطرة والاستغلال . فاندفع الملوك والأمراء من أوروبا يقودون رجالا تشعل حماستهم أحلام الثراء والمتاع فى شرقنا الساحر ، وبعضهم تستفزه المزاعم والنداءات الخادعة المخدوعة عن حماية المقدسات المسيحية واستخلاصها من أيدى المسلمين ! ! .. لقد استغل أصحاب الأطماع الدنيوية الشعارات الدينية . ورفعوا الصليب المقدس ، وأخفوا وراءه غول الطمع الشرس . وأضرموا الأحقاد والتعصب ، وزعموا أنهم جاءوا تحت راية الصليب ، ليحموا أتباع الصليب ..

ولكن أتباع الصليب فى بلادنا العربية لم ينخدعوا بأباطيل الصليبيين الأوروبيين .. وما أسرع ما اكتشف المسيحيونُ من أهل الشرق ، أن الصليبيين الزاحفين من أوروبا إنما أقبلوا غزاة باغين طامعين .. وليسوا هم حماة الصليب الورعين ! .. فحماة الصليب هم أهل الأرض التى ولد فيها وعاش فيها حامل الصليب وبشر ، وهدى الناس .. هم هؤلاء العرب من المسيحيين والمسلمين على السواء ..

وهكذا كانت للوطنية مرة أخرى ، قوة العقيدة .. وأصبح الإيمان بالوطن دينا قيما ..

وهكذا حارب المسيحيون العرب تحت راية صلاح الدين ، النسر الأحمر وهى راية استلهمها صلاح الدين من راية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. وتحت راية الإسلام حارب المسيحيون العرب دفاعا عن الوطن ، وعن المقدسات المسيحية من ضلالات الصليبيين الأوروبيين ..

ومازال التاريخ يذكر بالإكبار عيسى العوام القائد القبطى الذى كان من أقرب أصحاب صلاح الدين إليه ، ومن أحسن أمراء العرب بلاء فى الحروب الصليبية ..

على أن معركة حطين بما انتهت إليه من نصر ساحق لصلاح الدين وجنده وهم يومئذ فئة قليلة ، هذه المعركة قد كشفت لبعض المخدوعين من الصليبيين الأوروبيين عظمة الخلق العربى الإسلامى ، وجلال الفتوة العربية من عطف على الضعفاء ، والعفو عند المقدرة ، وحسن معاملة المغلوب والأسارى والنساء .. والنجدة والشهامة والبذل ، وشرف الخصومة ، فاقتبست أوروبا تلك الفضائل لتكون من مبادئ الفروسية ، ولتؤسس عليها حضارتها ..

ثم إن معركة حطين بما تلاها من انتصارات توجها تحرير القدس من أيدى الصليبيين قد كشفت لكثير من الصليبيين أن القدس تحت حكم المسلمين خير من بقائها تحت سلطان الصليبيين !.. وما أبعد الفرق بين يومين : يوم استولى عليها الصليبيون الأوربيون فذبحوا عشرات الآلاف من أهلها ، ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء ، حتى أصبحت الخيل تخوض فى الدماء .. ثم يوم استردها العرب المسلمون بقيادة صلاح الدين ، فساعدوا الضعفاء ، وعفوا عمن قدروا عليهم من الأعداء ، وأطعموا الذين أنهكهم الجوع تحت الحصار الطويل ، وتعانق رنين أجراس الكنائس برجع الصدى من أذان المساجد ، وشمخت المآذن والقباب معا تعبيرا عن أخوة الأديان وتسامح الأديان ..

ولعل من أهم ما تعظنا به حطين عبر ثمانية قرون أنها جمعت الذين يعيشون على الأرض العربية قبائل وشعوبا . فحققوا بتجمعهم وتضامنهم النصر على عدوهم ، وحرروا أرضهم .. فلنذكر فلسطين كلما ذكرنا حطين .. ولنأخذ من حطين ما يعين فلسطين .

وإننا لنغتمن آخر الأمر أن نعتبر ونتعظ . وويل لمن لا يعظه التاريخ فلا يعتبر ولا يذكر ! وإذن فلنتعلم من حطين أنه لا سبيل لنا غير التضامن الحق ، وأن الوطنية عقيدة وإيمان ، وأن الأخوة فى الله والوطن نسب وقربى . وأن الوطن للجميع والدين للديان ،،،

كلمة الدكتور عصمت عبد المجيد

نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية

السيد رئيس اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية

السيد رئيس مركز الدراسات العربية

لقد جاءت الندوة الدولية الخاصة بذكرى مرور ٨٠٠ سنة على موقعة حطين والتى تقام بالتنسيق والتعاون بين اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية ومركز الدراسات العربية فى أوانها المناسب. فالمنطقة العربية ـ والتى تمثل مصر جزءا لايتجزأ منها بل ربما إن شئنا الدقة تمثل قلبها النابض بالحب والوفاء والعطاء دائما ـ هذه المنطقة أحوج ماتكون الآن لإلقاء نظرة فاحصة ومتعمقة على تاريخها وحضارتها ، وعلى آمالها وطموحاتها. لكى ندرس ما فيه من أحداث ونستلهم ما فى ذلك من دلالات ، ونحن نستشرف آفاق القرن الحادى والعشرين والذى يتسم بسرعة الأحداث وعمق المتغيرات الأمر الذى يستلزم يقظة الوعى وأصالة الإدراك لكل هذه العوامل ، حتى يمكننا أن نرسم إطار حركتنا السياسية والاجتماعية ، ونضع خطتنا الاقتصادية بطريقة سليمة ، وعلى هدى مبادئ راسخة وأصيلة ، لترسى دعائم وحدتنا ، وتشد أزر تضامننا .

إن مرور ثمانمائة عام على موقعة حطين ، والتى تمثل علامة بارزة فى تاريخ نضال أمتنا العربية والإسلامية ، ضد القوى المعادية لها ، أمر جدير بالاهتمام ليس فقط من قبل الأوساط الأكاديمية والمفكرين بل وأيضا من قبل رجال السياسة والعمل النشط لتطوير المجتمع .

إن اضطلاع اللجنة المصرية للتضامن ، ومركز دراسات الوحدة العربية بالدعوة لهذه الندوة لدليل واضح على تفاعل الهيئات غير الرسمية ومراكز الأبحاث

مع نبض هذا المجتمع ومشاكله وقضاياه وطموحاته ، وإننى لعلى ثقة بأن مداولات الندوة ومشاركة هذه الكوكبة من رجال العروبة والإسلام فى مصر والعالم العربى وغيرهم من المفكرين من دول العالم المختلفة . ستقدم مساهمة فعالة فى إثراء الفكر والعمل فى منطقتنا العربية وتكون لبنة من أجل تشييد صرح مستقبل أفضل لشعوبنا وخطوة نحو تحقيق آمالنا .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا لخدمة أمتنا العربية ومصرنا الحبيبة .

معركة حطّين في تاريخ صراعنا المستمّر ضد الأطماع الاستعمارية

كلمة الأستاذ: عبد المجيد فريد
رئيس مركز الدراسات العربية (لندن)

حضرات السادة المحترمين ...

قدم مركز الدراسات العربية فى لندن منذ نشأته عام ١٩٨٠ العديد من الدراسات وأقام العديد من الندوات الدولية واللقاءات العربية ، كما أصدر الكثير من الكتب والأبحاث ، وكانت كلها تتناول فى مجملها معالجة القضايا والمشكلات العربية المعاصرة ، أذكر من هذه الندوات مثالين فقط الندوتين الأخيرتين « عرب بلا نفط .. نظرة مستقبلية لآثار هبوط العوائد النفطية » و « باب المندب والأمن القومى العربى » .

وإذا كان المركز بالاشتراك مع اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية قد أقدم على إقامة هذه الندوة « ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد » فإنه بذلك لايتخلى عن منهجه فى معالجة القضايا العربية المعاصرة إلى حيث يقنع بالإبحار فى التاريخ القديم استعذابا لمجد غابر ، أو احتفالا ببطولات قام بها الأقدمون نقف منها عند حد الذكرى والتحية ، حتى إن كانت واجبة ومفروضة نقوم بها جيلا بعد جيل نحو من قاموا بأداء الواجب فأحسنوه ، بل إن المركز يقدر بأنه فى قيامه بالمشاركة فى هذه الندوة يكون أكثر إمعانا فى تمسكه بمنهجه ، فليس أكثر من التاريخ معلما ومرشدا لمن يريدون صياغة مجتمعاتهم أو صيانة أرضهم .

إننا هنا نستدعى التاريخ بكل وقائعه وأحداثه ، ظروفه وملابساته ، تجربته الحية التى كشفت عن أماكن القصور وأبعادها ، وكذلك حددت أوجه النصر وأسبابه . وقبل ذلك ومن بعده لماذا استهدفت هذه المنطقة فى الماضى من

الاستعمار أيا كان نوعه ، ولماذا تستهدف الآن فى الحاضر.

ثم ماهى العبرة التى نستخلصها من التجارب التى خاضها الآباء والأجداد ؟ وماهو درس التاريخ البليغ ؟.

إننا هنا نستدعى التاريخ لكى نتخذ منه دليلا ومرشدا عبر المسالك والدروب التى تتعثر فيها قضايانا ومشاكلنا المعاصرة .

حضرات السادة ...

صلاح الدين الأيوبى واحد من القادة العظام الذين عرفهم تاريخ منطقتنا وهو وإن لم يكن عربى الأصل إلا أن إسهامه فى صد الحملات العسكرية المعادية والموجات الاستعمارية الوافدة على الأرض العربية ، ثم إسهامه بعد ذلك فى تحرير أجزاء أخرى من الأرض العربية من الغزاة الاستعماريين المتسترين وراء العلم الصليبى جدير بأن يعطيه تلك المكانة الرفيعة فى التاريخ العربى ، والتى لم تجعل منه مجرد قائد بارز فى هذا التاريخ ، وإنما أعطته فوق ذلك هذا الوهج الذى جعل منه فى النهاية بطلا شعبيا ، مازال اسمه يتردد حتى على ألسنة العوام .. ورغم بعد الزمن وكثرة المعارك والأحداث .

وحطين لم تكن معركة ككل المعارك ، وإنما كانت معركة مصيرية ، فتحت الباب على مصراعيه لتحرير أجزاء كبيرة من الشام ، وقد حشد لها الصليبيون جيشا جرارا قوامه ٦٣ ألفا من الجنود . وهناك على جبل حطين دارت أعنف وأقسى وأشرس معركة سقط فيها من الصليبيين ثلاثون ألف قتيل ، ومثلهم أيضا كان عدد الأسرى ، وفى ذلك يقول أبو شامة فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » « إن من شاهد القتلى قال ما هناك أسير .. ومن عاين الأسرى قال ماهناك قتيل ، ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ماشفى للمسلمين كيوم حطين » .

هكذا نالت معركة حطين جدارة الصدارة فى تاريخ تلك المرحلة ، وهكذا

تبوأت مكانة فى التاريخ العربى ، وهكذا اكتسب صلاح الدين ذلك المجد وتلك الشهرة العريضة والواسعة .

حضرات السادة ...

لقد تسترت تلك الموجة الاستعمارية فى أواخر القرن الحادى عشر تحت شعار تحرير الأماكن المقدسة من أيدى المسلمين ، وهى فى حقيقتها لم تكن حربا دينية بين المسيحية والإسلام ، حتى وإن كانت الدعاية الدينية قد لعبت دورا كبيرا ومؤثرا ، وحقيقة هذه الحرب بالرغم من كل الأعلام الدينية التى رفعتها أنها كانت عملية نهب استعمارى لم تشهد لها القرون الوسطى مثيلا ، كانت إستعمارا أوربيا قبل أن تعرف أوربا الثورة الصناعية أو تنمو فيها الحركة الرأسمالية .

يقول ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » إنه حين اشتد أمر الفرنج فى الأندلس بعد فتح طليطلة أرسل ملكهم إلى حاكم جزيرة صقلية (المسيحى) يخبره أنه فى طريقه إلى صقلية ليتوجه منها إلى احتلال تونس وشمال أفريقيا فتخوف حاكم الجزيرة من وصولهم إليه والأعباء التى سيتحملها ، فرد عليه مقترحا أن يتوجهوا بدلا عن ذلك إلى المشرق العربى وخاصة بيت المقدس .

إن كل المصالح تتجمع والأرض العربية فى النهاية هى الثمن وهى الهدف ، ويكفى أن نعلم أن القوى التجارية فى أوروبا كانت هى الممول لهذه الحروب والمحرك الرئيسى لها .

والطريف فى الأمر أنه بينما كانت المعارك مشتعلة ، والدماء تسيل أنهارا بين العرب والصليبيين ، كان التجار فى أوروبا لايترددون فى بيع الأسلحة للعرب والتى يقاتلون بها الصليبيين ، بالإضافة إلى مايلزم العرب أيضا من المواد الأخرى ، مما اضطرت الكنيسة معه أن تصدر قرارا « بأن كل من يجرؤ على أن يبيع للعرب أسلحة أوحديدا أو خشبا لبناء السفن أو بيعهم قوارب جاهزة فإن جزاءه سيكون الحرمان من الغفران فضلا عن مصادرة أمواله وحريته الشخصية » .

حضرات السادة ...

إن الحروب لاتقع مصادفة ، وحين تقوم الحرب فلابد وأن يكون لها أسبابها ، والحروب تحركها المصالح .. وهى أحيانا لاتكون مصالح وطنية خالصة ، ولكنها مصالح طبقات وقوى اجتماعية نمت وكبرت إلى حد أصبحت تتطلع فيه عبر الحدود إلى حيث الثروات الطبيعية والمواقع الاستراتيجية . وطرق المواصلات ، والأسواق الموسعة ، والأيدى العاملة الرخيصة .

ذلك هو التطور الذى حكم نظرة الغرب إلى الشرق على امتداد التاريخ منذ ازدهار الحركة التجارية فى أوروبا إلى الثورة الصناعية إلى النمو الرأسمالى وزحفه نحو المستعمرات . ولقد تميزت المنطقة العربية بموقعها الجغرافى ، وبثرواتها الطبيعية بحيث أصبحت هدفا للغزاة الطامعين وكذلك الحالمين بإقامة الامبراطوريات والممالك فى الشرق من الفاتحين والمغامرين على السواء ، ولقد تميز تاريخها تبعا لذلك بالحروب والمعارك ، وحركة الصراع التى لا تهدأ بين قوى الاحتلال الغازية ، والقوى الوطنية الرافضة .

ولقد تميز الدور المصرى منذ عصر النهضة الحديثة فى إطار حركة هذا الصراع بالنظر إلى طبيعة الموقع وطبيعة المجتمع المتجانس .

كلنا نعرف عندما قام محمد على ببناء الدولة الحديثة القوية وفق قوانين القرن التاسع عشر بحيث أصبحت تعد إحدى المراكز الجديدة للقوة العالمية ، وبعث النهضة العربية من جديد عبر توحيد الأرض العربية على إمتدادها وفى هذا يقول « إبراهيم باشا » « سوف نستمر فى فتوحاتنا حتى نفصل بين من يتكلمون العربية وبين الذين لايتكلمونها » . وقد كان بعث الأمة العربية مما يهدد مصالح قوى أخرى كبرى وعاتية ، ولذلك سرعان ما تحالف الغرب مرة أخرى لضرب هذا المشروع القومى الذى أقامة محمد على . كانت مصر هى قلب الأمة العربية . وهى قلعة الزراعة والصناعة والثقافة والتعليم وهى فى النهاية قاعدة الانطلاق ، ورمز للتحدى فى ذلك العصر ، وسرعان ماجرى هذا التحالف الغربى فى مواجهة

مصر، وكان ثمرته معاهدة عام ١٨٤٠ والتى جرى بعدها تقسيم المنطقة والتهام الأرض العربية والإسلامية التى كانت مرتبطة فى ذلك الوقت بالامبراطورية العثمانية وهى التى زحف إليها الضعف والوهن حتى لقبت باسم الرجل المريض .

وبعد مرور قرن من الزمان أو يزيد قليلا قامت مصر من جديد لكى تحطم أغلال التبعية وقيودها ، فكانت ثورة مصر عام ١٩٥٢ التى تحولت من مجرد ثورة وطنية محلية إلى ثورة قومية عربية تقتلع جذور الاستعمار من مصر ومن معظم الدول العربية ، وتصبح مركزا رئيسيا وفاعلا فى إطار حلقات ثلاث (العربية والأفريقية والإسلامية) وفى حركة التضامن الأفريقى ـ الآسيوى التى أرستها مع قادة ورؤساء دول العالم الثالث فى باندونج كما ساهمت بدور رئيسى فى إرساء دعائم حركة عدم الانحياز.

نهضت الأمة من جديد ، وتمت الوحدة بين قطرين عربيين وبإرادة عربية خالصة وبدأت حركة التعمير والتصنيع واستصلاح الأرض. لقد بدأ عصر النهضة وتحقيق المشروع القومى وصياغته وفق قوانين العصر الحديث .

إنه التحدى يقوم على الأرض العربية فى مواجهة قوى الاستعمار . ولكن سرعان مايتم التحالف وتدبير المؤمرات ، وتقع حرب عام ١٩٦٧ التى مهما كان حجم القصور أو الأخطار الداخلية فيها ، إلا أن حجم دور التآمر الخارجى يبقى أكبر من كل ذلك بكثير. وإن كان الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل قد كشف جوانب كثيرة ، هامة وخطيرة فى كتابه « ملفات السويس » عن التآمر الاستعمارى حول ثورة يوليو وقائدها. فإن حرب ١٩٦٧ مازالت تمثل كتابا وفصلا فى حركة النضال العربى لم تسطر بعد أخطر صفحاته ، ويكفينا أن نستدل على ذلك من حجم المشروعات الاستعمارية المطروحة على المنطقة

المشروع الأمريكى ومحاولة الهيمنة على المنطقة وانفراده بالقرار حول مصيرها .

المشروع الإسرائيلى ومحاولة تفتيت وتقسيم المنطقة إلى دويلات وإمارات وكيانات هزيلة يمكن التهامها فى ساعات .

المشروع الإيرانى ومحاولة طمس وضياع الهوية العربية تحت دعاوى دينية وعنصرية . ونظرة واحدة على الخريطة العربية بأوضاعها الراهنة نلمح عمق المأساة وقساوة الواقع .

وأخيرا محاولة عزل مصر أو احتجابها وهى التى كانت دوما وعبر تاريخ طويل الإقليم القاعدة حين يلوح أو يحدق الخطر .

والأكثر من ذلك محاولات ضرب الوحدة الوطنية وزرع الفتنة بين عنصرى الأمة ، وكانت مصر دائما أرض السماحة والصفاء ، كما كانت أرضا للأمن وللاستقرار .

فى إطار ذلك كله نشعر أننا فى حاجة أكيدة إلى الإبحار فى التاريخ لكى نأخذ الدرس ونستلهم العبرة .

إن الانتصار لم يتولد فى أى معركة إلا فى إطار الوحدة الوطنية وتحت الراية القومية .

هكذا تصدينا لكل الفاتحين والغازين الذين وفدوا إلينا موجات وراء موجات .. وإذا كان الشغل الشاغل الآن للسياسة العربية هو الإعداد للمؤتمر الدولى ، وترتيب أوضاعه والمشاركين فيه وهل يتم بحضور السوفييت أو يتم بجهد أمريكى أو أوروبى . فإن كل تلك الجهود لا يمكن أن تسفر عن شىء يحقق للأمة ولو بعضا من آمالها .

إن المؤتمر الدولى لن يكون فى قراراته ونتائجه سوى انعكاس صريح ومباشر لحالات الانقسام التى تعانيها الأمة .

لابد أن تتوفر ابتداء إرادة عربية واتفاق عربى يدرك أنه لا يمكن أن يحقق أمن إقليمى إلا فى إطار الأمن العربى القومى بمعناه الشامل . وهو الأولى بكل حساب .

لقد علمنا التاريخ عبر كل الوقائع والأحداث أن أرضنا مستهدفة بفعل

المكان وما تختزنه الأرض من ثروات . وأن النصر لم يتحقق إلا بالعمل العربي الواحد والجبهة العربية المتحدة .. إنه درس الزمان .. ومكانة المكان .

أو التاريخ والجغرافيا الدليل والمرشد لكل من يريد البحث عن المبررات والأسباب .

والطريف فى الأمر حول دراستنا لهذا الموضوع أن أحد مراكز الدراسات فى إسرائيل يقيم فى الأيام القليلة القادمة ندوة حول نفس الموضوع وبنفس الاسم « حطين صلاح الدين » .

ختاما .. شكرا وتقديرا للجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية وعلى رأسها الأخ الزميل أحمد حمروش .. ويذكر له مركز الدراسات العربية فى لندن مساهماته ومشاركة اللجنة لنا فى الانجازات التى قام بها المركز فى ندواته ودراساته وفقا لبروتوكول التعاون الذى وقع بين المركز واللجنة منذ عدة سنوات .

القسم الثاني

مَعرَكة حِطّين

الحملات الصّليبيّة
تصوّرات مختلفة

بقلم المؤرخ البريطاني مونتجمري وات

نجاح الحملة الصليبية الأولى يعود إلى حد بعيد إلى حقيقة أنه فى نهاية القرن الحادى عشر لم يكن هناك حاكم مسلم قوى واحد فى المناطق التى هاجمها الصليبيون . بل كان هناك عدد من الحكام المحليين الصغار الذين أنفقوا الشطر الأكبر من وقتهم وطاقتهم فى قتال جيرانهم .

خلال القرون التى انقضت منذ وقوع الحملات الصليبية ، تم النظر إلى هذه الحملات بطرق متعددة ومختلفة من جانب كل من المسيحيين والمسلمين .

وفى أواخر القرن العشرين ، وحيث أصبحت العلاقة بين الإسلام والمسيحية وثيقة الصلة بالسياسة الدولية على الصعيد الكونى ، فإنه من الأهمية بمكان ضرورة إدراك كل جانب لما كانت تعنيه الحملات الصليبية للجانب الآخر فى الماضى . ولما تعنيه له الآن .

ونقطة البدء الملائمة لفحص هذه الأمور هى تبيان فكرة المسيحى العادى عن الحملات الصليبية وشعوره إزاءها خلال الربع الأول من هذا القرن .

ويمكن التسليم بأن هذا المسيحى العادى قد تبلور إدراكه للمعنى الأصلى للحملات الصليبية ـ على النحو الذى عرفه قاموس اكسفورد الإنجليزى ـ باعتبارها « حملة عسكرية اضطلع بها المسيحيون فى أوربا فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر لاسترداد الأرض المقدسة من (المسلمين) » ، بالإضافة إلى أنه اعتبرها أمراً طيبا وأهلا للتمجيد .

هذه النظرة جعلت من الممكن له استعمال نفس الكلمة على مساعى أو مشروعات معاصرة تستهدف التخلص من شكل ما من أشكال الشر الشائع ، أو مقاومة مؤسسة أو طائفة من أشخاص ينظر إليهم كشر ، فنجد أن الصحفيين الذين كانوا يقومون بتغطية زيارة مرجريت تاتشر إلى موسكو ، فى مارس ١٩٨٧ ، وصفوا هذه الزيارة بأنها « حملة صليبية » من أجل القيم الرأسمالية وحقوق الإنسان .

وقد ارتكز هذا التصور ، الممتدح للحملات الصليبية ، على عاملين يمكن النظر إلى كل منهما بصورة مستقلة عن الآخر . كان العامل الدينى أحدهما ، وكان العامل الثانى بمثابة فكرة رومانسية ـ بنحو ما ـ عن الفرسان والفروسية .

فطيلة قرن أو يزيد قبل دعوة البابا إيربان الثانى Urban II للحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٥ ، كانت هناك فى أوربا الغربية دلائل على حمية دينية متنامية . وكانت هناك حركات إصلاحية عديدة انصب هدفها على التخلص من الفساد الذى ظهر فى الكنيسة بدرجات مختلفة . وفى فترة مبكرة تعود إلى عام ٩١٠ أقيم دير فى كلونى بفرنسا لممارسة شعائر أكثر صرامة للناموس الرهبانى البنديكتى(*)، وفى القرن الحادى عشر أنشأ هذا الدير مائتى دير تابعة له . كما كان الاشتراك فى رحلات الحج أحد الأشكال التى عبرت بها الحمية الدينية المتزايدة عن نفسها . وكان ضريح القديس جيمس ـ فى كومبوستيللا الواقعة شمال غربى أسبانيا ـ أحد مراكز الحج الشهيرة . لكن رحلة الحج التى كانت تكتسب مكانة رهيبة أكثر من كل ما عداها فكانت تلك التى تتجه إلى القبر المقدس بالقدس (وهو الضريح الذى يرقد فيه جسد يسوع المسيح) .

الجدير بالذكر أن القدس كانت ، فى الشطر الأكبر من القرن الحادى عشر ، تقع ضمن نطاق الأقاليم التى يحكمها الخلفاء الفاطميون من القاهرة . وعلى وجه العموم قام هؤلاء الخلفاء بعمل اللازم من أجل توفير ظروف طيبة بصورة معقولة للحجاج المسيحيين . وعلى سبيل الاستثناء فقط يقال إن الحجاج عوملوا بخشونة فى عهد « الحاكم » (بأمر الله) (٩٩٦ ـ ١٠٢١) .

عند هذه النقطة يكون من الملائم أن نقتطف بعض الفقرات من المؤرخ الكبير للإمبراطورية الرومانية ، ادوارد جيبون Edward Gibbon ، نظرا لأن

(*) نسبة إلى القديس بنديكت . والجمعية الرهبانية التى تأسست بإيطاليا عام ٥٢٩ ميلادية . (المترجم) .

معالجته لتاريخ الصليبيين قد تركت ـ على الأرجح ـ تأثيرا هاما على الأفكار الأوربية اللاحقة إزاءهم :

قام الخلفاء التالون (يعنى : الذين جاءوا بعد الحاكم بأمر الله) باستعادة العمل بالمبادئ الأساسية للدين والسياسة ، وتم إقرار سياسة التسامح الدينى الحر مرة أخرى .. وبعد فترة قصيرة من التوقف عاد الحجاج بإقبال متزايد للاحتفال الدينى الروحى .

وكانت رحلة الحج إلى فلسطين عن طريق البحر محفوفة بالمخاطر ، كما كانت فرص الاشتراك فيها محدودة للغاية . لكن تحول المجر (يعنى : إلى المسيحية) أتاح وسيلة اتصال آمنة بين ألمانيا واليونان (يعنى : الإمبراطورية البيزنطية) .. وفاق حماس الفرنجة للحج كل الأمثلة المعهودة فى الأزمان السابقة ، حتى إن الأعداد الغفيرة من الحجاج ـ من الرجال والنساء ومن كل المراتب الاجتماعية ـ غطت الطرق .. كما هجر الأمراء والأساقفة العناية بإقطاعياتهم ، وكانت مجاميع هذه القوافل الدينية هى مقدمة الجيوش التى زحفت فيما بعد (إلى بيت المقدس) تحت راية الصليب . فقبل الحملة الصليبية الأولى بنحو ثلاثين عاما قام رئيس أساقفة ميتز Mains ، ومعه أساقفة أوتريخت Utrecht وبامبرج Bamberg وراتسبون Ratisbon ، بهذه الرحلة المجهدة من الراين إلى الأردن ، على رأس سبعة آلاف شخص من أتباعهم[1] .

ومن ١٠٧٦ إلى ١٠٩٦ كانت القدس تحت حكم الزعيم التركى (التركمانى) سكمان أورتوك Suqman 6. Urtuq ، الذى كان تابعا ـ من الناحية الإسمية ـ للأمير السلجوقى توتوش Tutush . ووفقا لما كتبه جيبون فإن هذا الحكم جعل الحياة صعبة ـ مرة أخرى ـ للحجاج القادمين من الغرب . « فالحجاج الذين نجحوا فى الوصول إلى بوابات القدس بعد اجتيازهم مخاطر لا تعد ولاتحصى ، وقعوا ضحايا لنهب اللصوص واضطهاد الحكام ، وغالبا ما رزحوا تحت وطأة المجاعة والمرض قبل أن تتاح لهم تحية القبر المقدس » . ويعتقد

جيبون أن مثل ضروب المعاناة تلك التى وقعت فى ظل الحكم التركى كان لها ضلع كبير فى إثارة الروح الصليبية فى أوربا ، لاسيما من خلال عظات بطرس الناسك Peter the Hermit

فبعد الفتح التركى للقدس بنحو عشرين عاما زار القبر المقدس ناسك من أمين Amiens فى مقاطعة بيكاردى بفرنسا ، يدعى بطرس.. (وإذ ذاك أخبره بطريرك القدس بأنه لايمكن توقع أى عون من الامبراطور البيزنطى) ، وأعلن : « سأستنهض الأمم الشجاعة فى أوربا لنصرة قضيتكم » ، وقد امتثلت أوربا بالفعل لدعوة الناسك..

لقد عاد الناسك من الحج إلى بيت المقدس مفعما بالتعصب ، ومع تفوقه فى إلهاب الجنون الشعبى فى ذلك العصر استقبله البابا ايربان الثانى كنبى ، وامتدح مخططه المجيد ، ووعد بمساندته فى المجلس الكنسى العام ، وشجعه على إعلان الدعوة إلى تحرير الأرض المقدسة . وبالقوة الجديدة التى اكتسبها من استحسان البابا لدعوته اجتاحت حملته التبشيرية الحماسية مقاطعات إيطاليا وفرنسا ، بسرعة ونجاح .

لقد كان بطرس الناسك معتدلا ومقلا فى طعامه ، لكن صلواته كانت طويلة ومتقدة بالحماسة .. ولم يكف عن إلقاء عظاته إلى حشود غفيرة فى الكنائس ، والشوارع ، والطرق العامة ، حتى دخل ـ بنفس الثقة ـ إلى القصر والكوخ ، وتأثر الناس تأثرا عنيفا بدعوته إلى التوبة وحمل السلاح . وعندما كان يصور لهم معاناة أهل فلسطين وحجاجها كانت القلوب تنفطر وتعتصرها الشفقة . وتفجرت الصدور بالنقمة عندما طالب محاربى عصره بالدفاع عن إخوتهم وإنقاذ المخلص المسيح .

أما جهله بالفن واللغة فقد عوضه بالتنهيدات والدموع والهتافات القوية المفاجئة .

لكن المؤرخين المحدثين يميلون إلى الاعتقاد بأن جيبون قد بالغ فى مدى

وخطورة المعاملة الخشنة التى لقيها الحجاج على يد الأتراك ، وربما أيضا فى تأثير بطرس الناسك . ومع ذلك فانه من المؤكد أنه كان هناك حماس واسع النطاق للحج ، ورغبة قوية فى رؤية ظروف أفضل للحجاج فى القدس. وجاء البابا ايربان الثانى ـ فى نهاية المطاف ـ ليوجه هذه الحماسة الدينية المتدفقة ، فقدم ـ إلى المجمع الكنسى فى كليرمونت بفرنسا عام ١٠٩٥ ـ خطة للقيام بحملة صليبية ، ودعا النبلاء والعامة إلى التطوع فيها بـ « اتخاذ الصليب » ، أى بوضع صليب أحمر على ثيابهم . ومن عملية اتخاذ الصليب هذه تم اشتقاق كلمة « حملة صليبية » .

وثمة تعبير آخر عما كان يعنيه الاستخدام الشائع لكلمة « حملة صليبية » للمسيحيين الغربيين ، يمكن العثور عليه فى حديث الاستهلال للفصل الأول من مسرحية الملك هنرى الرابع لوليم شكسبير.

فالملك هنرى ينظر إلى قراره بالانضمام إلى الحملة الصليبية كقرار يساعد على إنهاء القتال بين الانجليز ، ويستطرد :

ولذلك يا أصدقائى ،
وبقدر ما يتعلق الأمر بقبر المسيح ـ
الذى يقف جنده الآن تحت الصليب المقدس .
نلتزم ونتعهد بالقتال ـ
ونعقد العزم على أن نقوم فى التو واللحظة بتجنيد قوة الانجليز ،
الذين صبت أسلحتهم فى أرحام أمهاتهم
لمطاردة هؤلاء الوثنيين فى تلك الساحات المقدسة ،
فوق هذه الأرض التى وطأتها الأقدام المباركة
تلك الأقدام التى صلبت وثبتت بالمسامير منذ أربعمائة عام
وحيث توجد أفضليتنا على الصليب المر .

أما العامل الثانى الذى أدى إلى شيوع التصور الممتدح للحملات الصليبية ،

والذى وجد فى الغرب فى أوائل هذا القرن ، فقد تمثل فى إعلاء المثل الأعلى الرومانسى للفارس ولأخلاق الفرسان الذين يجوبون الأخطار.

ومع أن نموذج هذا الفارس الجوال كان ـ أثناء مرحلة أنماط الفروسية ـ موضع استهزاء سيرفانتيس cervantes فى روايته الشهيرة دون كيشوت ، فإنه كان نموذجا شامخا فى أوج ازدهار الفروسية . حيث كان الفارس ـ الرحالة رجلا يخرج بحثا عن المغامرة ، لكن هذه المغامرات كانت كلها دفاعا عن الفقراء والضعفاء ولإنقاذ أولئك الذين يعانون من الظلم والاضطهاد .

وخلال القرن الحادى عشر تعززت مكانة الفارس بصورة كبيرة ، وأصبح شخصا تحوطه حالات التبجيل . وكان الفارس ، فى أوربا الغربية فى ذلك الوقت ، هو ذلك الشخص الذى يخرج للقتال مرتديا درعا معدنيا يغطيه من قمة الرأس إلى القدم ، وممتطيا جوادا مدرعا هو الآخر . وقد ألفت هذه الوحدة بين الفارس المدرع والجواد المدرع آلة قتالية هائلة ، وكان باستطاعة عدد صغير نسبيا من الفرسان أن يلحقوا الهزيمة بجيش كبير من الفرسان . وبالطبع ، كان الدرع مكلفا ، ولذلك كان باستطاعة الأشخاص الميسورى الحال فقط أن يصبحوا فرسانا .

وفى فترة سابقة على ذلك ، خلال عهد شارلمان Charlmagne (٧٦٨ ـ ٨١٤) وفى العصر اللاحق له ، كان هناك أباطرة وملوك أقوياء . ولذلك عاش عامة الناس فى أمان نسبى معظم الأوقات . إلا أن الحكم المركزى القوى اختفى فى القرن العاشر وانتقل واجب الدفاع من عامة الناس إلى كاهل الفرسان المحليين. وكان لهذه الوظيفة الاجتماعية الجديدة تأثير كبير على تنامى تبجيل الفروسية . وساهمت الكنيسة المسيحية فى هذه العملية بإعلانها للتعاليم القائلة بأن الفروسية مهمة أو مهنة مرموقة . وبهذا أسبغت الكنيسة الصبغة الإنسانية أو الحضارية على رجال الحرب الخشنين فى أوربا الغربية ، الذين كانوا قبل فترة ليست طويلة ـ على حد تعبير أحد الكتاب ـ « لا يفترقون كثيرا عن الأجلاف

المشتغلين بالسلب والنهب[٢] . ومع نهاية القرن الحادى عشر لم تعد العناصر الأفضل من هؤلاء مجرد محاربين مقتدرين ، وإنما أصبحوا أيضا أشخاصا فوارس ودمثى الخلق والإحساس بالانتماء إلى جماعة الصفوة الاجتماعية .

واستمر المثل الأعلى للفارس فى نيل إعجاب لا يقل عن ذلك فى الحقبة القريبة من عام ١٨٠٠ عندما كانت الحركة الرومانسية قوية . وكان هذا الإعجاب مرتبطا بالحملات الصليبية على وجه الخصوص . ولذلك ، ظهر أكثر من كتاب تحت عنوان تاريخ الفروسية والحملات الصليبية . ويمكن ـ بهذا الصدد ـ اقتطاف فقرة من المقدمة التى كتبها الروائى الرومانسى الكبير السير والتر سكوت Sir Walter Scott لروايته التى كتبها عن الحملات الصليبية ، التى أسماها الطلسم Talisman . كتب :

> إن الفترة المرتبطة بالحملات الصليبية بصورة مباشرة أكبر ، والتى اخترتها فى النهاية ، كانت هى تلك الفترة التى تجلت فيها سمة ريتشارد الأول الحربية ، بجموحها وشهامتها وفروسيتها ، وبكل فضائلها وكل أخطائها التى لاتقل منافاة للعقل ، فى مقابل شخصية صلاح الدين التى رأى فيها العاهل المسيحى والانجليزى كل القسوة والعنف (التى من المفترض أن تميز حاكما) شرقيا . ومن الناحية الأخرى أبدى صلاح الدين حكمة وحصافة عميقتين لعاهل أوربى ، فى حين تبارى كل منهما على من يتفوق على الآخر فى السجايا الفروسية للشجاعة والشهامة .

إلى هذا الحد كان التأكيد على الحقيقة القائلة بأن المسيحيين من ذوى التفكير العادى فى أوائل هذا القرن قد نظروا إلى الحملات الصليبية والدعوة إليها من خلال غلالة ضبابية رومانسية ، بوصفها شيئا يستحق الإعجاب .

ومع ذلك ، فإننا نجد قبل ذلك بفترة طويلة مؤرخين غربيين انتقاديين صاغوا أفكارا جد مختلفة عن الحملات الصليبية . وفى الحقيقة فإن السير والترسكوت كان مدركا ـ رغم نزعته الرومانسية ـ أن بطله ، ريتشارد قلب

الأسد ، كان مذنبا فى اقترافه قسوة وعنفا فظيعين . وعلى سبيل المثال ، فإن أى شخص يطلع على المصادر الأصلية سيعرف قطعا أن فتح القدس عام ١٠٩٩ قد أعقبه سلب ونهب ومذابح . وهذا هو ما أوضحه أيضا بالفعل ادوارد جيبون ، الذى كان مفكرا حرا بنحو ما وناقدا متطرفا للطقوس والمراسم المسيحية. ويشتمل وصفه لسقوط القدس على الفقرة التالية :

قربان دموى قدمه أنصاره المتحمسون ذوى الأفكار الخاطئة إلى إله المسيحيين ، وقد تكون المقاومة التى لاقوها قد أثارت حنقهم ، لكن غضبهم العارم المفعم بالحقد لم يميز بين رجل وامرأة أو بين شاب وشيخ ، فأطلقوا العنان لأنفسهم ثلاثة أيام أقاموا فيها مذبحة عمياء ، لدرجة أن تلوث جثث القتلى أدى إلى تفشى الأوبئة . وبعد قطعهم رقاب سبعين ألف مسلم بالسيف، وإحراقهم اليهود المسالمين فى معبدهم.. ظلوا يحتجزون عددا غفيرا من الأسرى الذين كان من شأن تقاعسهم أو اهتماماتهم الخاصة أن يغريهم بالصفح عنهم .

وخلال القرن التاسع عشر بدأ مؤرخون غربيون فى النظر أيضا إلى العوامل الاقتصادية والسياسية الكامنة خلف الحملات الصليبية . وسرعان ما أدركوا أن القرن الحادى عشر كان عصرا استطاع فيه كبار حكام أوربا الغربية تحقيق درجة أكبر من الأمن لعامة الناس فى المناطق الواقعة تحت سيطرتهم . وقد أدى هذا إلى رخاء متزايد وإلى نمو عدد السكان . وقد حدا هذا بالبعض إلى الاتجاه إلى استيطان الأراضى غير المزروعة فى شرق بروسيا ودول البلطيق ، لكن لم يكن هناك المزيد من الأرض المتاحة لإقامة مثل هذه المستوطنات . ووجد الأبناء الأصغر لأسر النبلاء ـ على وجه الخصوص ـ صعوبة فى إيجاد مكان لأنفسهم فى البنية الاجتماعية ، مما أدى إلى نشوب القتال بين الجماعات الأقل نبالة. من هنا.. نظر البابوات وكبار رجال الدولة الآخرين إلى الحملات الصليبية باعتبارها وسيلة لتوجيه الجذوة القتالية إلى الخارج نحو أعداء مشتركين ، وبهذا يقللون النزاع الضروس فى الداخل . ومع ذلك فان دوافع معظم الفرسان الذين شاركوا فى

الحملات الصليبية كانت دوافع دينية فى المقام الأول ، وإن كان هنالك بلاشك عدد قليل من أولئك الذين انصب اهتمامهم الأساسى على إيجاد منطقة جديدة يمكن أن يصبحوا فيها حكاما مستقلين بدرجة تزيد أو تقل.

وتبنى عدد قليل فقط من المؤرخين الرأى القائل بأن الحملات الصليبية كانت تعزى أساسا إلى المصالح الاقتصادية للمدن التجارية الإيطالية ، أمالفى وفينيسيا وبيزا وجنوة ، أما الإجماع الآن فهو على الرأى التاريخى القائل بأن هذه المصالح التجارية لم تلعب دورا فى بدء الحملات الصليبية لأنه لم تكن قد نشأت صعوبات كبيرة فى التجارة مع مصر وسوريا . لكن بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى فى إنشاء دويلات صغيرة فى سوريا أصبحت المدن الإيطالية مدركة للفرص الجديدة التى خلقها ذلك للتجارة ، ومن ثم لعبت هذه المدن دورا هاما فى مساعدة الصليبيين من أجل الحفاظ على موطئ أقدامهم .

كذلك أصبح واضحا للمؤرخين الغربيين أن الحملة الصليبية الأولى كانت مشروعا متهورا إلى حد ما . فمعظم قادة هذه الحملة الصليبية ربما لم تكن لديهم أدنى فكرة عن الظروف التى سيتعين عليهم القتال فيها ، ولو أن عددا قليلا منهم هم أنفسهم قد شارك فى الحج إلى بيت المقدس . فنجاح هذه الحملة يعزى – إلى حد بعيد – إلى حقيقة أنه فى نهاية القرن الحادى عشر لم يكن هناك حاكم مسلم قوى واحد فى المناطق التى هاجمها الصليبيون ، بل كان هناك عدد من الحكام المحليين الصغار الذين أنفقوا الشطر الأكبر من وقتهم وطاقاتهم فى قتال جيرانهم . وقد جعل هذا من المستحيل عليهم أن يتحدوا ضد الغزاة . وهناك – فى الواقع – أمثلة عديدة لمسلمين انضموا إلى المسيحيين فى قتال مسلمين آخرين . وبمجرد وضع حد لهذا القتال الدائر بين المسلمين ، وظهور عاهل واحد قوى ، عجز الصليبيون عن الحفاظ على دولهم . وقد بدأ (عماد الدين) زنكى مسيرة التوحيد الفعال للمنطقة الممتدة من الموصل إلى مصر ، وواصلها نور الدين (محمود) ، وأكملها صلاح الدين . وبمجرد تحقيق هذا التوحيد أصبح مؤكدا أن الصليبيين سيتم طردهم .

من ناحية أخرى ، تناول المؤرخون شتى الأسباب التى حدت بالبابوات إلى مباركة وتشجيع الحملات الصليبية .

وبطبيعة الحال كان البابوات مهتمين بضمان حرية وصول الحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة فى القدس وغيرها من الأرض المقدسة . إلا أن هذا لم يكن محط اهتمامهم الوحيد . فهم لم يكونوا راضين عن امتداد القتال الذى استمر فى النشوب فى أوربا الغربية بين جماعات مختلفة من المسيحيين كما أشرنا من قبل ، ولذلك فإنهم عولوا على إضعاف هذا القتال بتوحيد الطاقات القتالية ضد عدو غير مسيحى .

والشىء الآخر الذى كان موضع اهتمام البابوات هو العلاقة مع النصف الشرقى للكنيسة ، حيث إن الروم الكاثوليك ، أو الكنيسة اللاتينية لأوربا الغربية ظلت معزولة تماما عن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية لأوربا الشرقية وشرق البحر الأبيض المتوسط طوال القرن الحادى عشر أو الثانى عشر . وقد درجت العادة على إرجاع تاريخ هذا الانشقاق (كما يسمى فى اللغة اللاهوتية) إلى عام ١٠٥٤ ، لكن الباحثين يميلون الآن إلى الاعتقاد بأنه رغم أن عام ١٠٥٤ يميز مرحلة هامة فى تاريخ فصل الفرعين الشرقى والغربى للكنيسة ، فإن الفسخ النهائى لم يحدث إلا فى القرن التالى . فالفرع الشرقى للكنيسة كان متطابقا ، على نحو وثيق ، مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهذه الإمبراطورية لقيت هزيمة خطيرة من المسلمين عام ١٠٧١ فى معركة مانزيكرت Manzikert (معركة ملازكرد) ، وتم بالتالى إرغامها على الانسحاب من معظم أنحاء آسيا الصغرى . وقبل فترة وجيزة من انعقاد مجلس كليرمونت الكنسى عام ١٠٩٥ التمس الإمبراطور البيزنطى فى تلك الأيام العون من البابا ضد المسلمين . وربما كان كل ما يأمل فيه الإمبراطور هو تجنيد مرتزقة لمساعدته ، ولم يكن لديه ــ بالتأكيد ــ أى ميل لاستقدام تلك الحشود صلبة المراس من الجنود الصليبيين الذين حطوا بالفعل على عاصمته القسطنطينية . ولاشك أن البابا ايربان الثانى كان متلهفا لمساعدة البيزنطيين على أمل أنه إذا خفف حدة التوتر بين المسيحيين الشرقيين

والغربيين ، فإن القطيعة الكاملة فى العلاقات التى بدت وشيكة الوقوع ، يمكن تجنبها . إلا أنه رأى أيضا أن دعوة الرجال إلى الانضمام إلى حملة عسكرية لمساعدة البيزنطيين ستكون أكثر إغراء إذا ما كانت مصحوبة بفكرة الحج إلى القدس وتحرير الأماكن المقدسة من السيطرة غير المسيحية . وفى واقع الأمر فإن الحملات الأولى إذا كانت قد مرت فى طريقها بالقسطنطينية ، فإن القدس كانت غايتها .

على صعيد آخر نجد على مدار بضعة قرون أنه كان هناك مسيحيون أدانوا كل أشكال الحروب ، لاسيما جمعية الأصدقاء Society of Friends (المعروفة بصورة شائعة باسم الكويكرز Quakers) . لكن القرن الحالى شهد تزايد كبيرا فى نزعة اللاعنف المسيحية ، وقد أثر هذا على مواقف الناس إزاء الحملات الصليبية . وفكرة الحرب الصليبية برمتها أصبحت موضع اشمئزاز للنصير الحقيقى للسلام ونبذ العنف . بل إن أشخاصا يتبنون أفكارا أقل تطرفا من هؤلاء أصبحوا من منتقدى فكرة الحملة الصليبية أو الحرب المقدسة . وقد دعا بعض المؤرخين إلى الالتفات إلى التغير فى موقف الكنيسة إزاء الحرب التى وقعت فى نصف القرن السابق على الحملة الصليبية الأولى . ففى تلك الأوقات الأسبق كانت الكنيسة تبشر بالتعاليم القائلة إن قتل الناس وإصابتهم فى حرب عمل أثيم ، وكانت تطالب الرجال بضرورة الكفارة (*) عن مثل هذه الخطايا . وبعد معركة هاستنجر Hastings عام ١٠٦٦ ، عندما قام الأمير النورماندى المعروف الآن باسم ويليام الفاتح بتنصيب نفسه ملكا لانجلترا ، طولب رجاله الذين قتلوا أو أصابوا أعداءهم بالكفارة ، وكان هذا رغم حقيقة أن ويليام ورجاله كانوا يقاتلون بموافقة بابوية من أجل ما كان يعتبر قضية عادلة . إلا أن مدة ولاية البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ ـ ٨٥) شهدت تغيرا فى هذا الموقف . وقال البابا الجديد إنه إذا كان الهدف من الحرب إقامة « النظام

(*) الكفارة ، أو العمل التكفيرى ، عقوبة ذاتية ينزلها الآثم بنفسه تعبيرا عن توبته . (المترجم) .

الصحيح » فى المجتمع البشرى ، فلا يجب النظر إليها على أنها عمل أثيم ، وإنما تصبح ـ على العكس ـ عملا جديرا بالتقدير.

وأكثر من هذا شهدت مدة ولاية البابا جريجورى الاعتراف برجل أو اثنين كقديسين. أما قداستهم التى أسبغت عليهم فكانت راجعة إلى نشاطهم الحربى. وبسبب هذا التغير الذى طرأ على موقف الكنيسة أصبح أمرا جديرا بالمديح والتمجيد بالنسبة للمسيحيين أن يشاركوا فى حرب تستهدف جعل الأماكن المقدسة آمنة للحجاج. وكنتيجة طبيعية لهذا الموقف المتغير إزاء الحرب تم النص صراحة على أن الإسهام فى حملة صليبية يعتبر شكلا من أشكال التكفير الذى يؤدى إلى الغفران لكل خطايا الإنسان.

ولإكمال هذا العرض لآراء المؤرخين الغربيين المحدثين ينبغى أن نقول شيئا عن معالجة ارنولد توينبى Arnold Toynbee للحملات الصليبية فى كتابه « دراسة التاريخ » المؤلف من اثنى عشر مجلدا. فى هذا الكتاب يقارن توينبى بين الحضارات، إحداها بالأخرى، من أجل اكتشاف الأسباب العامة لنموها وانحطاطها واندثارها. وعلى هذا النحو فإنه ينظر إلى الأحداث من منظور أوسع من منظور المؤرخ الذى يهتم بالحملات الصليبية فقط، أو أوربا الغربية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فقط. ونتيجة لهذا المنظور يرى توينبى أن الحملات الصليبية بدأت عام ١٠١٨، قامت زمرة من الفرسان الفرنجة، وأتباعهم، بعبور جبال بيرينز Pyrnees، من فرنسا إلى اسبانيا، لمساعدة المسيحيين هناك ضد المسلمين. وبين هذا التاريخ وبين شن الحملة الصليبية الأولى ـ بالمعنى المألوف ـ كان هناك عدد من الحملات الأخرى من فرنسا إلى أسبانيا. وهذه الحملات حظت بتشجيع الكنيسة وكان ينظر إليها كجزء من الحرب ضد المسلمين بالنيابة عن العالم المسيحى. ونتيجة لهذه الحملات كان هناك مزيد من الاستعداد، لاسيما فى فرنسا، للانضمام إلى الحملة الصليبية الأولى.

وبعد فشل الحملات الصليبية ككل، يرى فيها توينبى نفس العوامل التى

أدت إلى توسع أوربا الغربية ، إلى البلطيق أولا ، ثم بعد ذلك إلى العالم الجديد عبر المحيط الأطلنطى . ومما تجدر ملاحظته ـ بهذا الصدد ـ أن بعض المستوطنين الأوائل لأمريكا كانوا يعتبرون أنفسهم حجاجا . فنجد أن الآباء الحجاج الذين أبحروا بسفينة « زهرة مايو » عام ١٦٢٠ إلى الولايات المتحدة اعتبروا أنفسهم مقتدين بنموذج موسى عندما قاد الاسرائيليين من مصر إلى الأرض الموعودة . فهم قد تركوا بلدا لم تكن لهم فيه حرية ممارسة ديانتهم على النحو الذى أرادوه ، وتطلعوا إلى بلد جديد يكون حرا من الناحية الدينية . هذا الحافز الدينى لدى بعض الآباء المؤسسين للولايات المتحدة قاد الأمريكيين ـ بلاشك ـ فى القرن التاسع عشر للحصول على مناطق نفوذ خاصة بهم فى الأراضى التى كان يوجد بها الصليبيون ، ولإنشاء معاهد تعليمية فى بيروت وفى مدن أخرى فى الامبراطورية العثمانية .

ويرى توينبى أيضا أن الاهتمام المستمر ، الذى أولاه البريطانيون للأراضى المقدسة ، هو الذى أدى إلى أحداث مختلفة ، مثل التورط فى حرب القرم (١٨٥٤ ـ ٥٦) . وقبول الانتداب على فلسطين بعد ذلك فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . ونفس هذا الاهتمام بالأرض المقدسة هو الذى قاد مجموعة « مسيحيى الكتاب المقدس » الفيكتوريين إلى إنشاء « الصندوق المالى لاستكشاف فلسطين » Palestine Exploration Fund عام ١٨٦٤ للقيام باستقصاءات أثرية فى المواقع التى وردت فى الكتاب المقدس . وقبل ذلك فى عام ١٨٤١ تم إنشاء أسقفية فى القدس بالاشتراك بين الانجليكان واللوثريين الألمان .

أما الجانب الأكثر إثارة فى دراسة توينبى ، فهو مناقشته لسياسة البابوات ، التى يعالجها تحت عنوان « نشوة النصر المسكرة » . إن توينبى يمتدح بلا تحفظ ماحققته إصلاحات هيلدربراند بتطهيرها وتقويتها للكنيسة ، وبخلقها مايسميه بالجمهورية المسيحية Republica Christiana فى أوربا الغربية ، تلك « الجمهورية » التى أقر فيها الحكام العلمانيون بالسلطة الروحية الملغاة للكنيسة .

(كان هيلدربراند ـ الذى أصبح عام ١٠٧٣ البابا جريجورى السابع ـ مهيمنا بصورة فعالة على السياسة البابوية فى السنوات العشرين السابقة تقريبا) . ومع ذلك يعتقد توينبى أن هيلدر براند (أو جريجورى) وأولئك الذين اتبعوا سياساته قد أخذوا بنشوة نجاحهم وحاولوا كسب المزيد من « الغايات الروحية بطرق عسكرية مختصرة » . وإذا كان هذا يشير فى المقام الأول إلى أحداث معينة وقعت فى أوربا الغربية ، إلا أن توينبى ينظر أيضا ـ من نفس وجهة النظر هذه ـ إلى الحملات الصليبية باعتبارها « ترجمة خاطئة للحنين الروحى للماضى إلى احتلال عسكرى »[٣] .

ويذهب توينبى ـ ومعظم المؤرخين الغربيين المعاصرين الآخرين فى الحقيقة ـ إلى التسليم بأن الحملات الصليبية شكلا من أشكال الاستعمار . فمن المؤكد أن بعض الصليبيين كانوا يتطلعون إلى أراض يتولون فيها زمام الأمور كحكام محليين فى كنف أحد الملوك ذوى الحول والطول ، وهذا نوع من الاستعمار . إلا أنه لم تكن هناك استعمارية بمعنى توطين أعداد كبيرة من فيض السكان فى مناطق جديدة ، على النحو الذى حدث عندما ذهب الأوربيون الغربيون إلى أمريكا واستراليا وأجزاء من أفريقيا . « فالمؤسسة العسكرية الأولى لمملكة القدس التى أقيمت بعد عام ١١٠٠ لم تكن تضم ـ فيما يبدو ـ سوى ٣٠٠ فارس و ١٢٠٠ جندى مشاة »[٤] .

وعلى أى حال ، فإن توينبى إذا كان يسلم بأن الحملات الصليبية كانت تنطوى على درجة من الاستعمارية ، فإنه يؤكد أيضا أن الدافع الدينى كان هو الدافع الأعلى فى أذهان معظم المشاركين فيها :

فالصليبيون كانوا يحاولون الظفر بالاستيلاء على فلسطين ، التى كانوا ينظرون إليها كمكافأة تستحق أن يناضلوا فى سبيلها ، ليس من أجل قيمتها الاستراتيجية والاقتصادية البادية للعيان ، بقدر ما كان من أجل تلك التداعيات التاريخية المرتبطة بمنشأ وماضى المسيحية التى طالما جعلت من

بيت لحم ، والناصرة ، والقدس أهدافا للحجاج المسيحيين المسالمين(٥)

وربما كان أفضل تعبير عن الموقف العام للمؤرخين الغربيين المعاصرين ، هو كلمات السير ستيفن رونسيمان Sir Steven Runciman التى جاءت فى نهاية كتابه ذو المجلدات الثلاثة عن تاريخ الحملات الصليبية :

> لقد كانت انتصارات الصليبية انتصارات للإيمان . لكن الإيمان دون حكمة أمر خطير . وبموجب قوانين التاريخ الصارمة التى لاترحم فإن العالم بأسره يدفع ثمن جرائم وحماقات كل واحد من مواطنيه .
>
> وفى السلسلة الطويلة للتفاعل والاختلاط بين الشرق والغرب الذى نمت حضارتنا من خلاله ، كانت الحملات الصليبية حلقة مأساوية وهدامة . وعندما يعيد المؤرخ تدقيق النظر عبر القرون فى قصة هذه الحملات الصليبية التى تحوطها هالات النبل ، لابد أنه سيجد أن إعجابه مسربل بالأسف إذ يشاهد أن هذه القصة محملة بقصور الطبيعة الإنسانية . فقد كان فيها كثير من الشجاعة وقليل من الشرف ، كثير من التقوى وقليل من التفهم والمثل العليا لطختها القسوة والجشع ، والتفانى والجلد لوثهما الإحساس الذاتى الأعمى وضيق الأفق بالسمو الأخلاقى عن الآخرين ، والحرب المقدسة ذاتها لم تكن شيئا أكثر من ممارسة طويلة لعدم التسامح ، باسم الرب ، والتى هى الخطيئة تجاه الروح القدس(٦) .

وعندما ننتقل من هذه التصورات الغربية للحملات الصليبية إلى النظر فى الكيفية التى تبدت بها نفس الحملات للمسلمين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، نجد اختلافا كبيرا . ففى حين كانت الحملات الصليبية ـ بالنسبة للعالم المسيحى ـ ملازمة لارتفاع هائل فى الحماسة الدينية ، فإنها كانت ـ بالنسبة للمسلمين عموما ـ حرب حدود صغيرة . وحتى فى وقت استرداد صلاح الدين للقدس عام ١٠٨٧ ، لم تكن أغلبية المسلمين حتى قد سمعت ـ على الأرجح ـ عن الحملات الصليبية . وقد تم إبلاغ الخليفة فى بغداد عن الغزو الصليبى ،

وطولب بتقديم العون ، لكنه لم يفعل شيئا ، وفى الحقيقة فإنه لم تكن لديه فى هذه الفترة سلطة سياسية يعتد بها . أما القوة الرئيسية فى العالم الإسلامى فكانت للسلاجقة ، الذين كانت مراكزهم الرئيسية قائمة فى إيران على مسافة مائة ميل من بغداد ، والذين كان حكمهم يمتد إلى أفغانستان وآسيا الوسطى . وإذا كانوا قد عرفوا بأمر الحملات الصليبية ، فإنهم ربما نظروا إليها كمجرد شكل مختلف من أشكال النزاعات التافهة التى ظلت تدور فى هذه المنطقة على مدار نصف قرن .

وبالطبع ، فإن الأمر كان مختلفا تماما بالنسبة لأولئك الحكام المحليين الذين تعين عليهم تحمل وطأة التقدم الصليبى . إلا أنهم ـ فى البداية ـ نظروا إلى الصليبيين ببساطة كقوة غازية بيزنطية أخرى ، وهو أمر كانوا معتادين عليه . وفى الواقع لم يمض وقت طويل حتى أصبحوا مدركين أن الصليبيين ليسوا بيزنطيين وإنما فرنجة ، لكنهم استمروا فى النظر إليهم كعصابات صغيرة من الغزاة ، ولم تتوفر لديهم أى فكرة عن الموجة العاتية من الشعور الدينى المؤازر لهم فى أوطانهم ، أو عن الخطط الطويلة الأمد التى كان البابوات يفكرون فيها . وبعد إقامة الإمارات الصليبية فى القدس وطرابلس وانطاكية والرها ، اتخذ الفرنجة ، الذين عاشوا فيها فترة من الزمان ، الأشكال المحلية للزى وغيره من العادات . وعلى هذا النحو بدا حكام هذه الإمارات مشابهين تماما للحكام المحليين الآخرين باستثناء أنه تصادف أنهم مسيحيون . ومع ذلك فإن هذه الحقيقة الأخيرة (أى كونهم مسيحيين) لم تمنع بعض الحكام المسلمين من إقامة تحالفات مؤقتة مع مسيحيين ضد خصومهم المحليين المسلمين . وكان هذا الانقسام فى الصف الإسلامى هو الذى مكن الصليبيين من تحقيق النجاح الذى أحرزوه .

وكما أشرنا من قبل ، فإن تغيرا حدث بظهور حاكم مسلم أقوى بين الحكام المحليين فى سوريا والجزيرة . كان هذا الحاكم هو (عماد الدين) زنكى الذى استطاع ـ بعد أن عينه السلطان السلجوقى عام ١١٢٧ واليا على الموصل ـ أن يعزز قوته بصورة فعالة حتى تمكن من طرد الصليبيين من الرها عام ١١٤٤ .

ورغم أن (عماد الدين) زنكى كان من الناحية الإسمية تابعا للسلاجقة ، فإن نفوذهم عليه لم يكن يعتد به . وبعد وفاته عام ١١٤٦ انتقلت الولاية على اقاليمه السورية إلى ابنه نور الدين محمود الذى عزز وضعه فى مواجهة كل من الفرنجة والفاطميين . وفى عام ١١٦٩ تمكن الجيش الذى أرسله نور الدين إلى مصر من منع الملك الافرنجى لإمارة القدس من التدخل هناك ، أما صلاح الدين ـ الذى أصبح قائدا للجيش بعد وفاة عمه فى نفس العام ـ فسرعان ماوطد مركزه فى مصر كأبرز قائد فيها وقضى على الحكم الفاطمى . وعندما توفى نور الدين عام ١١٧٤ وجد صلاح الدين مناطق كثيرة من امبراطوريته تحت سلطته ، ونصبه الخليفة سلطانا بعد انتصاره فى معركة حربية على أمير حلب الذى ينتمى إلى آل زنكى ، والذى كان يحظى بالمساندة من كل من قوة من قوات الفرنجة ، والمسلمين التابعين للمذهب الاسماعيلى المعروفين باسم الحشاشين . ومنذ هذه اللحظة وحتى وفاته عام ١١٩٣ وضع صلاح الدين نصب عينيه هدفا مزدوجا :

أولا : بسط وتعزيز حكمه على كل المنطقة الممتدة من الموصل إلى القاهرة .

ثانيا : طرد الصليبيين .

وقد أظهر صلاح الدين رحمة وفروسية كبيرتين فى تعامله مع الفرنجة . وبفضل هذه السجايا مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر وتجنبت ارتكاب الأعمال الوحشية الشائعة فى هذا الوقت . ويبدو أنه تصور إمكانية احتفاظ بعض الحكام المسيحيين بمواقعهم شريطة أن يقبلوا به سلطانا عليهم . إلا أن تنفيذ مثل هذه الخطة قد حالت دونه الأعمال الحمقاء والاستفزازية التى قام بها الصليبى القادم مؤخرا ، رينالد أوف شايتلون . فقد استولى هذا الرجل على ميناء «أيلة» (الواقع على خليج العقبة) عام ١١٨٢ وأرسل أسطولا بحريا للإغارة على الموانى التى تخدم مكة والمدينة . وقام هذا الأسطول بالاستيلاء على سفن تجارية وإغراق سفينة حجاج . وذاع أمر هذه العمليات بصورة كبيرة ، وتسببت فى سريان موجة من السخط فى المغرب الإسلامى أكبر من تلك التى رافقت إقامة إمارات الفرنجة . وأعلن صلاح الدين الجهاد ودعا كل المسلمين لمساندته ضد أولئك

الذين اشتركوا فى مثل هذه الأعمال . ويمكن القول بأن هذه الأحداث سجلت الإدراك الأكمل من جانب المسلمين للخطر الذى تمثله الحركة الصليبية لهم ككل ، حتى رغم أن صلاح الدين نفسه ظل محافظا على علاقات ودية ـ لفترة ـ مع الكونت ريموند أمير طرابلس . وربما مع آخرين .

وتوجت سياسات صلاح الدين بالنجاح فى يوليو ١١٨٧ عندما دمر جيش الصليبيين فى موقعة حطين . وكنتيجة لهذا الانتصار العظيم سقطت معظم فلسطين فى يده ، وبعد ثلاثة شهور دخل القدس منتصرا . ورغم أن هذه لم تكن نهاية الحملات الصليبية ، فإن الصليبيين اللاحقين لم يحققوا شيئا يعتد به ، ولم يستطيعوا على الإطلاق تهديد سيطرة المسلمين على الأراضى المقدسة بصورة جدية .

وربما كان الحكام المسلمون فى كل مكان غربى بغداد قد شاطروا صلاح الدين تصوره للحركة الصليبية باعتبارها نشاطا مدبرا موجها ضد المسلمين عامة ، لكن الاهتمام بهذه الحركة الصليبية ظل فى الحد الأدنى فى بغداد والمناطق الإسلامية الواقعة شرقها .

وقد قدم المؤرخ العظيم ابن الأثير (١١٦٠ ـ ١٢٣٣) ـ الذى عاش فى الموصل وانضم لفترة لجيش صلاح الدين ـ تقيما عاما للحملات الصليبية الأولى . ويسجل فى كتابه « الكامل » ـ الذى قدم فيه رؤيته لتاريخ العالم قبل عام ٤٩١هـ ـ فتح الفرنجة لإنطاكية ، لكنه يشير إلى أن هجمات الفرنجة على الأراضى الإسلامية قد بدأت عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥) بفتح طليطلة Toledo بأسبانيا ، الذى أعقبه فتح صقلية عام ٣٨٤هـ . ثم يقول إن الحاكم المسيحى لصقلية هو الذى حول مسار حملة افرنجية مزمعة ضد تونس أثناء مرورها بصقلية ، لأنها لم تكن ملائمة لصالحه ، وأقنعها بالتوجه بدلا من ذلك إلى سوريا والقدس . ويشير أيضا إلى احتمال ـ رغم أنه يتشكك فيه ـ مفاده أن الفاطميين فى مصر شجعوا الفرنجة على الذهاب إلى سوريا ، وذلك خوفا من القوة المتزايدة للسلاجقة . وعلى هذا يرى ابن الأثير أن الحركة الصليبية قد بدأت ـ بمعنى ما ـ

فى أسبانيا وصقلية . ويذهب حتى أبعد من ذلك إذ يصفها بأنها كانت جهادا ضد المسلمين . إلا أن الأغلبية العظمى من المسلمين فى بلاد الإسلام الوسطى والشرقية لم تشاركه هذا التصوير .

وخلال المائة عام السابقة تقريبا ظهر تصور جديد للحملات الصليبية فى التفكير الإسلامى . فعندما انتشر التعليم الغربى بين المسلمين وجاء كثير من المسلمين إلى أوربا للدراسة . أدركوا أنه كان هناك تشابه ما بين إقامة الإمارات الصليبية وبين الاستعمار الأوربى للكثير من بلدان أفريقيا وآسيا من القرن السادس عشر فصاعدا ـ وهو أمر خبروه هم أنفسهم ـ وبدأوا فى النظر إلى الحملات الصليبية بوصفها البداية للاستعمار . ومؤخرا جدا وصف العقيد (معمر) القذافى غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ بأنه كان بمثابة الحملة الصليبية التاسعة ، ووصف إقامة دولة إسرائيل بمساندة أمريكية بأنها الحملة الصليبية العاشرة . وإذا كان هناك تسليم فعلا بوجود أوجه تشابه بين الحركة الصليبية وبين الاستعمارية ، فإن إقامة علاقة تطابق بينهما على النحو المشار إليه فى السطور السابقة ليست ملائمة فى مجموعها .

صحيح أن بعض « مسيحيى الكتاب المقدس » الأصوليين قد رحبوا بإقامة اسرائيل ، لأنهم نظروا إليها كتحقيق لنبوءة تورانية ، وأنها على هذا النحو دليل على أن الكتاب المقدس صادق ، ودحض لأولئك الذين يحاولون تكذيبه . إلا أنه من الناحية الأخرى ارتفعت أصوات مسيحية عديدة ، وإن يكن عبثا ، ضد اقتراح وضع الأماكن المقدسة المسيحية فى أيدى يهودية ـ الأمر الذى يتناقض تماما مع أهداف الصليبيين الأصليين ـ كما أن مسيحيين عديدين يرغبون فى رؤية القدس تحت شكل من أشكال النظام الدولى .

وفى حين أن الكلمة الانجليزية Crusades (الصليبية) لا تزال لها إيحاءات مثالية مرتبطة بها ، فإن معظم المسيحيين الذين يعرفون شيئا من التاريخ التفصيلى للحملات الصليبية لابد أنهم ينتقدون المشروع برمته ، ومن المؤكد أنهم لايعارضون حلا عادلا لمشكلات الشرق الأوسط ، وللأرض المقدسة على وجه الخصوص [٧] .

المراجع

1. Edward Gibbon, **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire,** ch. 57 towards the end; the following quotation is the begining of ch. 58.
2. H.E.J Cowdrey, "The Genesis of the Crusades", in **The Holy War,** ed.T.P.Murphy, Columbus, Ohio 1974, P.15.
3. **A Study of History,** London 1934-54, ix, 101, 159f.
4. **The Holy War,** p.14.
5. **A Study of History,** ix, 100.
6. **A History of the Crusades,** Harmondsworth 1965, iii.480.
7. Also consulted with. "Cruade and Jihid" by John L.Lamonte in **The Arab Heritage,** ed. Nabih Amin Fars, Princeton 1946, pp:159-98.

صلاح الدين : معركة حطين والاستيلاء على القدس (وجهة نظر)

بقلم البروفيسور : ديڤيد چاكسون
الأستاذ بجامعة سانت أندروز

« لقد سمعت أناسا يقولون إنهم يودون أن يفتدوا أعزاءهم بأرواحهم ، لكن هذه الأقوال كانت بالنسبة لى مجرد أقوال مجازية كلها ، فيما عدا يوم وفاته (أى وفاة صلاح الدين) لأنى أعلم أنه لو أمكن أن تقبل تضحيتنا لكنت أنا وغيرى قد أعطينا حياتنا له »

أود ـ أولا ـ أن أقول إننى شرفت كثيرا بدعوتى هنا لأكون معكم اليوم . وأشعر بأننى حصلت على امتياز كبير لإعطائى الفرصة للحديث إليكم .

لقد مضت الآن بضع سنوات منذ عكفت على دراسة سيرة صلاح الدين ، وهى السيرة التى اشتركت فى تقديمها ـ مع مالكولم ليونز Malcom Lyons (سير توماس آدمز Thomas Adams) الآن أستاذ اللغة العربية بجامعة كيمبردج ـ والتى نشرت عام ١٩٨٢ ، وإن كنا قد أنجزنا الكتاب نفسه بالفعل فى عام ١٩٧٥ . وبعد كل هذه السنوات حصلت ـ بمزيد من الامتنان ـ على فرصة عرض عملنا وإعداد هذا الحديث القصير ، الذى وضعته تحت عنوان : « صلاح الدين وموقعة حطين والاستيلاء على القدس : وجهة نظر » ، وآمل أن تنظروا برفق إلى بعض مواطن الضعف التى قد تتبينونها ، آخذين فى الاعتبار طول المدة التى انقضت منذ أنهيت العمل المعمق فى هذا الموضوع والوقت المحدود المتاح لنا هنا هذا الصباح .

وأود ـ بداية ـ أن أقدم دراسة شخصية موجزة للجدل الحديث العهد ، الذى دار على نحو واسع فى الغرب ، حول قيم صلاح الدين الأساسية وتقييم سيرته ، وهو الجدل الذى تراوح ـ فى رأيى ـ بين أغداق المديح الحماسى المبالغ فيه من ناحية ، والسخرية المفرطة والتى فى غير موضعها من ناحية أخرى .

ووجهة النظر التى أنطلق منها للوصول إلى أطروحتى هى أن سيرة صلاح الدين يجب النظر فى تقييمها على ضوء استيلائه على القدس ، الذى مهد له الطريق إلحاقة الهزيمة بجيش المملكة اللاتينية فى حطين فى ٤ يوليو ١١٨٧ . وفى

رأيى فإن اهتمام صلاح الدين ـ كما تبين ذلك فى الحقيقة مراسلاته مع الخلفاء المتعاقبين ـ كان منصبا على « الجهاد » فى المقام الأول ، باعتباره ـ على وجه الدقة ـ وسيلة لاستعادة القدس .

والاعتراضات الرئيسية على وجهة النظر هذه حول أهداف صلاح الدين ، بل وفى الواقع على فكرة أنه كانت لديه رؤية شاملة على الإطلاق ، نبعت من الفترة التى سبقت حملته على الصليبيين عام ١١٨٧ ، وهى الفترة التى قضاها فى قتال زملائه المسلمين ، ولهذا تبدو غير متسقة مع الفترة اللاحقة عليها . (وقد توصلنا ـ ليونز وأنا ـ إلى تقدير ذكرنا فى السيرة الذاتية التى كتبناها عن صلاح الدين ، مفاده أنه فى الفترة الواقعة بين خريف عام ١١٧٤ وحتى توقيع معاهدته مع الموصل عام ١١٨٦ قضى صلاح الدين مايقرب من ١٣ شهرا فى قتال الفرنجة و٣٣ شهرا فى حملات موجهة ضد زملائه المسلمين) . ومع ذلك ، وفى مواجهة هذه الاعتراضات ، فإنه يجب التأكيد على أن صلاح الدين قد نظر إلى وجود قاعدة موحدة ، وإن تكن متنوعة الأصول ، للمسعى الإسلامى ، بوصفها شرطا ضروريا لتحقيق رؤيته . وقد تكفلت الأحداث بالبرهنة على ضرورة مثل هذا الجهد الموحد .

إن وعى صلاح الدين ، بالتهديد الذى يفرضه الفرنجة فى المقام الأول ، ومن ثم بأخطار انقسام الصف الإسلامى ، قد نما من خبراته المبكرة فى مصر إبان عمله نائبا لعمه شيركوه خلال ثلاث حملات مصرية لم يحظ فيها الخليفة الفاطمى المريض إلا بمساعدة الفرنجة (الذين دعاهم الوزير الفاطمى شاور ـ فى عهد أماريك ـ للتصدى معه لشيركوه وطرد قواته السورية خلال أول الحملات المصرية) ثم تدنى به الأمر بعد ذلك إلى طلب مساعدة آل زنكى لطردهم..

وكنتيجة طبيعية لذلك فإن انشقاق الصف الإسلامى ـ الذى أدى إلى دعوة الفرنجة للتدخل فى أول الأمر ـ نبه صلاح الدين مبكرا إلى العواقب الوخيمة لفرقة كلمة المسلمين .

لكن تعيين صلاح الدين وزيرا للخليفة الفاطمى العاضد (لدين الله) ، عقب وفاة عمه شيركوه ، ثم توليه مقاليد الأمور بعد ذلك عقب وفاة العاضد نفسه ، أسفر عن نشوب توترات خطيرة بينه وبين مولاه نور الدين زنكى فى دمشق . ومع ذلك فإن العلاقات بين الإثنين لم تصل أبدا إلى نقطة اللاعودة. وجاءت وفاة نور الدين عام ١١٧٤ لتزيل الصعوبات الناجمة عن كون صلاح الدين نائبا للأمير الزنكى فى دمشق وفى نفس الوقت حاكما فعليا لمصر ، كما أنها ـ فى الحقيقة ـ أعطت صلاح الدين مبررات وجيهة للدخول فى مجال السياسة السورية حيث إن ابن نور الدين وخليفته ، الصالح إسماعيل ، كان قاصرا لم يبلغ سن الرشد . ومن الناحية الشكلية جاء تدخل صلاح الدين فى سوريا تحت حجة حماية مصالح الصالح . الذى أصبح الآن مولاه الجديد من الناحية الإسمية. وغنى عن البيان أن اندلاع صراع السلطة حول حيازة شخص الصالح فيما بين حلب ودمشق لم يكن من شأنه فقدان يعرض مصالح الصالح للتهلكة ، وإنما أيضا مصالح كل البلاد الإسلامية الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط . أما صلاح الدين ، الذى قدم نفسه باعتباره النائب القوى الذى يمكن للصالح ، وسوريا فى الواقع ، الاعتماد عليه ، فلم يكن بمقدوره إحباط إزاحة الحلبيين للصالح من دمشق إلى الشمال ، ومع ذلك كان باستطاعته الادعاء بأنه لم يتدخل فى سوريا من تلقاء نفسه وإنما جاء بناء على دعوة لدخول سوريا من ابن المقدم قائد الجيش فى دمشق .

وكان تحرك صلاح الدين إلى سوريا وحملاته اللاحقة ضد الحلبيين والموصليين هى النقاط الرئيسية التى استشهد بها أولئك الذين أرادوا الانتقاص من شأن صلاح الدين فى الماضى والحاضر ، والذين حاولوا الإيحاء بأن أهدافه الأساسية انصبت على تمجيد شخصه هو وعشيرته . وبالتأكيد فإن حقيقة وجود الصالح نفسه فى حلب خلال فترة وجود صلاح الدين فى سوريا قبل وفاته (أى وفاة الصالح) ، تجعل من العسير تفسير وضع صلاح الدين تفسيرا كاملا فى حدود كونه حامى الصالح .

غير أنه يجب الاعتراف بأن الرغبة فى إدخال مصر إلى حظيرة الإسلام السنى ـ والتى كانت على الأقل بقدر الخشية من تهديد الفرنجة لمصر ـ هى التى دفعت إلى استمرار تورط الزنكيين هناك عقب الدعوة الأولية التى تلقوها لتأييد شاور فى سعيه لاسترداد منزلته كوزير. وللسبب نفسه ، مع مايلزم من التعديل والتبديل ، كان صلاح الدين بخبرته المصرية وراءه هو الذى أخذ على عاتقه مسئولية احتواء تهديد الفرنجة لبلاد شرق البحر المتوسط .

وكان موت الصالح إسماعيل فى حلب عام ١١٨١ نعمة ميمونة لصلاح الدين من بعض النواحى ، منها ـ كما أشرنا سالفا ـ أن جانبا من مصداقية بقائه فى المشرق ارتكز على ادعائه الأولى بأنه يعمل من أجل مصالح الصالح . وهى وجهة النظر التى لم يوافق عليها الحلبيون مطلقا ، وعندما بلغ الصالح سن الرشد أصبح موقف صلاح الدين إزاء بيت الزنكيين لايمكن الدفاع عنه بقوة . وجاء موت الصالح وفشل الزنكيين بعد ذلك فى استعادة حلب (التى سلمها عماد الدين زنكى لصلاح الدين فى مقابل سنجار ـ وكان ذلك الأمر موضع اشمئزاز الحلبيين) كعامل حاسم فى اقتراب صلاح الدين من إسلام موحد بالقدر الذى يهم الحرب المقدسة .

وبين تسليم حلب ومعاهدة صلاح الدين مع الموصل فى مارس ١١٨٦ فإن اشتراك صلاح الدين فى الحرب المقدسة بدا كما لو كانت تعوزه الحماسة ، ورغم أن ذلك يمكن أن يستخدم بحق كدليل فى يد أولئك الذين يستشهدون بمصلحة صلاح الدين الواضحة فى إخضاع الموصل وما حولها لمجال نفوذه كدليل على الطابع الأنانى لحكمه ، فإنه لم يكن من قبيل الأمر العملى بالنسبة له أن يحول اهتمامه بالكامل إلى الحرب المقدسة بمجموعة من الأمراء تمثل تهديدا محتملا فى الشمال والشرق ، لاسيما البهلوان ، عز الدين مسعود ، وحتى أيضا قليج أرسلان .

وعلى أية حال فإن المعيار الذى يجب تطبيقه على أية سلسلة من الأفعال التى

تم تقديم دوافعها المعلنة ، هو ما إذا كانت الفوائد المستخلصة من هذه الأفعال تفضى إلى تحقيق الهدف المعلن ، أو على الأقل أنه جرت محاولة تحقيق هذا الهدف باستخدام نتائج ما تحقق منها بالفعل .

ويجب أن يحسب لصلاح الدين أنه اجتاز هذا المعيار بنجاح . فنى الوقت الذى جرى فيه إبداء التشكك فى دوافع صلاح الدين من جانب بعض الباحثين المحدثين ومن قبل أعدائه المسلمين المعاصرين له ، وبصفة خاصة خلال تقدم حملاته ضدهم ، فإن هذه الارتيابية ـ التى تبدو فى الظاهر كاتجاه متعلق بنقد العظماء ـ يمكن ، فيما اعتقد ، التقليل من أهميتها ، إن لم يكن تبيان افتقارها إلى أى أساس من الصحة ، نظرا لما يلى :

أولا : كان صلاح الدين حريصا بدقة شديدة على أن يعرض على الخليفة دوافع عمله فى مراسلاته معه (على أن ندخل فى حسابنا المبالغات المرتبطة بطبيعة المراسلات الدبلوماسية) .

ثانيا : إن الدوافع التى قدمها لأفعاله ترجع دائما تقريبا إلى الحرب المقدسة وإلى الحاجة الماسة للوحدة من أجل تطوير متابعتها بنجاح .

ثالثا : فى تعامله مع الزنكيين وأتباعهم ، كان صلاح الدين دائما كريما بصورة رائعة بعد هزيمته لهم فى المعركة (وهذا واضح بعد كل من معركة حماة ومعركة تل السلطان) . وفى أساليب فرض الحصار عليهم (فى حلب والموصل) .

رابعا : (وهو الأكثر أهمية) : بمجرد تحقيق صلاح الدين لهذا التوحيد فإنه شرع فى الحال فى تحقيق الأمر الذى كان يمثل اهتمامه الأساسى ، وهو تدمير الجيش الميدانى للمملكة اللاتينية للقدس والاستيلاء على القدس . وقد تحقق الأمر الأول فى معركة حطين التى تأثرت نتيجتها ـ ضمن ما تأثرت به من عوامل أخرى ـ بقدرة صلاح الدين على نشر قوة إسلامية كبيرة موحدة فى الوقت الصحيح وفى المكان الصحيح (وهو شرط أساسى

للقيادة الناجحة ، والأمر الجدير بالملاحظة أكثر من ذلك أن إنجاز صلاح الدين لايقف فقط عند حد أنه كان القائد العسكرى لقواته بل إنه كان أيضا رجل الدولة الذى حقق الإطار السياسى الذى كان ممكنا داخل نطاقه القيام بانتشار القوات على هذا النحو) . ثم كان الاستيلاء على القدس ، بعد حوالى ثلاثة شهور ونصف من معركة حطين ، نتيجة مباشرة لتدمير الجيش الميدانى للفرنجة فى حطين .

وعند تقييم فن إدارة شئون الدولة والفطنة* السياسية الهائلة لصلاح الدين فإنه من المناسب بصفة خاصة أن نلاحظ المدى الذى يذهب إليه فى إعداد الأرضية السياسية والدبلوماسية قبل القيام بعمل ما . وعلى وجه الإجمال ، فإنه لاحلفاء صلاح الدين ولا خصومه أو المراقبين المحايدين (فى حالة المسلمين) قد خامرهم أدنى شك فيما كان يعتزم صلاح الدين أن يفعله أو لماذا يفعله (رغم أنه كان هناك ـ كما أشرنا من قبل ـ بعض الاختلاف بين المعاصرين بالنسبة لدوافعه ، وبعض السخرية من مبرراته) . ومافعله صلاح الدين هو خلق الشروط التى يمكن فى ظلها إحراز النصر إذا ماكانت الفرصة فى متناول اليد .

وفى اعتقادى أن صلاح الدين على مايبدو قد تبنى ـ بعد استيلائه على القدس ـ نهجا باهتا ومفتقرا إلى الحيوية إزاء تهديد الفرنجة . والأسباب المقدمة لذلك متنوعة :

ـ كان الجيش ، أو على الأقل العديد من عناصره ، بعيدين عن بلادهم .

ـ كان العديد من الأمراء أنفسهم يرغبون فى العودة إلى إقطاعياتهم أو مدنهم (يجب أن نتذكر أن بعضها كان وراء الفرات) .

ـ لكن السبب الذى أعتقد أنه الأكثر أهمية هو أن الهدف المحدد قد تم الظفر به .

وفى أعقاب النصر كانت هناك ، من ثم ، ضرورة للحفاظ على موقع الإسلام كقوة غالبة فى المشرق ، مع الإبقاء على القدس ـ التى تمثل الهدف

الأسمى من الناحية الدينية مع أنها لم تكن تكتسب هذه الأهمية من الناحية الاستراتيجية ــ فى أيدى المسلمين . وفى الوقت الذى كانت فيه الضرورة القصوى تتمثل فى احتواء الفرنجة والاستعداد لحملة صليبية جديدة وشيكة ومؤكدة ــ حتى عندما ينظر إليها من وجهة نظر دينية أكثر منها علمانية أو استراتيجية ــ لم تعد لأى مدينة بعينها أهمية أكبر أو أقل من غيرها من المدن بقدر ما تعلق الأمر بأهداف محددة .

وعلى سبيل المثال ، فإنه من اللافت للنظر أن المسلمين أهملوا القيام بالاستيلاء على مدينة صور رغم أهميتها الاستراتيجية الحاسمة ، وهو مؤشر كاف فى حد ذاته على الأساس الإسلامى ــ من حيث الجوهر ــ لطموح صلاح الدين ككل ، وعلى جاذبية الحرب المقدسة .

وفى اعتقادى ــ من ثم ــ أن دافع صلاح الدين المتعلق بالإخلاص الدينى ، عندما يجرى تقييمه بدقة . يجب منحه حق البراءة لعدم توافر أى دليل معاكس . ورغم وجهات نظر مناقضة فإننى أعتقد بأنه يجب علينا الموافقة على أن الدافع الأكبر لصلاح الدين كان فى الحقيقة مواصلة الحرب المقدسة ، وأن هدفه الأكبر كان الاستيلاء على القدس ، مع تدمير القدرة العسكرية للمملكة اللاتينية باعتبار ذلك الشرط الأساسى اللازم لتحقيق هذا الهدف . وفى حين يمكن النظر إلى مناورته لإلحاق الضرر المباشر بزملائه المسلمين على أنها خدمت مصالحه الخاصة هو وعائلته ، فإننى رغم ذلك أعتقد أن سيرته برمتها تقدم الدليل على أن دوافعه ومبرراته الخاصة والمعلنة تظل راسخة وصامدة . وإذا كان التقييم المتشكك والساخر لأحد دوافع صلاح الدين لايقوم إلا عندما يتوقف المعارض لهذه الدوافع عن المضى إلى إدراك أو محاولة إدراك الأهداف التى تؤدى إليها هذه الدوافع ، فإن المكانة المرموقة لإخلاص صلاح الدين تظل ــ من ثم وبكل تأكيد ــ سليمة لا تمس .

وفى الختام فإن إنجاز صلاح الدين قد تمثل ــ إذن ــ فى امتلاكه لهدف محدد يمكن بلوغه .

وتمثل فى إدراك أنه يتعين عليه استخدام القوة لبلوغ هذا الهدف ، وأن استخدام القوة يتطلب رجالا وأموالا تدفع لهؤلاء الرجال .

وتمثل فى الوعى بأن الاحتفاظ بالقوة والسلطة يتعين أن يكون من الممكن تبريره أخلاقيا ، بالإضافة إلى أن يكون من الممكن دعمه ماليا .

وإدراك صلاح الدين أيضا أهمية تصريف الأمور بناء على صلاحية شرعية ، وهو الأمر الذى يؤيده حرصه على الحصول على موافقة الخليفة على الأعمال التى يزمع القيام بها مقدما ، وتصديقه على نتائجها فيما بعد .

إن صلاح الدين يبرز بين معاصريه كزعيم لأنه كانت لديه الفطنة لإدراك ماهو مطلوب لتحقيق أهدافه ، وضرورة إعداد التدابير اللازمة للسيطرة على مختلف القوى الضرورية له ، وبمجرد جذبه لهذه القوى معا فإنه كان بإمكانه جعلها تعمل من أجله .

وما من صورة ، أو تقييم أو تقدير ، لصلاح الدين يمكن أن تكون كاملة دون الإشارة إلى السجايا الإنسانية التى جعلت منه زعيما محبوبا ، مثلما هو زعيم يحظى بالإعجاب . فقد كان إخلاصه ونبله وشهامته هى التى أكسبته الاحترام والمكانة المرموقة فى الغرب والشرق على حد سواء ، واقترنت باحترامه للتعامل النزيه ، لكن عطفه هو الذى أكسبه الولاء الشخصى الكبير للجماعة المحيطة به مباشرة .

إننى لم أستطع تناول هذا الجانب من سيرة صلاح الدين هنا هذا الصباح ، لكن كإشارة إلى نوع التأثير الذى أثاره صلاح الدين ، أعتقد أنه من الملائم أن أختتم كلمتى بفقرة قصيرة مقتطفة من بهاء الدين بن شداد :

« لقد سمعت أناسا يقولون إنهم يودون أن يفتدوا أعزاءهم بأرواحهم ، لكن هذه الأقوال كانت بالنسبة لى مجرد أقوال مجازية كلها ، فيما عدا يوم وفاته (أى وفاة صلاح الدين) . لأننى أعلم أنه لو أمكن أن تقبل تضحيتنا لكنت ، أنا وغيرى ، قد أعطينا حياتنا له » ..

صلاح الدين :
تطور أسطورة غربيّة

بقلم : بروفيسور كارول هيلنبراند
الأستاذ : بجامعة أدنبرة

عند تقييم إنجازات صلاح الدين ، فإنه من الأهمية بمكان الحصول على صورة كاملة وشاملة له على قدر الإمكان . وسيقوم باحثون آخرون فى هذه الندوة بإمعان النظر فى التقييمات المعاصرة المفصلة لصلاح الدين التى قدمها كاتبا سيرته الذاتية المسلمان : عماد الدين الأصفهانى وابن شداد ، والمؤرخون العرب فى العصر الوسيط فيما بعد . ولذلك يبدو من الملائم لى أن أركز – بالأحرى – على صورة صلاح الدين التى تبدو فى المؤلفات التاريخية التى كتبها أولئك الذين كانوا أعداءه فى ساحة القتال ، حيث أن هذه المؤلفات كانت المصادر التى تطورت منها مجمل أسطورة صلاح الدين فى الغرب العصور الوسطى والعصور الأحدث . وآمل أن تكون مثل هذه الدراسة بمثابة معادل ضرورى للمصادر الإسلامية وأن تساعد على التوصل إلى تقييم دقيق لهذا الرجل العظيم .

وعلى سبيل المقدمة سأبدأ ببضع ملاحظات عامة لرسم صورة عامة من السياق التاريخى . وبعد ذلك سأحاول طرح ثلاثة موضوعات رئيسية :

أولا : النظر إلى صلاح الدين فى مرآة المصادر الغربية المعاصرة له .

ثانيا : تتبع تطور أسطورة صلاح الدين فى أوربا الغربية لاحقا .

ثالثا : وأخيرا : محاولة اكتشاف السبب فى كون صلاح الدين ، أكثر من أى زعيم مسلم آخر فى عصره ، هو الذى حظى بمثل هذه السمعة الملفتة للنظر بعد وفاته .

إن تقييم المناخ السائد فى مجتمع الفرنجة خلال السنوات السبعين الأولى من

احتلال الفرنجة للشرق الأدنى ، ولا سيما لمملكة القدس ، من شأنه أن يلقى ضوءا قويا على بعض السمات البارزة لهذا النظام الاجتماعى الأجنبى .

ففى بداية القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، وبعد أن سقطت القدس فى أيدى الصليبيين ، كانت معنويات الصليبيين مرتفعة ووعيهم بأهدافهم محددا بوضوح . صحيح أن قادتهم قد تشاجروا بالفعل حول تقسيم المناطق التى استولوا عليها فى طريقهم إلى المدينة المقدسة ، لكن حتى فى انشغالهم كانت هناك أيديولوجية ملموسة جدا وحدتهم فى ساحة القتال وقد دفعتهم قدما إلى النصر. هذه الرابطة من الوحدة الدينية ، والهدف المشترك ، وفى الحقيقة أيضا . . التعصب ، كانت على طرفى نقيض مع العالم الإسلامى المفتت ، الذى مزقته إربا الخلافات الدينية والتناحرات السياسية . ولم يكن لدى الصليبيين الأوائل معرفة يعتد بها عن الشرق الأدنى أو عن المسلمين . وشأنهم شأن المسلمين ، كان الصليبيون ـ كممثلين للمسيحية الغربية ـ يعتبرون أنفسهم حراس الدين الحق ، و (مثلما كان الحال بالنسبة للمسلمين) كان الصليبيون يعتبرون القدس مدينة مقدسة عندما وصلوا إلى أسوارها عام ١٠٩٩م . وإذ كانوا مشبعين بالحماسة الدينية فإنهم استولوا على المدينة وسط مزاج من النشوة المتطرفة . وهو ما عبر عنه ريموند أوف أجيلس Raymond of Agiles بقوله :

« فى اليوم الذى تم فيه الاستيلاء على القدس انتهت كل صور الوثنية وتم توطيد أركان المسيحية » .

والكتابات التاريخية للصليبى الأول تكشف النقاب عن أن الفاتحين الذين جاءوا من الغرب أظهروا مزيجا من الجهل والتفوق القائم على أساس غير منطقى والعداء للمسلمين . وفى الواقع فإنهم كانوا يعتقدون ـ على حد تعبير شانسون دى رونالد Chanson de Ronald ـ بأن :

« الوثنيين مخطئون والمسيحيين على صواب . »

لكن هذا العداء الذى أظهره الصليبيون الأوائل تجاه المسلمين لم يكن نافذ

المفعول على جميع المستويات ، حتى فى وقت الحملة الصليبية الأولى . فنجد أن نورمان Norman ـ المؤلف المجهول لكتاب Cesta Francorum (مآثر الفرنجة) ـ كان رجلا عمليا ومساهما نشيطا فى الاشتباكات العسكرية الأولى بين الصليبيين والمسلمين . ولذلك فإن ملاحظاته تصبح موحية جدا بالنسبة لنظرة أولئك الذين أنشأوا الدول الصليبية الأولى فى الشرق الأدنى . ومع أن هذا المؤلف استهجن الإسلام كثيرا ـ رغم أنه لايعرف عنه أى شيء ـ فإنه امتدح المسلمين على قيمهم الفروسية ، وشهامتهم ، وبسالتهم فى الحرب . وكان ينظر إليهم كخصوم يستحقون التقدير ، عيبهم الوحيد هو دينهم :

«إنه لأمر حقيقى ، ولا يستطيع أحد أن ينكره ، أنهم (المسلمون) إذا كانوا فقط قد آمنوا بالمسيح والنصرانية المقدسة .. فلن تجد جنودا أقوى منهم ، أو أشجع ، أو أكثر حذقا . »

وفى منتصف القرن ، عندما بدأ يتشكل نجاح سياسة نور الدين (محمود) تغير الوضع وتعدلت المواقف .

ووسط الصليبيين أنفسهم كان هناك بالفعل أولئك الذين ولدوا ونشأوا فى الشرق الأدنى ، وهم الذين يسمون بالمولدين Pullani [1] ، والذين كانوا يشعرون بأنهم فى وطنهم فى هذه المنطقة ولم يحفلوا بتلك الجماعات من القادمين الجدد الذين وصلوا من الغرب . وقد نظر إليهم المولدون باعتبارهم جهلة وقليلى التجربة بسبل بيئتهم الجديدة ، وأيضا بوصفهم عدوانيين على نحو غير ملائم تجاه المسلمين .

أما بالنسبة للقادمين الجدد أنفسهم ، فإنهم حملوا المولدين مسئولية ضياع إمارة الرها Edessa وازدياد ضعف الصليبيين . وقد لخص المؤرخ الانجليزى المعاصر ويليام أوف نيوبورج William of Newburgh موقفهم بقوله :

---

(١) Half-caste كلمة لاتينية من العصر الوسيط معناها مولد أو هجين

« إن السكان المحليين (أى هؤلاء الفرنجة الذين ولدوا فى الشرق) قد لوثتهم مجاورتهم للمسلمين . ولكونهم بين المسلمين والمسيحيين فإنهم لايبدون منتمين إلى هذا الطرف أو ذاك الطرف الآخر . »

وقد دفعت الضرورة السياسية المسلمين والصليبيين إلى إقامة تحالفات بين كل منهما ، وبعد إحياء الجهاد فى صفوف المسلمين وبداية إعادة التوحيد للعالم الإسلامى تحت قيادة (عماد الدين) زنكى ونور الدين (محمود) ، كان من مصلحة الصليبيين مواصلة إثارة أحد القادة المسلمين أو أحد الزمر الإسلامية ضد قائد آخر أو زمرة أخرى .

وهكذا ، ومع موت نور الدين عام ٥٦٩ هجرية (١١٧٤ ميلادية) وصعود صلاح الدين إلى السلطة المؤثرة ، عدلت الحقائق السياسية والتقارب الجغرافى من المواقف الصليبية . وتضافرت الخبرة الطويلة مع الضرورة المطلقة لتتكفلا بإجبار العديد منهم على التعرف على العدو بصورة أفضل ، وإلى التسليم بأنه كان أهلا للتقدير ، بل وحتى أهل للصداقة فى بعض الأوقات .

ويكفينا هذا بالنسبة للملاحظات التمهيدية الخاصة بسمات السياق التاريخى . وأنتقل الآن إلى العرض التفصيلى لفكرتى الأولى ، أعنى : صلاح الدين على النحو الذى ظهر به فى مرآة معاصرية المسيحيين . إن معلوماتنا عن الوضع فى صفوف الصليبيين فى عصر صلاح الدين نفسه وعن المواقف الصليبية إزاء صلاح الدين بصورة خاصة ، تعتمد ـ فى المقام الأول ـ على التاريخ الأول والمؤثر للحملات الصليبية الذى كتبه رئيس الأساقفة ويليام الصورى William of Tyre ، الذى كان مستشارا للمملكة اللاتينية بالقدس من ٥٦٥ ـ ٥٨٠ هجرية (١١٧٠ ـ ٨٤ ميلادية) . ولذلك فإن شهادته تصبح شهادة نفيسة بالنسبة للتقييم الصائب لمنجزات صلاح الدين . وقد كانت المنزلة الفكرية لويليام الصورى بالغة التأثير . (وكان يحتل مكانة مرموقة فى مجالس الفرنجة ، ولذلك كان بإمكانه أن يتحدث بتبصر وثقة عن مواقف ومعتقدات صفوفهم) . ولأنه

ولد فى الشرق الأدنى فقد لاقى مشقة لتعلم اللغة العربية بالإضافة إلى اللاتينية واليونانية والفرنسية . وقد شارك بنشاط فى الأحداث السياسية . وبخاصة فى فترة بزوغ نجم صلاح الدين وحتى عام ٥٨٠ هجرية (١١٨٤ ميلادية) . ولا يزال كتابه Belli Sacri Historia (تاريخ الحرب المقدسة) ـ المكتوب باللاتينية ـ مصدرا هاما لهذه السمات الحاسمة . (لاسيما وأن خبرته الواسعة تبز خبرة أى مؤرخ مسلم معاصر له) . ومما يبعث على الأسف المضاعف ـ بالنسبة لأغراض موضوعنا اليوم ـ أنه ـ أولا ـ تعين عليه مغادرة القدس لأسباب شخصية ، وثانيا : لأن المنية قد وافته قبل معركة حطين . ومع ذلك فإن الظروف المشار إليها تجعل تقييمه لصلاح الدين مفعما بالنبوءة على نحو خارق للعادة . (سيتطلب تحليله للوضع فى مملكة القدس وآراءه عن صلاح الدين تحليلا مفصلا) .

وفى تعليقه على تبوؤ صلاح الدين السلطة فى مصر عقب وفاة شيركوه عام ٥٦٤ هجرية (١١٦٩ ميلادية) ، وصف ويليام الصورى صلاح الدين بأنه :

« رجل ذو روح متقدة ، شجاع فى الحرب وسخى فى كرمه . »

ومع ذلك فإن الصورة التى رسمها لصلاح الدين ، فى هذه المرحلة ، ليست خالية من الأخطاء . وعلى سبيل المثال يذكر أن صلاح الدين شخصيا قتل الخليفة الفاطمى وأبناءه قبل استيلائه على ثروات الخزانة الفاطمية ورشوته الجند بالذهب . وفى وقت لاحق ، فى عام ٥٧٠ هـ (١١٧٤ ميلادية) ، وأثناء سرده للكيفية التى استولى بها صلاح الدين على دمشق ، عاب ويليام الصورى على صلاح الدين جحوده لسيده الأسبق نور الدين (محمود) :

« قام صلاح الدين ـ فى ازدراء للولاء الذى يدين به لسيده والذى كان عبدا له ـ قام باحتلال كل المدن فى هذا الإقليم (أى سوريا) » .

إلا أن هذه الانتقادات الوقحة التى وجهها ويليام الصورى إلى صلاح الدين ، لا تقلل ـ مع ذلك ـ من احترامه الكبير له وإعجابه به وخوفه عليه .

ودون سبب منطقى يهون ويليام الصورى من شأن العدو أو الخطر الذى مثلته قوته المتزايدة بالنسبة لمملكة القدس . وفى أن استطرادات أسلوبه القصصى المعتاد يقوم ويليام ـ بعد وصفه للنجاح الأول الذى أحرزه صلاح الدين فى سوريا ـ بتقديم تحليل متحرر من التحيز والجهل بصورة ملفتة للنظر عن أسباب انحطاط القوة الصليبية وطبيعة العدو الرئيسى صلاح الدين . وفى مهاراته التفسيرية واتساع رؤيته يبرهن ويليام الصورى هنا أنه الند الحقيقى الكامل لابن الأثير. وفى الواقع فإن الإثنين يبرزان فى هذا الصدد دون كل من هم سواهم من مؤرخى الحملات الصليبية .

(ويبدأ ويليام بتقديم تقييم منصف لصلاح الدين . فيصفه بأنه :
« حكيم ، مفعم بحصافة القصد ، شجاع فى الحرب ، كريم لدرجة الإسراف ») .

ومزاجه متشائم بصورة عميقة . فلاشىء أقل من تدخل العناية الإلهية يمكنه من أن ينقذ الصليبيين :

« إن كل مجهوداتنا لاضرورة لها ، فقد حاولنا عبثا احتواءه (صلاح الدين) وذرفت عيوننا دموعا غزيرة فى هذا المشهد ، وبازدياد قوته ينهض هذا الأمير ضدنا على الأرض ومن البحر ، وليس لدينا أمل فى مقاومته بنجاح إذا لم يساعدنا الله » .

ويفرد ويليام ثلاثة عوامل أسهمت فى انحطاط القوة الصليبية . إالعاملان الأول والثانى سلبيان : فيقارن بين الصليبيين الأوائل ، الذين كانوا متدينين وأتقياء وبين صليبيى عصره ، الذين ينتقدهم بشدة لكونهم ضالين ومجرمين يفتقرون إلى الإيمان الدينى الحق . ويلقى باللائمة ـ ثانيا ـ على غياب انضباط عسكرى حقيقى فى صفوف صليبيى عصره ، على عكس أولئك الذين جاءوا أولا إلى الأرض المقدسة وكانوا معتادين على نظام حديدى للسلوك . أما السبب الثالث للانحطاط الصليبى ـ وفقا لما يقوله ويليام ـ فهو التغير العميق الذى طرأ

على الجانب الإسلامى . فنى مكان تفتت الصف الإسلامى ، الذى كان سائدا فى بداية الوجود الصليبى فى الشرق الأدنى ، واجه المسيحيون الآن مشهدا مخيفا للمسلمين الموحدين تحت لواء رجل واحد . وهنا يبرهن ويليام مرة أخرى على أنه رجل ذو بصيرة ثاقبة بصورة لافتة للنظر ، (بقدرة المؤرخ الحقيقى على أن يعين الاتجاهات الرئيسية لعصر ما ـ حتى لو كان هذا العصر عصره هو نفسه) .

وقد أشار وليام إلى زنكى ونور الدين ، اللذان بدآ عملية إعادة توحيد العالم الإسلامى ، ثم انتقل بعد ذلك إلى صلاح الدين :

« إن كل الممالك التى تطوقنا تأتمر الآن بإمرة رجل واحد ، وهى تخدمه من تلقاء نفسها فور تلقيها لأول إشارة منه .. كل هذه الممالك الآن تحت سلطة صلاح الدين .. ذلك الرجل ذو المولد المبهم الذى حالفه يمن الطالع فارتفع به من أدنى وضع » .

وكان لدى ويليام الصورى فكرة واضحة عما ينبغى على الصليبيين عمله لاحتواء صلاح الدين .

والأمر المؤسف بالنسبة لهذه الفكرة (من وجهة نظر غربية) أن الصليبيين افتقروا إلى البصيرة والموارد اللازمة لوضع استراتيجية ويليام (موضع التطبيق) . فبعد أن استولى صلاح الدين على دمشق وأسر ابن نور الدين ، الملك الصالح ، الذى أقام فى حلب معارضا بذلك لصلاح الدين ، يلاحظ ويليام الصورى أنه كان يتعين على الصليبيين استغلال هذا الوضع عن طريق تأييد الملك الصالح . وبدلا من ذلك ـ كما يقول ويليام بمرارة وحزن ـ لم يفعل الصليبيون أى شىء ، وفى عام ١١٨٢ سقطت حلب فى يد صلاح الدين . وكان ويليام يعرف أن القدس لن تنعم بالأمان إلا إذا استمر العداء المتبادل بين دمشق والقاهرة ، واتحدت أهداف القوتين المسيحيتين : بيزنطة والدول الصليبية . فواحسرتاه على اقتراحاته !. لأن العكس تماما هو الذى حدث بالطبع .

إن تحليل ويليام ليس شاملا . فهو ببساطة لايرى بعض جوانب دوافع

صلاح الدين . وعلى سبيل المثال ، فإنه مما يجدر ملاحظته أنه يبدو غير مدرك ـ حتى رغم حسن اطلاعه على الوضع المحلى والسبل الإسلامية ـ لأهمية صلاح الدين داخل السياق الخاص لتاريخ سوريا الحديث . فبطبيعة الحال كان صلاح الدين وسلفاه اللامعان ، زنكى ونور الدين ، اللذان اعتمد صلاح الدين على منجزاتهما وتطويرها ، يساهمون فى عملية إحياء دينية سنية كبرى ، ربما كانت العامل الأكثر أهمية فى إعادة توحيد العالم الإسلامى التى تم تحقيقها بعناء شديد فى مجرى العقود القليلة السابقة .

وكان هذا العامل هو الذى حول اتجاه المد لصالح صلاح الدين . وفى رأى ويليام ـ ويمكن أن تكون هناك درجة قليلة من الشك فى أنه رأى جزءا من الصورة فقط ـ أن الطموح الشخصى هو الذى كان يحرك صلاح الدين :

فهو « يطمح بصورة دائمة ، وبحماسة أكبر ، إلى زيادة المجد لاسمه ، وإلى توسيع نطاق سلطته » .

وبعد حملة صلاح الدين على بلاد ما بين النهرين عام ١١٨٢/١١٨٣ ، التى استسلمت له فيها مدن الجزيرة واحدة إثر أخرى ، يكتب ويليام أن الصليبيين أدركوا أن هذه المدن الجديدة ستمد صلاح الدين بقوات عسكرية جديدة لاستخدامها ضدهم . وفضلا عن ذلك أعطى فتح هذه المدن لصلاح الدين الحرية اللازمة لتركيز حملته ضد الصليبيين . وعقب استيلاء صلاح الدين على حلب عام ١١٨٢ لم يعد لدى ويليام أدنى شك فى أن نهاية الصليبيين أصبحت محتومة :

« لقد اعتقد الصليبيون طويلا أنه إذا ما نجح صلاح الدين فى الاستيلاء على حلب ، فإن قوته ستطوق وتحاصر بلادهم بأسرها » .

ويتوقف سرد ويليام الصورى ، لتاريخ الحملات الصليبية ، فجأة فى عام ٥٧٩ هجرية (١١٨٤ ميلادية) . وعندما وضع قلمه كان مفعما باليأس إزاء النتيجة المحتومة التى تنبأ بها للصراع مع صلاح الدين .

وكان من حسن حظه ـ لكن من سوء حظنا نحن دارسي الحملات الصليبية كما قلت ـ إنه لم يعش ليرى انتصار صلاح الدين فى حطين والقدس .

أما بالنسبة لوجهة النظر الصليبية إزاء هذين النصرين الهامين اللذين أحرزهما صلاح الدين فى حطين والقدس ، فسنعتمد بصددها على الروايات الأدنى لأولئك الذين أكملوا عمل ويليام الصورى . وهناك اثنان من هؤلاء ، هما برنار الخازن Bernard the Treasurer وارنول Ernoul حامل دروع ابلين Ibelin ، كان بإمكانهما تقديم صورة إيجابية لصلاح الدين ، حتى فى الساعة المريرة فى أعقاب فقد القدس . فقد امتدحا صلاح الدين حتى قبل استيلائه على المدينتين ونقلا عنه قوله :

« إننى أومن بأن القدس هى بيت الله .. ولست راغبا فى فرض الحصار على بيت الله ، ولن أهاجمه إذا ما أمكننى أخذه بمعاصرة وبحب » .

وامتدحت نفس هذه المصادر سلوك صلاح الدين فى القدس بعد فتحها ، وأشارت إلى عطفه ورحمته بقاطنيها . وربما كان المثال الأكثر تعبيرا عن كل ماعداه هو الذى ذكره ارنولد ، أحد الذين أتموا تاريخ ويليام الصورى . ففى معرض الحديث عن إحسان صلاح الدين لزوجات وبنات الفرسان فى القدس كتب أرنولد :

« لقد أعطاهن الكثير لدرجة أنهن حمدن الله ونشرن فى الخارج الكثير عن العطف والإجلال اللذين أسداهما لهن صلاح الدين . »

مثل هذه التعليقات هى الملفتة للنظر أكثر من كل ما عداها نظرا لأنها وردت فى مصادر العدو التى كتبت فى أعقاب الخسارة الأكثر أهمية التى منى بها الصليبيون ، ليس سياسيا فحسب وإنما أيضا من وجهة نظر عاطفية ودينية .

لقد قدمت حتى الآن النظرة إلى صلاح الدين التى يمكن تجميعها من كتاب صليبيين لهم خبرة شخصية بالقتال والحياة فى الشرق الأدنى . وحتى أثناء حياته ، وعندما كان بمثابة العدو الرئيسى للصليبيين ، فإن مثل هذه المصادر كانت مجبرة

على إبداء الإعجاب المتمنع لشخصيته ومنجزاته . ويمكن المحاجاة بأن مثل هؤلاء الكتاب ربما أرادوا تخفيف مرارة الهزيمة بتقديمهم الشخص الذى هزمهم فى ضوء من الإطراء المبالغ فيه ، ولايزال لدى الكثير الذى أريد أن أقوله بهذا الصدد فيما بعد . لكن التفاصيل التى يتم إسباغها على الفروسية الشخصية لصلاح الدين ، ورحمته ، وعطفه ، لاتتناسب مع هذه النظرية . فليس هناك دافع لإغداق المديح على صلاح الدين بهذه الطريقة سوى الرغبة فى تقديم وصف حقيقى لما حدث . وشهاداتهم المتوهجة تؤكد مديح كتاب السيرة الذاتية العرب لصلاح الدين .

وبعيدا فى أوربا ، حيث كانت المعلومات عن صلاح الدين غير مباشرة وغير دقيقة ومحرفة بصورة كبيرة ، كان من المتوقع أنه لابد من تقديمه باعتباره التجسيد الكامل للشر .

وقد تم إحضار الراهب المسيحى يواقيم أوف فيورى Joachim of Fiore الذى اشتهر بنبوءاته عن نهاية العالم ، لرؤية ريتشارد قلب الأسد عام ١١٩٠ عندما كان ريتشارد فى طريقه إلى الأرض المقدسة فى الحملة الصليبية الثالثة . وتحدث يواقيم عن التنين الأحمر ذى الرءوس السبعة المشار إليه فى سفر الرؤيا بالكتاب المقدس . وبالنسبة ليواقيم كانت الرءوس السبعة للتنين هم أولئك المضطهدون (بكسر الهاء) الكبار للكنيسة ، ومن بينهم الإمبراطور نيرو Nero والمسيح الدجال وصلاح الدين .

عند هذه الملاحظة الاعتراضية ينبغى أن أختتم مناقشتى لفكرتى الأولى الخاصة بصورة صلاح الدين كما قدمتها المصادر الغربية المعاصرة .

وأنتقل الآن إلى فكرتى الثانية : تطور أسطورة صلاح الدين فى أوربا الغربية .

لقد كان لزاما أن يتلاشى تطرف ولا معقولية يواقيم أوف فيورى بسرعة بمجرد ظهور آراء أكثر دقة أو حتى آراء مصورة بطريقة رومانسية عن صلاح

الدين حملها الصليبيون العائدون معهم .

وقد بدأت أسطورة صلاح الدين تتشكل بالفعل فى عصر دانتى Dante (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) . فنجد أن خمسة مسلمين فقط قد جرت الإشارة إليهم فى كتاب دانتى الشهير « الكوميديا الإلهية » ، الذى يتناول الجنة ، وعالم النسيان، والجحيم. ومن المثير أن نلاحظ أن دانتى وضع صلاح الدين فى الفئة الثانية من عالم النسيان بين الأبطال الأطهار إبان العصور القديمة . (مثل اينياس Aeneas والحكماء العظام الذين عاشوا قبل ميلاد المسيح) . ولاشك أن هذا أمر ملفت للنظر بصورة كبيرة من زاوية حقيقة أن صلاح الدين كان الخصم الأكثر شهرة للمسيحية فى زمن الحملات الصليبية .

ونفس صورة صلاح الدين ، كبطل متسم بالفروسية ، تظهر فى العديد من الأعمال الرومانسية الفرنسية فى العصر الوسيط . وأحد الأمثلة النموذجية لذلك الرواية الرومانسية التى ظهرت فى القرن الثالث عشر ، والتى نجد فيها أن اليانور أوف أكويتين ، الملكة الفرنسية الشهيرة ، تقع فى حب صلاح الدين ، بعد سماعها عن شجاعته وكرمه وصدقه . وتقدم روايات عديدة أخرى ، فى العصر الوسيط ، صلاح الدين كفارس مشرب بسجايا الفروسية الغربية .

ومن ثم فإنه يحق أن نفترض أن صلاح الدين دخل بهذا النحو إلى نسيج الفولكلور الأوربى . ومما يثير الدهشة أن أسطورة صلاح الدين اكتسبت حياة جديدة فى منتصف القرن الثامن عشر ووصلت إلى صورتها الأكثر رمزية ونمطية . فقد كتب الكاتب الكلاسيكى الألمانى لسنج Lessing مسرحية تدعى Nathan der weise (ناتان الحكيم) تظهر فيها شخصية صلاح الدين . ويكون هو موضع التفضيل الأكبر فى المسرحية عند مقارنته بممثل المسيحية ، وهوشاب جامح من فرسان الهيكل . والمسرحية مثال نموذجى للدراما التعليمية فى هذا العصر ، ولذلك فإنه ليست هناك للتوقف الزائد عندها هنا . فهدفها هو التبشير بالتسامح الدينى ، وصلاح الدين جرى تصويره فيها كنموذج

أصلى للمسلم الطيب ، الفاضل والمتسامح تجاه الأديان الأخرى . وبالطبع فإن تقديم لسنج لصلاح الدين غير ملائم ومنطو على مفارقة تاريخية .

(فأعمال صلاح الدين الشخصية التى تنطوى على الرحمة تجاه المسيحيين والتى وردت فى مصادر إسلامية ومسيحية على حد سواء لاتقتضى ضمنا ، بأية حال ، أن إيمانه بالإسلام كان واهيا) .

ومع ذلك فإن الروح العامة لشخصية صلاح الدين على النحو الذى صورها به لسنج صحيحة بالنسبة لبدايته ـ ولاءه لعائلته وسخاءه فى منح المال واضحان بجلاء .

(والأهم من كل شىء هو أنه مما له مغزى أن لسنج اختار صلاح الدين بوصفه المسلم المثالى . فهذا البعث لبطل مسلم عظيم فى صالونات ألمانيا بعد أكثر من خمسمائة عام أعقبت وفاته ، يعد من بين عجائب التاريخ) .

وأنتقل الآن إلى بلوغ أسطورة صلاح الدين أوجها فى موطنى ـ اسكتلندا ـ ولدى كاتبه الأعظم ، روائى القرن التاسع عشر السير والتر سكوت Sir walter scott الذى كتب ثلاث روايات عن الحملات الصليبية ، والذى كرس إحداها ، الطلسم ، لصلاح الدين نفسه . ويقبض سكوت ـ ابن عصره ـ على العناصر الرومانسية لأسطورة صلاح الدين بشدة . وفى الرواية يبدأ مسيحى وفارس مسلم بالقتال فيما بينهما . ومن جراء انهماكهما فى هذا القتال يعقدان هدنة ثم يتحدثان ويصليان معا . وفى نهاية الكتاب فقط يكشف النقاب عن هوية الرجلين : المسيحى أمير اسكتلندى ، والمسلم ـ الذى هو البطل الحقيقى فى رواية الطلسم ـ هو صلاح الدين .

إن سكوت لم يحتك بالشرق الأوسط على الطبيعة . وقرأ عنه فقط وتحدث مع هؤلاء الذين زاروا المنطقة . لكن صلاح الدين ، مثال الفروسية ، خلب لب « سكوت » وملك عليه خياله . وهو يقيم الديانتين ، المسيحية والإسلام ، باستخدام صورة ملفتة للنظر . الفارس المسيحى يقطع صولجانا حديديا ثقيلا إلى

شطرين مستخدما سيفا قويا له يدان . أما صلاح الدين فيضع وسادة حريرية على حافته ويسأل المسيحى إذا ماكان يستطيع أن يشقها بسيفه . ويرد المسيحى قائلا إن ذلك سيكون مستحيلا نظرا لأنه لن تكون هناك مقاومة . عندئذ أخذ صلاح الدين سيفه المعقوف الرفيع وسحبه برفق على الوسادة التى تمزقت إلى نصفين .

على هذا النحو ، قام « السير والتر » ، فى اسكتلندا البعيدة ، بتحية صلاح الدين والحضارة الإسلامية التى عبر عنها بطله .

ومؤخرا بعد السير والترسكوت ظهر فيض من السير الذاتية لصلاح الدين ، كتبها مستشرقون غربيون مثل لين بول Lane Pool وجيب Gibb وجاكسون Jackson وليونز Lyons . (ليس جميعهم ممن يشاطرون النزعة الأدبية لـ « سكوت » ، لكنهم جميعا حافظوا على الصورة المتقدة لصلاح الدين سليمة وغير ملطخة) . لقد نزعوا عنه المسحة الأسطورية بدرجات مختلفة لكنهم لم يلحقوا أى ضرر بالخطوط العامة الأساسية لسيرته ، والسمات الأساسية لشخصيته ، والنطاق العام لمنجزاته . أما الصوت الوحيد المعارض فكان اهرنكرويتز Ehrenkreutz الذى كتب عام ١٩٧٢ سيرة ذاتية لصلاح الدين مثيرة للجدل والخلاف ، وحاول فيها الإطاحة بصلاح الدين من فوق عرشه . ويحاجى اهرنكرويتز بأن سمعة صلاح الدين قامت على تحريره للقدس ، وبدون هذا لم يكن بإمكانه التباهى بأى انجازات بارزة . وحتى الانتصار العظيم الذى حققه صلاح الدين فى حطين ، جاء ــ وفقا لمحاجاة اهرنكرويتز ــ نتيجة للاستفادة من أخطاء تاكتيكية جوهرية من جانب الصليبيين أكثر مما جاء نتيجة لتخطيط إيجابى وضعه صلاح الدين نفسه . وفى حكمه على صلاح الدين يلمح اهرنكرويتز إلى :

« إنه بسبب مديح عماد الدين الأصفهانى وابن شداد ارتفعت مكانة صلاح الدين إلى مستوى العظمة الأسطورية والنزاهة المبرأة من أى عيب وكل خطيئة . »

وآمل أن الافتقار إلى الحجة المتضمن فى هذا التقيم، قد تمت البرهنة عليه فى الصورة التى قدمتها المصادر الصليبية الغربية المعاصرة التى تحدثت عن صلاح الدين والتى ناقشتها فى هذه الورقة . وإذا كان صحيحا أن صلاح الدين قد ظهر فى مرحلة انحطاط حرجة للقوة الصليبية ، وأن التناحرات البائسة والتافهة قد فاقمت ضعف الصليبيين قبل حطين مباشرة ، فإن الأمر الذى يظل مؤكدا ولا يقبل الجدل هو أن صلاح الدين قد عرف كيف يستفيد من هذا الوضع وتحرك بثقة صوب ذروة نجاحه . وتفوقه على معاصريه ، مسلمين ومسيحيين على حد سواء ، اعترف به أعداؤه الصليبيون أثناء حياته ، وظلت صورته غير ملطخة ــ حتى وسط التعصب الأعمى للعصور الوسطى الأوربية ــ بل إن صورة صلاح الدين تم تناولها بطريقة رومانسية فى نفس هذا العصر ، أى فى العصر الذى كان فيه موقف أوربا تجاه الإسلام مزيجا مؤسفا من الجهل والعداء .

لكن تبقى هناك مشكلة واحدة ، هى التى تنقلنى إلى الفكرة الثالثة فى هذه الورقة . ويمكن اختصار هذه المشكلة بإيجاز فى الكلمات التالية : « لماذا صلاح الدين ؟» . لماذا كان هو ، وليس زنكى أو نور الدين ، الذى حظى بمدائح الأجيال التالية كلها ؟! إن زنكى يمكن استبعاده على الفور نظرا لأن عملياته كانت تدور ــ بجلاء ــ ضمن مجال سياسة السلطة فقط ، كما أن شخصيته حتى فى المصادر الإسلامية تظهر كشخصية تفتقر إلى الجاذبية . ويرفضه ويليام الصورى لكونه « رجلا بالغ القسوة » . لكن ابنه نور الدين كان ذا شأن مختلف تماما . فقد كان موضعا للمزيد من الإعجاب والاحترام ، فى حياته ، من جانب المسلمين والمسيحيين على حد سواء . وفى الحقيقة فإن ويليام الصورى يصفه بأنه « أمير عادل وحاذق وحكيم ومتدين ، على الأقل وفقا للمعتقدات التى يتبناها شعبه » . وفى الحقيقة فإن نور الدين كان سلفا صالحا لصلاح الدين ، فلماذا إذن أصبح صلاح الدين الأكثر تكريما من جميع الزعماء المسلمين فى العيون الغربية ؟ من الواضح أن صلاح الدين كان له أصدقاء بين الفرسان الصليبيين ، مثل باليان Balian ، وأنه كان يحظى بكثير من الاحترام من جانب ريتشارد

قلب الأسد وريموند أمير طرابلس. وكرمه عند النصر بعد حطين وبعد القدس قد سجلته المصادر الصليبية وأطرت عليه ، وعموما كان هناك صدق واضح فى الصورة الأسطورية اللاحقة عنه التى قدمته كرجل متحضر وجدير بالاحترام وعطوف . لكن يبقى أن هذا لايفسر لماذا أصبح صلاح الدين أكثر المسلمين شهرة فى الغرب ، إذا ما استثنينا النبى (محمد) نفسه .

فى التحليل النهائى ، ربما كان ذلك لأن صلاح الدين كان هو الذى استولى على القدس ولهذا أصبح نسيج الأسطورة . لقد ظل المسيحيون يتوقون لاستعادة السيطرة على المدينة الأكثر قداسة ، نحو خمسة قرون . والآن ، وبعد أن انتزعوها من المسلمين بفضل مجهود يفوق طاقة البشر ، ووطدوا العزم على رفض التخلى عنها ، سقطت فى أيدى المسلمين مرة أخرى . وكانت هناك حاسة سادسة بين المسيحيين بأن الكارثة يتعذر إصلاحها هذه المرة . هذا البعد الإضافى جعل سقوط القدس يكاد أن يكون أمرا لاطاقة للمسلمين به ، وسواء فى المشرق أو فى الوطن بالغرب .

ولم يكن التأكيد على أن الرجل الذى هزمهم ذو عزيمة غير عادية ، إلا من قبيل « ميكانيزم » الدفاع الطبيعى . فالاعتقاد بأنهم خسروا أمام خصم خارق للعادة ويكاد أن يكون إنسانا أسمى ، ربما كان وسيلة للتغلب على خزى الهزيمة . ومثل هذا الأسلوب ليس غريبا بالنسبة للطبيب النفسانى .

وأيا كان سبب ذيوع سمعة صلاح الدين فإنه من الصواب أن نقول إنه مامن مسلم آخر على الإطلاق تعلق به خيال أوربا وخلب لبها مثلما فعل صلاح الدين ، وهذا عزاء مناسب لرجل عظيم ..

ملامح خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير القدس

بحث مقدم من اتحاد المؤرخين العرب

(.. ولذلك أيضا فإن انتصار صلاح الدين هذا لم يكن نتيجة لضعف الصليبيين. وإنما للخطة العسكرية الجيدة والسياسة الحكيمة التى انتهجها فى إعداده للمعركة ومشاركته الفعلية فيها)

.. كان وجوده فى وسط المعركة من العوامل المهمة التى دفعت العسكر إلى الاستماتة فى القتال .

معركة حطين !

لم يدخل صلاح الدين فى صراع مع الصليبيين فى الفترة السابقة لانشغاله بإقامة الوحدة بين المدن والأقاليم الإسلامية التى تمكنه بطاقاتها من تحقيق هدفه . وبعد كفاح دام اثنتى عشرة سنة تمكن من تحقيق وحدة قوية تمتد من النيل إلى الفرات . ولم يبق أمامه ـ طبقا لمقتضيات الواقع السياسى والعسكرى ـ إلا إعلان الجهاد ضد الصليبيين ، بعد أن كسب على المستوى الايديولوجى والإعلامى ثقة جمهور المسلمين (١)

وكان كل شىء معدا بالنسبة لصلاح الدين عند نهاية سنة ٥٨٢ هـ ١١٨٦م. نجد أن صلاح الدين كان محافظا على شروط المعاهدة التى أبرمت مع مملكة بيت المقدس سنة ٥١٨هـ/١١٨٥م . وكان عليه أن ينتظر حتى يزود بذريعة للهجوم عليه (٢) . وربما أراد صلاح الدين ألا يدفع عسكره لقتال لايعلم نتائجه . فقد تكون عاقبة الحرب وخيمة .. ولذلك انتظر فرصة ملائمة تدفعه للحرب دفعا . ولايكون هو المسئول وحده عن نتائجها . وجاءت الفرصة مناسبة بالنسبة لصلاح الدين عندما نقض البرنس أرناط أمير الكرك العهد المعقود بين صلاح الدين والصليبيين (٣) ، بعد أن أظهر أنه مع الهدنة وجنح للسلم وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه . وبقى الأمن له شاملا والقفل فى طريق مصر من طريق بلده متواصلا وهو يمكن الجائى والذاهب حتى لاحت له فرصة فى الغدر فقطع الطريق وأخاف السبيل .

---

(١) Look: Suian, L'Islam et la Cresiade, p94 Lane Pool, Ahistoy of Egypt p.208

(٢) جب صلاح الدين ١٤٧ .

(٣) Look, Aliya Crusade, Commerce and Cuiture. (London 1962) p.p 48,79.

ووقع فى قافلة ثقيلة معها نعم جليلة فأخذها بأسرها وكان معها جماعة من الأجناد فأوقعهم فى الشرك وحملهم إلى الكرك وأخذ خيلهم والعدة ، فأرسلنا إليه وذممنا فعاله وقبحنا احتياله واغتياله فأبى إلا الأحرار والأحرار فنذر السلطان دمه [1] .

كان صلاح الدين آنئذ بدمشق فأرسل إلى جميع الأطراف باستدعاء العساكر للسير لحرب أرناط ، فجاءته من كل فج ، وخرج هو من دمشق مسرعا إلى الجنوب فى ١ ـ محرم ـ ٥٨٣ هـ/ ١٣ ـ ٥ ـ ١١٨٧ م بعد أن ترك ولده الأكبر الأفضل عند رأس الماء القريبة من دمشق . يستدنى إليه الأمراء الواصلين ويجمع « الأعارب والأعاجم والأتراك » [2] وتقدم صلاح الدين إلى قصر السلام القريبة من بصرى ليمنع إعتداء أرناط على قوافل الحجاج القادمين من مكة والتى قيل إن أخته كانت فيها [3] .

وقد تمكن صلاح الدين من منع اعتداء أرناط على قافلة الحجاج ، التى وصلت إلى مصر بسلام ، وبعد ذلك خرج صلاح الدين من بصرى إلى عشترا ، واستعرض عسكره فكان اثنى عشر ألف مقاتل رتبهم أطلابا [4] وخرج بهم إلى الأردن يوم الجمعة ١٧ ـ ربيع الآخر ـ ٥٨٣هـ ونزل بثغر الأقحوان . وأقام بها

---

(١) العماد الأصفهانى . انظر الروضتين : ٧٥/٢ ولمعرفة المزيد من غزو أرناط للقافلة الإسلامية وردود الفعل عند صلاح الدين انظر : النوادر السلطانية : ٧٤ ـ ٧٥ : الأصفهانى . الفتح : ١٣ . العليمى . الأنس الجليل : ٣١٩/١ . الدويهى . تاريخ الأزمنة : ٨٧ ـ ٨٨ : تاريخ ابن الوردى : ١٣٧/٣ .

(٢) العماد الأصفهانى فى البرق الشامى : انظر الروضتين ٧٦/٢ .

(٣) مفرج الكروب : ١٨٦/٢ ـ ١٨٧ : العرينى . الشرق الأوسط والحروب الصليبية ٨٢٣/١ .

(٤) الأطلاب : جمع طلب وهى كلمة كروية معناها الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، وتطلق على قائد المائة أو السبعين . وأول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام فى أيام صلاح الدين . ثم عدل مدلوله وأصبح يطلق على الكتيبة . انظر : السلوك تحقيق مصطفى زيادة ٢٤٨/١ هامش رقم ٢ .

خمسة أيام يعين مواقع القتال ، ومواقف الأمراء وكان عسكره قد أحاط ببحيرة طبرية[١] عند قرية القنيطرة[٢]. ولما بلغ الصليبيين خبر اجتماع العسكر الأيوبي وتقدمه نحو الأردن علموا بأن صلاح الدين قاصدهم ، لذلك اجتمعوا واصطلحوا ، ودخل القمص معهم ، بعد أن كانت بينه وبين صلاح الدين معاهدة سلام ، واحتشدوا عند صفورية ، بعد أن رفعوا صليب الصليبوت[٣] وكانوا فى خمسين ألفا[٤] ، وقيل فى عشرين ألفا . غير أنهم لم يتقدموا لحرب صلاح الدين[٥] ، فاستغل هذه الفرصة للهجوم على طبرية بعد أن ترك أطلابه بحالها قبالة عساكر الصليبيين[٦]. ولم يمضى إلا وقت قليل حتى تمكن من فى معيته من الحجارين والنقابين من أن يحدثوا ثقبا فى سور البلد ويستولوا عليه فى ٢١ ـ ربيع الآخر ـ ٥٨٣ هـ/ ٢ تموز ١١٨٧ م من دون القلعة التى امتنعت عليهم[٧] .

---

(١) تقع طبرية فوق جبل مطل على بحيرة طبرية ، وعليها سور حصين . وبحيرتها لا يعيش فيها حيوان . كانت فى أيدى المسلمين إلى أن ملكها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ وبقيت بأيديهم حتى استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ/ ابن شداد . الأعلاق الخطرة ق ٢ . جـ ١٢٩/٢ ـ ١٣ و ١٣٢ و ١٣٣ .

(٢) النوادر السلطانية : ٧٥ ـ ٧٦ : الروضتين : ٨١/٢ : مفرج الكروب : ٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨ .

(٣) صليب الصليبوت : هو قطعة من الخشب يعتقد الصليبيون بأن المسيح (عليه السلام) صلب عليه ، ولذلك أصبح هذا الصليب مقدسا . وقد جاء به البطريرك من المقدس ليرفع فى المركز ضد المسلمين . اعتقادا منهم بأنه ينقذهم فى أوقات الأزمات .

Rasckault, Saledin Prina of Clivalry p 185.

ولمعرفة المزيد عنه انظر مجلة المشرق السنة ٤٣ جـ ٢ ١٩٤٩ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ .

(٤) السلوك : ٩٢/١ مفرج الكروب ١٨٩/٢ : الأنس الجليل ٣٢/١ .

(٥) لامب. شعلة الإسلام ترجمة عبد الله يعقوب (لعداد ١٩٦٧) ص ١٠٧ .

(٦) النوادر السلطانية : ٧٦ : مفرج الكروب : ١٨٨/٢ .

(٧) النوادر : ٧٦ ، الأصفهانى . الفتح : ٢٢ : الكامل ١١/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤ الأنس الجليل : ٣٢٠/١ : زبدة الحلب : ٩٣/٣ . وبنات الأعيان : ١٧٢/٦ جب صلاح الدين : ١٤٨

Groussel op cit 11 p.193.

وقد مدح الشاعر ابن الساعاتى صلاح الدين بقصيدة بمناسبة فتحه لمدينة طبرية ذكره فيها بأن هذا الفتح ، إنما هو مقدمة لفتح القدس وأن هذا النصر قد أقر عيون المؤمنين ، وأن صلاح الدين إنما يقاتل الصليبيين فى سبيل الله لارياء من أجل ملك الدنيا فقال :

جلت عزماتك الفتح المبينا　　فقد قرت عيون المؤمنينا
يقاتل كل ذى ملك رياء　　وأنت تقاتل الأعداء دينا[1]

وقد أحدث فتح صلاح الدين لطبرية ردود فعل قوية فى مملكة بيت المقدس فكان على أثره اجتماع الملك جاى لوزجنان بالبارونات فى عكا ، وأصدر قرارا للتعبئة العامة وافق عليه مجلس النبلاء ، بعد إقناع الأمير جيرار المتغطرس على نسيان حقده الذى كان يحمله ضد مقدم الاسبتارية وباليان أمير بيت جديل[2] .

وقد انضم الداوية والاسبتارية بكل مالديهم من فرسان وأموال ، وتقرر حضور البطريرك هرقل للاشتراك فى الحرب بصحبة الصليب المقدس ، غير أن المرض منعه من الحضور فأرسل الصليب إلى أسقف عكا[3] ، وبذلك تبين أن الصليبيين كانوا يخططون للقيام بحرب شاملة وقوية ضد صلاح الدين ، وأن دعوة البطريرك والصليب المقدس للاشتراك فى الحرب معناه أن الملك والنبلاء قرروا خوض حرب حاسمة ضد صلاح الدين لا مجرد غزوة عابرة .

وكان الصليبيون وقتذاك بصدد إحدى خطتين : إحداهما هجومية تقدم بها البرنس أرناط . والأخرى دفاعية تقدم بها ريموند الذى نصح الملك والنبلاء ـ بحكم معرفته بظروف المنطقة ، وصداقته لصلاح الدين السابقة ـ بعدم مغادرة صفورية ـ التى كانت مركز تجمع القوات الصليبية ـ حتى لو سقطت طبرية

---

(١) ديوان ابن الساعاتى : ٤٠٦/٢ : ٥/١ الروضتين : ٨٤/٢ ـ ٨٥ .

(٢) Rosekoult op. cit p.177

(٣) Grounset op cit 11 p.187.

جميعها بيد صلاح الدين ، لأن صفورية تتمتع بموقع جغرافى ممتاز ، نظرا للظروف الطبيعية الملائمة ، وخلو المناطق الأخرى من المياه [1] . إلا أن أرناط اتهم ريموند بالميل نحو صلاح الدين . وتمكن من التأثير على الملك جاى ، ودفعه إلى إصدار أوامره بالتقدم نحو صلاح الدين من دون استشارة بقية النبلاء [2] وبذلك سار الجيش الصليبي إلى مصيره البائس ، وكان أملهم الوحيد ، قطعة الصليب المقدسة التى اعتقدوا بأن يخدمها حارس خاص ، وأنها ستفعل المعجزة وتنصرهم [3] .

وبمغادرة الصليبيين موقعهم فى صفورية ، تحقق النجاح الأول لسياسة صلاح الدين الحكيمة التى قضت بإخراج الصليبيين من صفورية عن طريق الهجوم على طبرية ، لأن صفورية كانت مشتهرة بغزارة مياها . حتى فى زمن الصيف ، وكان بإمكان الصليبيين الاستمرار بمقاومة صلاح الدين لو مكثوا فيها لكثرة موجوداتها من المراعى والمواد الغذائية ، وهذا هو السبب الذى دفع ريموند من قبل أن يطلب من الملك جاى بمغادرة صفورية [4] .

وهكذا تبدو سياسة صلاح الدين العسكرية فى إخراج أعدائه إلى ساحات القتال الواسعة بعيدا عن الظروف الملائمة ، لأنه كان يتوق للاشتباك معهم بمعركة فاصلة . ومما يدل على أن صلاح الدين كان يخطط لمثل هذا الأمر ، وأنه كان ينوى القضاء على الصليبيين وتحرير أرض الشام من أيديهم ، ماقاله لعسكره عندما سمع بمغادرة الصليبيين صفورية : هذا مانريد ونحن أولو بأس شديد وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع ولا عن فتحه وازع [5] وفى الوقت

---

(١) steuenson op. cit pp. 244-245.

(٢) King the knights p.125.

(٣) hoekout op cit p1888.

(٤) Lane Pool, saladin pp. 205-206 hoeskaut op cit p 184.

(٥) العماد الأصفهانى فى البرق الشامى : انظر الروضتين ٧٦/٢ .

الذى استعد فيه الصليبيون للهجوم ، كان صلاح الدين كما ذكر الاصفهانى ـ يسهر الليل ، ويعين مواضع القتال لأجناده ، ويأمر بملء الجعاب وكنائنها بالنبال ، حتى أنه فرق من النشاب أربعمائة حمل ، كما عين سبعين موضعا ملأها بالنشاب ، ليقصدها من عسكره من خلت جعابه منها[1] .

وفى صباح يوم الجمعة ٢٤ ـ ربيع الآخر ـ ٥٨٣ هـ/٣ تموز ١١٨٧ م وصل العسكر الصليبى على جبل طبرية فى منطقة تعرف باللوبيا فأسرع صلاح الدين إلى التقدم نحوهم والاصطدام بهم . قبل أن ينتقلوا إلى موضع آخر يتحصنون فيه . لأن المنطقة التى وصل إليها الصليبيون كانت أرضا مكشوفة خالية من كل شىء . عدا حرارة الشمس المحرقة والحصى والرمال ، وكان صلاح الدين قد ردم من هذه المنطقة صهاريج المياه ، ومنع الصليبيين من القرب من المياه القريبة من طبرية . لذلك وجد الصليبيون من العطش كبيرا ، ولما وجدوا بأنهم لا يقوون على المسير بسبب الإنهاك والعطش قرروا المبيت فوق الهضبة بعيدا عن خطر المسلمين .

وفى صباح اليوم التالى الموافق السبت ٢٥ ـ ربيع الآخر/ ٤ تموز اكتشف الصليبيون بأنهم محاصرون بعيدا عن المياه ، فنزلوا مسرعين إلى فرون حطين وهناك دارت معركة رهيبة انتصر فيها العسكر الأيوبى انتصارا عظيما بعد أن أحرق تحت أقدام الصليبيين الأعشاب ، فاجتمع عليهم العطش ومر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال[2] .

---

(١) نفس المصدر والمكان السابق .

(٢) ابن الأثير . الكامل ٥٣٦/١١ ولمعرفة المزيد عن تفاصيل هذه المعركة الفاصلة التى اعتبرت حدا حاسما فى العلاقات السياسية بن صلاح الدين والصليبيين. انظر العماد الأصفهانى . الفتح القدسى ١٢ ـ ١٤ : ابن شداد النوادر السلطانية : ٧٦ ـ ٧٩ : ابن أيوب المنتخبات : ٢٨٩ ـ ٢٩٢ : ابن واصل . مفرج الكروب ١٨٩/٢ ـ ١٩٤ : أبو شامة . الروضتين ٧٦/٢ ـ ٧٩ المقريزى السلوك ٩٣/١ ابن النديم زبدة الحلب : ٩٣/٣ ـ ٩٥ ابن تغربردى النجوم الزاهرة : ٦/ ٣٢ ـ ٣٤ . تاريخ ابن الوردى : ١٣٨/٢ ـ ١٣٩ أبو الفداء . المنتصرة : ٩٥/٥ ـ ٩٧ ضبط =

ولذلك فقد تمكن صلاح الدين من قتل عدد كبير منهم ، وأسر مقدميهم ، وكان منهم الملك جفرى[1] الذى فقد كل فرسانه ، ولم يبق حوله إلا مائة وخمسون فارسا ، فالتف المسلمون حولهم وأسروهم[2] كما أسروا البرنس أرناط وأخا الملك وابن الهنفرى وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الداوية والاسبتارية ، وصاحب جبيل ولم ينج إلا الفونس الذى هرب إلى صور فى بداية المعركة ، بعد أن عرف أمارات الخذلان عليهم ، وقد أمر صلاح الدين بقتل مقدمى الداوية والاسبتارية ، كما هو قتل بيده البرنس أرناط لأنه كان قد نذر دمه لاعتداءاته المتكررة على قوافل المسلمين وتهجمه على النبى محمد (ﷺ) بينما أكرم الملك جاى وعومل بالإحسان[3] .

ومن الجدير بالملاحظة أن العسكر الصليبى كان يفوق فى العدد والعدة العسكر الأيوبى ، وكان المقاتل الصليبى محميا بواسطة سلاح ثقيل هو وحصانه وكان الفارس منهم يحمل من الأقنعة مايجعل السهم والرمح لايؤثر فيه ، وكان الخطر الوحيد الذى يهدده هو السقوط من على ظهر الفرس[4] .

= ابن الجوزى مرآة الزمان ق ١ جـ ٨ ٣٩٢ ــ ٣٩٤ ابن كثير البداية والنهاية : ١٢/٣٣٠ ــ ٣٣٢ الظاهرى كتاب زبدة كشف المالك : ٤٣ العليمى . الأنس الجليل ١/٣٢٠ ــ ٣٢٣ : القلقشندى مآثر الأناقة : ٣/٣٠٤ ــ ٣٠٨

Lasepoel Ahistoy of Egypte P P 207-208
Lasepool, Saladia PP.197-216 Grousat cit, 11, PP 193-7983 Steuensan op cit PP. 243-246

(١) الملك جفرى أوجى . هو الملك جاى لوزجنتان ملك بيت المقدس وقد أطلقت عليه المصادر العربية التسمية الأولى . وقد تولى الملك بعد وفاة بلدوين الخامس سنة ١١٨٦ هـ .

(٢) Besant op. cit p.391

(٣) ابن شداد . النوادر السلطانية : ٧٧ ــ ٧٨ . وانظر ما فات من مصادر فى هامش رقم (١) من الصفحة السابقة .

(٤) Rosenkawu op cit p.185

لذلك لم تكن الهزيمة التى أصابت الصليبيين نتيجة لضعف أو فساد كان فيهم إنما كانت قيادتهم ضعيفة وقابلهم جيش موحد من المسلمين له قائد محنك هو صلاح الدين . الذى أصبح معروفا فى أوروبا النصرانية بعد انتصاره هذا وأصبحت سياسته حديث الساعة التى تناقلها الناس ، حتى ظهرت فى العصور الوسطى أسطورة أوربية تدعى بأن صلاح الدين سافر إلى أوروبا واعتنق النصرانية إلا أنه تركها بسبب تصرف رجال الدين السيئ ، ثم عاد إلى الشرق ليحاربهم بعد أن تعرف على أساليبهم وسياستهم[1] .

ولذلك أيضا ، فإن انتصار صلاح الدين هذا ، لم يكن نتيجة لضعف الصليبيين أو لقلة عددهم وعددهم ، إنما للخطة العسكرية الجيدة والسياسة الحكيمة التى اتبعها فى إعداده للمعركة ومشاركته الفعلية فيها[2] فقد أحسن اختيار أرض المعركة وزمن وقوعها ، الذى كان فى شهر تموز أشد أشهر السنة حرارة وأقله ماء فى الصهاريج إضافة إلى أنه جثم بعسكره على طبرية . وبذلك أصبح بقواته العسكرية حائلا بين الصليبيين وبين الماء ، علما بأنه كان قد أمر بردم الكثير من الصهاريج التى كانت منتشرة فى المنطقة ، فأصبح العطش والحر من بين الأسلحة التى استخدمها صلاح الدين ضد عدوه . إضافة إلى أن وجوده وسط ساحة المعركة كان من العوامل المهمة التى دفعت بالعسكر إلى الاستماتة فى القتال ، خاصة وأنه كان إذا ماوجد ضعفا فى جماعة من أجناده ، كان يتقدم إليها ويصيح بأعلى صوته مكررا «كذب الشيطان[3]» فيعيد الثقة إلى نفوسهم ، ويذكرهم بأن الهزيمة من الشيطان ، وأن المعركة إنما هى جهاد فى سبيل الله ومضى فيه حتى النهاية ، ومن الأدلة على ذلك ماذكره الملك الأفضل نور الدين عن والده صلاح الدين قال : كنت إلى جانب أبى فى ذلك المطاف .. فلما رأيت

---

(١) لامب ، شعلة الإسلام ١١١ هامش رقم ٢ .

(٢) Ranil Tslam amd the weast (Edinkwah 1966 p.246

(٣) الكامل ٥٣٦/١١ مفرج الكروب ١٩١/٢ .

الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحى : هزمناهم ، فالتفت إلى والدى وقال : اسكت مانهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة . يعنى خيمة الملك [1] .

ولقد كان لانتصار صلاح الدين فى حطين صدى بالغ الأثر فى نفوس المسلمين عامة ، وأهالى دمشق خاصة ـ لأن دمشق كانت فى تلك الفترة مركز أعمال صلاح الدين ومقره وفيها قضاته وكتابه ـ الذين كانوا طوال أوقات المعركة ساجدين لله وقائمين يدعونه النصرة على الأعداء ، وكلما سمعوا بنبأ الانتصار عبروا عن فرحتهم بقطرات الدموع التى أخذت تساقط من عيونهم تارة وبالكلمات المؤثرة التى تضمنت عبارات الشكر والحمد لله تارة أخرى ، حتى أن من أراد دخول الحمام بدمشق عدل عنها بدخول الحمام فى طبرية . وقد جاء بنص الكتاب الذى أرسله القاضى الفاضل فى دمشق إلى صلاح الدين مايدل على ذلك :

ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيم ، وأنه كما قيل أصبحت مولاى ومولى كل مسلم .. الرءوس إلى الآن لم ترفع من سجودها والدموع لم تمسح من خدودها ، وكلما فكر الخادم أن البيع تعود مساجد والمكان الذى كان يقال فيه إن الله ثالث ثلاثة يقال فيه إنه الواحد ، جدد لله شكرا تارة بفيض من لسانه وتارة بفيض من جفنه .. والمماليك ينتظرون أمر المولى فكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق قد عول على دخول حمام طبرية ، وللإنسان بعد فى هذا الفتح شرح طويل وقول جليل [2] .

ولم يكن من نتائج معركة حطين أسر الملك جاى لوزجنتان ملك بيت المقدس وضياع هيبة مملكته ، ووقوع العسكر الصليبى بين القتل والأسر فحسب بل كانت هذه مفتاح الفتوح الإسلامية [3] فى المنطقة ، فقد اتجه صلاح الدين بعدها إلى

---

(١) نفس المصدر والمكان السابق .

(٢) الروضتين : ٢/ ٨٢ ـ ٨٣ .

(٣) مفرج الكروب ٢/٨٨ .

سائر المدن والقلاع الصليبية ، وأخذ يسقطها الواحدة تلو الأخرى ، وبدا وكأن روح الجهاد الذى كان قد استولى على النصارى فى سبيل استرجاع الأرض المقدسة فى أيدى المسلمين قد انتقلت الآن إلى المعسكر الثانى [1] .

ففى يوم الأحد ٢٥ ربيع الآخر ـ ٥٨٣هـ تموز ١١٨٧م نزل صلاح الدين على طبرية . بعد أن كانت أصوات عسكره طوال الليل ترتفع بالحمد والتكبير لله تعالى ، مما أحدث قلقا لدى زوجة ريموند التى كانت قلعة طبرية بيدها ، لذلك لم يسعها بعد أن تخلى زوجها عنها وتعذر رجوعه إليها ـ إلا أن تطلب الآمان لها ولأصحابها ، فأمنها صلاح الدين ووفى بوعده ، فخرجت بمالها ورجالها وسارت إلى طرابلس بلد زوجها [2] علما بأن صلاح الدين أمر العسكر بأن لا يلحق أى أذى بفرسانها وأن يعاملوا بالاحترام والأمان .

وفى يوم الأربعاء ٢٨ ربيع الآخر ٨ تموز ١١٨٧م تقدم صلاح الدين نحو عكا [3] . وما أن وصلها حتى خرج إليه أهلها يتضرعون ويطلبون الأمن ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وخيّرهم بين الإقامة والرحيل ، فاختاروا الرحيل وأخذوا ما أمكنهم حمله وتركوا الباقى فى المدينة [4] . حيث دخلها العسكر الأيوبى يوم الجمعة

---

(١) حتى فيليب لبنان فى التاريخ . ترجمة أنيس فريحه (بيروت ١٩٥٩) : ٣٦٦ وبالرغم من سلامة قول حتى فى هذا الخصوص إلا أن روح الجهاد لم تنتقل إلى المسلمين بعد هذه المعركة . إنما ظهرت فيهم منذ دخول الصليبيين الغزاة بلادهم سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م .

(٢) النوادر السلطانية : ٧٩ : مفرج الكروب ١٩٥/٢ Lanepool Saladin p. 223

(٣) الروضتين ٧٩/٢ مفرج الكروب ١٩٦/٢ .

(٤) عكا مدينة واسعة كثيرة الضياع لها مرسى مأمون، ابن شداد الأعلاق الخطرة ق٢ ح١٧٥/٢. وقد ورد ذكرها فى التوراة . وهى أعمال سبط أمر . وتقع فى أول حدود فلسطين . فى موقع ملائم من البحر لها ثغر كبير ترسو عنده السفن المسافرة إلى أطراف القدس . فتحها عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) سنة ٦٦٨ م واستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤ م واستعادها منهم صلاح الدين بعد معركة حطين سنة ١١٨٧ م . انظر : رحلة بنيامين ترجمة عزرا حداد (بغداد ١٩٤٥) ٩٣ .

٢ جمادى الأولى . وأطلقوا من كان فيها من أسرى المسلمين ، وكانوا أربعة آلاف ، من دون أن يلحقوا أذى بأهالى البلد .

لهذه السياسة السمحة التى اتبعها صلاح الدين مع أهالى البلد فوائد كبيرة فقد حافظت على استمرار الحياة الاقتصادية ، لأن أولئك التجار الأوروبين استمروا بأعمالهم التجارية بعد أن لمسوا من صلاح الدين العدل والصلاح (١) وبالإضافة إلى أن تلك السياسة المعتدلة ، ساعدت على تسهيل سرعة فتح المدن التى كانت تحت السيطرة الصليبية ، كما أن هذه المعاملة الحسنة ـ أتاحت للنصارى مغادرة عكا وغيرها من الحصون فتخلص المسلمون من الصليبيين دون حرب .

وتتضح سياسة صلاح الدين الحكيمة وبعد نظره العسكرى فى توجهه نحو الساحل الشامى بعد معركة حطين وفتح المدن والحصون الصليبية المنتشرة هناك وعدم توجهه مباشرة نحو القدس . فقد اختار أن يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالعالم الخارجى ، وبخاصة الغرب الأوروبى ، ليمسوا محصورين داخل بلاد الشام (٢) وربما قصد أيضا تسهيل الاتصال البحرى السريع بين موانئه البحرية الموجودة فى الساحل المصرى ، وبين تلك الموانئ المنتشرة فى الساحل الشامى (٣)

ولذلك بعد أن فتحت عكا تقدم العسكر الأيوبى نحو فتح الحصون المجاورة لها أمثال الناصرة ، قيسارية ، حيفا ، صفورية ، الشفين ، الطور وغيرها ثم تقدم حسام الدين بن لاجين ، بأمر من خاله صلاح الدين ، نحو مدينة نابلس وحاصرها واستنزل من كان بها من الصليبيين بالأمان ، وتسلم قلعتها ، وأقر أهالى البلد على أموالهم وأملاكهم ، لأنهم كانوا مسلمين ، وقد مكثوا فى مدينتهم بعد

---

(١) Grounit op. cit 11 p805

(٢) عاشور الحركة الصليبية : ٨١٣/٢ .

(٣) Stevemson cit p249

استيلاء الصليبيين عليها[1] .

وفى الوقت الذى دخل فيه صلاح الدين عكا وفتحت نابلس ، كان الملك المظفر تقى الدين عمر يحاصر تبين ، ولما لم يتمكن من فتحها ـ لأنها كانت قلعة حصينة على رأس جبل ، كتب إلى عمه صلاح الدين يستدعيه ليتولى أمر فتحها بنفسه وهذا اعتراف ضمنى من أمراء الأجناد بمقدرة صلاح الدين العسكرية الممتازة . التى لايقف أمامها أى حصن مهما كانت مناعته .

وقد خرج صلاح الدين إلى تبين استجابة لنداء الملك المظفر ، وحاصرها حصارا شديدا حتى اضطرها إلى طلب الأمان ، وتسلمها يوم الأحد ١٨ جمادى بعد أن استمهله الصليبيون خمسة أيام ليتنزلوا بأموالهم ، وقد بذلوا رهائن من مقدميهم وتقربوا إلى صلاح الدين بإطلاق ما كان عندهم من أسرى المسلمين وكانوا يزيدون على مائة رجل ، فكساهم السلطان وسيرهم إلى أهلهم ، ولما أخلى الفرنج البلد سيرهم السلطان إلى مأمنهم ومعهم جماعة من العسكر ، فأوصلهم إلى صور[2] .

وفى النص السابق مايدل على سياسة صلاح الدين وخلقه ، فبالرغم من احتياجه للعسكر فى هذه الأوقات الحرجة ، نجده يرسل بالأسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم إلى أهليهم بعد أن كساهم ليكسب ودهم وثقتهم ، وليكونوا هم بأنفسهم أيضا دليلا ماديا على انتصاره ، حيث سينقلون أخبار انتصاره إلى المدن التى سوف يمرون بها ، ثم لايخفى بأن إرسال بعضا من عسكره لحماية القوة الصليبية المغلوبة على أمرها وإيصالها إلى مأمنها ـ صور ـ مكرمة من دون إلحاق أى ضرر بها . كانت سياسة فى غاية النبل والشهامة وبعد النظر ، وربما أراد صلاح الدين بذلك أن يبرهن للصليبيين عامة ، ولأهالى صور خاصة ، بأنه إنما جاء ليعيد البلاد إلى أصحابها الشرعيين .

---

(١) الروضتين : ٨٧/٢ ـ ٨٨ : مفرج الكروب : ٢٠٢/٢ ـ ٢٠٣ السلوك : ٩٤/١ ـ ٩٥ .

(٢) ابن واصل . مفرج الكروب : ٢٠٦/٢ .

وأن أهدافه سامية ترتفع عن إراقة الدماء إلا عن الضرورة ، كمعاملته لأولئك الذين يغدرون بالمسلمين ويخونون العهود ، كما فعل بأرناط مثلا ، ومن ثم ليدفع بصليبي صور إلى طلب الأمان قبل أن يتقدم لفتحها لأن فتح صور كان هدفه الثانى عد فتح القدس[1] .

وبعد أن استعاد صلاح الدين تبين خرج نحو مدينة صيدا[2] ، فلما علم صاحبها الخبر ، غادرها هاربا وتركها من غير مدافع ، وجاءت رسل صاحبها بمفاتيح البلد إلى صلاح الدين فدخلها آمنا مطمئنا ، ونصبت على سورها أعلامه الصفر وكان ذلك يوم ٢١ جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ[3] .

ومن صيدا خرج صلاح الدين إلى مدينة عسقلان ، ولم يتجه نحو صور ، لأنها أصبحت فى هذه الفترة مركز تجمع صليبيي الساحل الشامى ، فرأى صلاح الدين قصد عسقلان لأن أمرها أيسر[4] ، وربما لانتشار عسكره فى الساحل ، وعدم

---

(١) ذكر ابن القادسى بأن صلاح الدين أرسل إلى بعض أهله كتابا أوضح لهم فيه انتصاراته وأهدافه ومما جاء فيه (.. ولم يبق فى الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور . والعزم مصمم على قصد القدس .. فإذا يسر الله فتح القدس ملنا إلى صور والسلام » انظر الروضتين : ٩١/٢ .

(٢) كانت مدينة صيدا من المعاقل الإسلامية القوية والمهمة لدى المسلمين ، وقد قاومت لوحدها الغزو الصليبى ولم تستسلم خوفا كباقى الحصون الأخرى من الساحل الشامى ، إلا أن المدينة نتيجة للضغط الشديد الذى لاقته من الجوع الأكيد والعدة الوفيرة ، سقطت بيد الصليبيين سنة ٥٠٤ هـ بالأمان بعد أن أخذ أهالى البلد على أنفسهم من بلدوين الأول عهدا بعدم الغدر بهم ، إلا أن الصليبيين لم يلبثوا أن وضعوا على رءوس المسلمين المقيمين بصيدا ٢٥ ألف دينار واستحصلت أموالهم بالباطل ، انظر ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ١٧١ ، سالم ، عبد العزيز. دراسة فى تاريخ مدينة صيدا (بيروت : ١٩٧٠) : ٩٢ ـ ٩٣ و٩٧ و١٠١ ـ ١٠٣ .

(٣) الكامل : ٥٤٢/١١ الأصفهانى الفتح القدسى : ١٠٢/ ١٠٣ ، الروضتين ٦٠/٢. مفرج الكروب : ٢٠٦/٢ ولمعرفة المزيد عن فتح صلاح الدين لمدينة صيدا وأحوال المسلمين فيها انظر صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت نشره الأب لويس شيخو (بيروت ١٨٩٨) : ٣٤ ـ ٣٨ ، سالم دراسة فى تاريخ مدينة صيدا : ١١٤ ـ ١١٨ .

(٤) النوادر السلطانية .

اجتماع كلمتهم فى صور ، ففضل عسقلان لأنها تقع فى ملتقى الطرق بين سوريا ومصر[1] ، علما بأنه دخل إلى صور المركيز (كونراد دى مونتفرات) فى هذه الفترة وكان شديد القوة كثير الحيلة والمال ، فلما دخل صور وجد أن كلمتها متفرقة ـ رغم الأعداد الكثيرة التى بداخلها ـ لأنه لم يكن لهم أمير ، ولا مقدم يجمعهم ، فعمل على توحيد كلمتهم بعد أن اشترط عليهم البيع والطاعة له ، فأجابوه إلى ذلك فشرع فى تحصين البلد وتجديد حفر الخندق ، استعدادا لملاقاة صلاح الدين[2] .

ومن الجدير بالملاحظة أن عددا من المسلمين كان يسكن صور بجوار الصليبيين فى هذه الفترة ، إذ بعد أن احتلها الصليبيون ، استهوى حب البلدة بعض المسلمين فبقوا فيها مع معاناة الذل والمسكنة ، ومشاهدة أسرى المسلمين يرسفون فى القيود ، ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصرف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك فى أطواقهن خلاخيل الحديد فتنفطر لهم الأفئدة ولا يغنى الاشفاق عنهن شيئا[3] .

ولما خطط صلاح الدين عسكريا بأن يكون فتح صور بعد فتح القدس ، لذلك ركز جهده الآن على فتح عسقلان ، واستحضر أثناء فتحها الملك جاى لوزجتان وجيرارد دى مونتورا مقدم الداوية من سجنهما بدمشق ، ووعدهما بإطلاق سراحهما إن هما ساعداه فى فتح الحصون الصليبية ، فاستجابا له وأرسلا إلى أهالى عسقلان وطلبا منهم تسليم البلد إلى صلاح الدين ، غير أن أهالى عسقلان رفضوا ، فشدد عليهم الحصار ، حتى تمكن النقابون من جزء من الصور ، فاضطر أهالى البلد إلى طلب الأمان فأمنهم صلاح الدين وسيرهم ونساءهم إلى بيت المقدس[4] .

---

(١) Lanepool Saladin, P223

(٢) مفرج الكروب ٢٠٨/٢ ـ ٢٠٩ .

(٣) رحلة ابن جبر (ليدن ١٩٠٧) : ٣٠٧

(٤) النوادر السلطانية : ٨٠ ـ ٨١ : الروضتين : ٩/٢ : مفرج الكروب : ٢٠٩/٢ ـ ٢١٠ .

وقد أطلق صلاح الدين سراح جيرارد وفاء بالعهد ، لأنه ساعده فى فتح حصن غزة . أما الملك جاى فقد أعاده إلى نابلس مسجونا ، وبعث إلى زوجته كتابا دعاها فيه للحضور إلى نابلس والإقامة مع زوجها إن شاءت ، فرحبت بالعرض وقدمت إلى نابلس[1] .

وقد امتازت سياسة صلاح الدين العسكرية تجاه الصليبيين فى هذه المرحلة ، بعدم استخدام القوة ، ومنح الأمان للبلد الراغب فى السلام ، والإيفاء بالعهد عن طريق إيصال المنكوبين إلى مأمنهم (صور أو القدس) من دون إلحاق أى ضرر بهم . وقد عاب بعض المؤرخين على صلاح الدين هذه السياسة . واتهمه ابن الأثير بتحمل مسئولية عدم التمكن من فتح صور فقال : ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين ، فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان وغير ذلك ، كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور »[2] .

والحقيقة أن صلاح الدين لم يكن مخطئا فى اتباع هذه السياسة ، لأن هدفه الأول كان تحرير القدس ، وكان عليه أن يتخذ أحد السبيلين : إما أن يتجه مباشرة بعد معركة حطين نحو القدس ويحررها ، ومن ثم يفتح بقية الحصون والمدن المجاورة . أو أن يفتح المدن والحصون المجاورة ثم يتجه نحو القدس .

وقد فضل صلاح الدين الخطة الثانية . لأنه فى حالة تنفيذه الخطة الأولى ستكون خطوط رجعته إذن مهددة ، وسيتطلب منه لتنفيذ هذه المهمة قوات عسكرية كبيرة لمحاصرة المدن والحصون المجاورة ، أو قطع طرق مواصلاتها المؤدية للقدس كى يتمكن من التصدى لفتح القدس بسلام . كما أن هجومه على القدس مباشرة يؤدى إلى استنفار قوات الصليبيين كافة ، فتكون عندئذ قوى الصليبيين مع قوات القدس مجتمعة ضده .

---

(١) عاشور . الحركة الصليبية : ٨١٨/٢ - ٨١٩ .

(٢) ابن الأثير الكامل ٥٥٥/١١

ولما عزم صلاح الدين على تنفيذ خطته الثانية ـ فتح الحصون أولا ثم القدس ثانيا ـ واجه أمامه عدة مدن وحصون كان عليه أن يفتحها مثل عكا ، صور ، عسقلان ، بيروت وصيدا وغيرهم ، ولو لم يتبع صلاح الدين السياسة السليمة ، لكان عليه أن يضرب بقوة تلك المدن والحصون ، وفى هذا نتائج خطيرة على مستقبل فتوحاته وسمعته ، ثم لو اتبع صلاح الدين السياسة الحربية القاسية ضد الصليبيين ،لامتنعت عليه كثير من تلك المدن والحصون ، ولشغلته طويلا عن تحقيق مهمته الأولى .. فتح القدس .

ومن جهة ثانية ، فإن صلاح الدين لو لم يمنح الأمان للصليبيين ويرسلهم إلى صور لأصبح الزخم فى القدس شديدا ، ولاستعصى عليه فتحها ، ثم لو لم يعلم الصليبيون أن صلاح الدين يسمح لهم بمغادرة حصونهم نبلاء مكرمين إلى القدس أو صور ، لقاتلوا صلاح الدين حتى الموت .

ولما كان صلاح الدين قد خطط لفتح القدس أولا ثم صور ، لذلك فإن إرساله للصليبيين المغلوبين على أمرهم إلى هذين المدينتين كان تكتيكا عسكريا منه ، قصد به اشتغال الصليبيين بمهمة الانتقال ، وإضعاف مقاومتهم لأن القدس وصور سوف تصبحان بيده إذا مانجحت سياسته .

أما ماقدر لصور من أن تبقى بعد فتح القدس ، عاصية وأن تكون معقلا للصليبيين ، فإن صلاح الدين لم يكن يتوقع مجرى الأحداث فى المستقبل ، ولم يكن له علم بأنه حملة صليبية ثانية ، ستكون قوية ، وستضم أعظم ملوك النصرانية آنئذ ، ستتجه إلى صور وتتحصن فيها قبل أن يتمكن صلاح الدين من فتحها ، ولذلك فمن عبر التاريخ أن نتصور صلاح الدين وكأنه يعد الخطط ويودع قواته للتصدى للهجوم الوشيك من الغرب[1].

---

(١) جب ـ صلاح الدين ص ١٥٢ .

معركة حطين
الإطار والنتائج

كلمة : الدكتور صفي الدين أبو العز
رئيس معهد البحوث العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

السادة والسيدات الأفاضل

لقد تحيرت كثيراً فى اختيار عنوان لهذه المحاضرة .. هى ليست محاضرة بالمعنى الأكاديمى لكلمة محاضرة .. ولكنها مجرد خواطر.

دفعنى إلى الإسهام فى هذه الندوة الموضوع الهام الذى تتطرق إليه وهو صلاح الدين ومعركة حطين والموقف العربى ، حتى يمكن أن يكون لنا من استقراء هذا الواقع الذى كان يسود وقتذاك ، أن نتوصل إلى نتائج يمكن أن تكون بمثابة دروس مستفادة كما تفضل السيد الأستاذ رئيس هذه الجلسة .

وعلينا ألا نكون دائما أسرى للجوانب الإيجابية من تاريخنا ـ بل لابد أن نذكر دوماً ما لنا وما علينا .

العنوان الذى تحيرت أمامه هو .. هل أتكلم عن معركة حطين من حيث وراءها الجيوبولوتيكى العام والنتائج التى ترتبت عليها ، أم أتكلم عن معركة حطين فى إطار منطقة جغرافيا . وأيا كان ما يقال من أن حروب صلاح الدين إنما كانت فى المقام الأول حروبا تهدف من بين ما تهدف إلى تحقيق وحدة الإسلام وإعلاء كلمته ، ولكنها حروب دارت فى منطقة سياسية هى منطقتنا العربية .

من هذا المنطلق ، هناك جغرافية محددة المعالم والقسمات قامت فيها هذه الأحداث الجسام التى أثرت ، ليس فقط فى تاريخ هذا الجزء من العالم ، ولكنها أثرت فى تاريخ المجتمع العالمى والإطار العالمى الشامل . ومن هنا وصلت إلى

عنوان وسط ، ألا وهو أن عنوان هذه المحاضرة أو هذا اللقاء هو «**معركة حطين .. الوراء والنتائج**» طالما أن معركة حطين لا يمكن لنا أن ندرك ونستكشف كافة أبعادها إلا فى هذا الإطار العام ، وفى إطار الحملات الصليبية التى مثلت أول غزوة استعمارية استيطانية للاستعمار البحرى الغربى فى منطقتنا العربية .

معركة حطين التى دارت على سهل حطين ، الواقع بالقرب من بحيرة «طبرية» حدثت كما تعلمون جميعا فى شهر يوليو من عام ١١٨٧ ميلادية ، وإنتصر فيها الناصر صلاح الدين وجيوش المنطقة العربية ، وأصبح الطريق أمامه طريقا ممهداً إلى بيت المقدس . غير أن ما يسترعى الانتباه هو أن هذه المعركة لم تحدث إلا بعد مضى قرن كامل من الزمان منذ بدأت الحملة الصليبية الأولى ، كما أنها حقيقة لم تمثل المعركة الفاصلة ، الحاسمة التى أدت إلى القضاء على الحملة الصليبية ودخولها ذمة التاريخ وانسحاب فلول الصليبيين إذ أن هذا حدث بعد قرن آخر تقريبا . مما يجعلنا نتوقف وقفة هادئة أمام هذا . فما الذى أدى إلى تأخر قيام هذه المعركة .. فى اعتقادى أن رجحان كفة القوى الصليبية الغربية بعد معركة حطين ، واستمرار هذا إلى أن جاءت نهاية الحملات الصليبية ، إنما جاء بعد وفاة صلاح الدين ، ولعل هذا هو السبب فى أننى توصلت إلى أن وجود القيادة الملهمة ـ «الكاريزماتيك» وظهورها على المسرح السياسى قد تأخر حقيقة هذه العقود العشرة ، وما أن واتت الفرصة لظهور القائد حتى كانت هذه المعركة ، فعامل القيادة عامل حاسم وهام فى معركة حطين ، وهو عامل حاسم وهام وأساسى فى تاريخنا المعاصر بلا جدال .

لم تكن إذن معركة حطين هى الحرب التى أنهت كل الحروب بين القوى العربية الإسلامية وبين الغرب المستعمر الاستيطانى .

مائة عام قبل حطين

ربما هنالك ملحوظة أخرى قبل أن أبدأ فى تحليلى ، ألا وهى أن قيام معركة حطين وحدوثها ارتبط إلى حد كبير بالتغيرات العامة التى حدثت على ساحة هذا الجزء من العالم وعلى أوضاع القوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما يجعلنى أقول بأن معركة حطين جاءت لتمثل معركة بأبعاد جديدة تختلف عن نمط آخر من المواجهات كان سائداً طوال الفترة التى سبقتها ، يعتمد فى أساسه على الكر والفر ، أو على ما يشبه حرب العصابات ، وهو نفس النمط الذى استمر بعد معركة حطين إلى أن جاءت نهاية الصليبيين .

العقود العشرة التى انقضت قبل الانتصار فى حطين هى التى استطاع خلالها الصليبيون والقوى الغربية أن يعززوا مواقعهم ويقيموا دولهم المدينية كمملكة بيت المقدس ، وهى أكبرهم فى حوزها الجغرافى ، وكدوقية وإمارة «إنطاكية» «وطرابلس» .

وهو الأمر الذى ماكان يمكن أن يحدث على الإطلاق قبل نهاية القرن التاسع .

وقد اخترت هذا التاريخ لأن نهاية القرن التاسع تبدأ معها نهاية الدولة العباسية ونهاية التضامن والترابط بين القوى السياسية المختلفة فى هذه المنطقة ، وعندما كانت الدولة العباسية فى عنفوان وفى أوج مجدها وهيبتها السياسية بعد حدوث تلك الموجات المتتالية من المد الوحدوى العارم الذى دمج كل شعوب هذه المنطقة فى منطقة جغرافية سياسية واحدة ، جعل هذه المنطقة ، مسلقة جيوبلوتيكية ، بالمعنى المفهوم ، بعد الانتصار على فارس وبعد الانتصار على الدولة البيزنطية ، وقد تم هذا الامتداد الهائل للإمبراطورية الإسلامية فى فترة لا تتجاوز الثمانية عقود .

نحن إذن أمام الإمبراطورية الإسلامية التى تمتد من جبال «البرانس» فى

الغرب حتى حدود الهند وجبال طوروس. تمثل حدها الشمالى الفاصل بينها وبين الدولة البيزنطية أو بلاد الروم .

هذه القوة بدأت كقوة برية ، لأن عملية التوحيد التى انطلقت بعقيدة الإسلام على شكل موجات متتابعة من الجزيرة العربية التى مثلت طوال فترات تاريخها القلب النابض للقارة الآسيوية ، تبعت موجات بشرية متتابعة لتؤثر فيما حولها إلى أن كان قيام الإسلام واندماج هذه المنطقة فى إطار هذه الوحدة الإسلامية .

القوة إذن بدأت كقوة برية ، ولكن « بيزنطة » الدولة البحرية كانت تمثل خطراً دائما يهدد سواحل المنطقة العربية الجديدة مما حول القوى البرية بمضى الوقت إلى قوة برمائية أو قوة بحرية ـ برية ، فبنى المسلمون والعرب أسطولاً بحريا تمكنوا بواسطته من غزو قبرص ورودس وكريت ، وجمعت الأمبراطورية الجديدة أو القوة الجديدة بين السيطرة على البر والبحر على حد سواء ، وإن دل هذا على شيء ، فهو يدل على أن الوعى الجيوبلوتيكى العام بهذه المنطقة كان فى ذلك الوقت وَعْياً راقياً استطاع أن يدرك أهمية توظيف واستثمار معطيات هذه المنطقة الجغرافية التى تمثل حقيقة البرزخ العالمى الأساسى ومعبر الوصل بين قارات العالم القديم فى ذلك الوقت .

بعد تفكك الدولة العباسية

التفكك إذن الذى أصاب الدولة العباسية فى نهاية القرن التاسع ، وأدى إلى ظهور عديد من الوحدات السياسية على أنقاضها متمثلة فى الدولة السامانية فى شرق إيران ، وفى الدولة البويهية فى غربها ضامة كرمان وخوزستان والعراق ، وحتى بغداد رغم استمرار الخليفة العباسى فيها ، والدولة الإخشيدية فى مصر ، أما بلاد الشام فهى طوال فترات تاريخها كما نعلم كانت معبر الاتصال بين الحضارتين النهريتين الأساسيتين فى كل من مصر وفى العراق .

أسفرت إذن عملية التمزق السياسى التى لحقت بالدولة العباسية إلى تحول الدولة البيزنطية للمرة الأولى من مرحلة الدفاع إلى الهجوم ، ولم تعد جبال طوروس حدا سياسيا طوبوغرافيا فاصلاً بين الدولة البيزنطية والمنطقة العربية ، بل تجاوزته قوات الروم وأوغلت فى التقدم، واستخدمت الهجوم بالبر والبحر معا ، فاستردت جزيرة قبرص وطرد العرب والمسلمون من جزيرة كريت .

فى الطرف الشمالى من بلاد الشام ، كانت توجد « دولة الحمدانيين » وهى فى موقعها فى تلك الفترة كانت بمثابة دولة حاجزة ، وكم كنت أود أن تكون هنالك خريطة حتى يمكن أن أستعين بها كوسيلة من وسائل إعطاء مزيد من الإيضاح . الدولة الحمدانية كانت تشغل منطقة حلب والقسم الشمالى من بلاد الشام ومنطقة الجزيرة ، بمثابة دولة حاجزة بين «البويهيين» فى الشرق وبين «البيزنطيين» فى الغرب وهذا الذى جعل ولاءها يتأرجح بين هاتين القوتين .

صراع بغداد والقاهرة

الملاحظ هو أن مصر قد ظلت بمنأى عن المشاركة فى هذه الأحداث التى تمثل المرحلة الأولى من الصدام مع القوى الاستيطانية الغربية ، إلى أن قامت الدولة الفاطمية فى مصر بعد منتصف القرن العاشر فى عام ٩٦٩ واستطاعت الدولة الفاطمية أن تمتد بالنفوذ إلى بلاد الشام ومن هنا ارتبطت مصر ببلاد الشام ارتباطا تاريخيا لفترة طويلة قادمة فى حين استمر التنافس بين الفاطميين وبين سهول الرافدين فى العراق ، هذا التنافس استمر لأكثر من مائتى سنة وهو يمثل استمراراً للتنافس التقليدى القديم بين البيئتين النهريتين فى هذا الجزء من العالم .

بطبيعة الحال ، احتدام هذا التنافس بين الفاطميين فى مصر وبين الخلافة فى بغداد قد أدى إلى تشجيع الروم على الاستمرار فى التوغل جنوبا حتى وصلوا إلى مدينة دمشق وبدأت بعد ذلك المرحلة الثانية من الحملة الصليبية .

الذى يعنينا فى هذا أن الفاطميين بلجوئهم إلى الهجوم ، استطاعوا فى

مرحلة ما إيقاف زحف الروم على بلاد الشام ، وفى نفس الوقت أدى التنافس بين الفاطميين والعباسيين إلى توغل الأتراك من سهوب آسيا وبلاد التركستان .

بعد هذه الهجمة التركية تمزقت الكيانات السياسية واشتد التنافس بين القاهرة وبغداد واتخذ بعداً جديداً كتنافس بين السنة والشيعة ، وبين الأتراك والعرب ، وبين أمراء المواقع الساحلية والمواقع الداخلية ، وبين حلب ودمشق ، وتحولت المنطقة العربية إلى خليط مُرْبِك ومعقد من الوحدات السياسية والكيانات المتصارعة والمتصادمة .

تدهور الدولة الفاطمية وانكفاء مصر على مشكلاتها الداخلية كان عاملاً سلبيا فى هذا الصدد .

يبدو لى أننى لم أتعرف على الحدود الزمنية لهذا اللقاء ، لأنه كما يبدو هنالك عدداً آخر من الزملاء المتحدثين ، ولعل هذا يجعلنى أقفز إلى انتصار حطين الذى حدث فى عام ١١٨٧ ، ودلالته .

بداية نهاية الغزوة الاستيطانية

معركة حطين ، يقينا ، تمثل بداية النهاية للغزوة الاستيطانية الغربية ، والتى وإن كانت دوافعها دينية إلا أنها فى واقع الأمر كانت دوافع اقتصادية وتجارية وسياسية من أجل السيطرة على هذا الجزء من العالم دون أن أخوض فى مزيد من التفصيل .

إن هذه المعركة أنهت زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم فى المنطقة العربية ، لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية فى جنوب غرب آسيا وفى مصر فى مواجهة كل الأخطار .

إنها جاءت لتؤكد أن رجل العالم المريض فى العصور الوسطى قد بدأ يشفى من مرضه ويستعيد كيانه بعد أن وجد القائد الملهم الذى قاد المسيرة نحو تحقيق النصر ومن هنا عنصر القيادة التى توحد وتحرص على المصالحة بين الأطراف

وليس التصادم كعامل هام جدا فى هذا الجزء من العالم .

أبرزت هذه المعركة أيضا أهمية الوعى الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافى للوطن العربى واستثمار ميزاته بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية وليس مغنما سهلاً للطامعين، واليقين بأهمية عناصر المخطط «الجيوبولتيكى» العام الذى يحقق أمثل تعظيم لمعطيات المكان فى منطقتنا .

أيضا ، من دلالات هذه المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية ومادية بالغة الأهمية فى الربط بين أجزاء الوطن العربى . كما أبرزت أهمية أرض فلسطين التى تعد بمثابة الجسر أو المعبر العربى الذى يوصل بين جناحى العالم العربى ، ويؤدى إلى التواصل مع المنطقة الحضارية فى المحيط الهندى وفى الشرق الأقصى .

الاستعمار الاستيطانى الغربى إبان الحملات الصليبية كان استعماراً بحريا كما بينا انحصر فى السيطرة على أرض فلسطين دون غيرها ، تاركا الظهير الداخلى بكل إمكانياته متربصا لحصاره وتصفيته ، وقد أدرك صلاح الدين هذه الحقيقة إدراكا واعيا ، وحرص على أن يحرم الغزاة من موانى الساحل إبتداء من غزة حتى الاسكندرونة ، حتى يقطعهم عن الاتصال بقواعدهم فى بلادهم الأصلية .

كم كان بودى كما تصورت فى البداية ، أن تكون فسحة الوقت المتاح أطول ، ولكنى حرصا منى على الوقت بعد أن وصلت إلى هذا التحليل فى النهاية أشكركم على حسن الاستماع ، وشكراً لكم .

التجربة الصليبية فى المنظور المعاصر
للصـراع العـربى الإسـرائيـلى

بحث بقلم : الدكتور قاسم عبده قاسم

مدخـــل :

« الحروب الصليبية » عبارة ذات مدلول غامض بالنسبة للكثيرين . فالصورة التى تتمثلها عامة المثقفين فى الغرب الأوروبى والأمريكى ، ترسم مشهد فرسان بواسل ألهمتهم الحماسة الدينية ، يتحرقون شوقا لتحرير قبر المسيح ، والأرض التى خطا فوقها ، من أيدى العرب المسلمين ، ويتخيل كثيرون أن أولئك الفرسان قد فارقوا الأهل والوطن ، وانطلقوا يمتطون جيادهم الفارهة ، يشنون حربا مقدسة ضد العرب ذوى البشرة الداكنة والعزائم الخائرة ، الذين يفرون أمام الفرسان الصليبيين فى جبن وتخاذل .

هذه الصورة ليست صحيحة جملة وتفصيلا . فقد جاءت نتيجة للخيال الذى كان نصيب الحروب الصليبية منه أكبر من نصيب أية ظاهرة تاريخية أخرى . وعلى الرغم من أن هذه الصورة توافق المفاهيم الشعبية عن الحركة الصليبية فى الغرب ، فإنها تحمل من الخيال أكثر مما تحمل من التاريخ . فلم يكن الصليبيون عمالقة ، كما أن جيادهم لم تكن فارهة . إذ أنهم كانوا أبناء مجتمع يعانى من سوء التغذية بشكل عام ، وكانت خيولهم هزيلة لم تتحسن سلالاتها إلا فى وقت لاحق ، بفضل تهجينها بسلالات الخيول العربية . كذلك فإن العرب لم يكونوا جبناء أو متخاذلين . ولكن التشرذم السياسى والنزاع والتخاصم بين حكام المنطقة العربية هو العامل الحاسم فى انتصار الصليبيين . ومن ناحية أخرى ، كان الصليبيون

من أبناء الغرب الكاثوليكى قد جاءوا إلى المنطقة تحت راية الصليب حقا ، بيد أن أهدافهم لم تكن أهدافا دينية » .

والمفهوم الغربى عن « الحروب الصليبية » لم ينشأ فى فراغ ، وإنما تكون عبر سنوات طوال ، بدأت قبل دوران عجلة « الحروب الصليبية » نفسها ومازالت حتى الآن ، وخلال عشرات السنين التى قاربت تسعة قرون من الزمان ، تراكم تراث هائل بفعل الدعاية النزقة التى روجتها البابوية ورجال الكنيسة الكاثوليكية ضد العرب المسلمين من ناحية ، والأشعار والملاحم الشعبية الغربية التى تناولت « الحروب الصليبية » من ناحية ثانية ، ثم كتابات مؤرخى الحروب الصليبية من ناحية ثالثة .

وعلى الرغم من أن المنطقة العربية ، كانت هى المسرح الأساسى الذى جرت عليه أحداث هذه المواجهة الطويلة ، فإن الكثيرين من عامة المثقفين اليوم ، فى عالمنا العربى لا يكادون يعرفون شيئا عن هذا الحدث التاريخى الهام ، اللهم إلا بعض أسماء قليلة من قادة حركة الجهاد ضد الصليبين . والفكرة العامة عن الحروب الصليبية فى العالم العربى فكرة عاطفية غامضة ، تدغدغ الحواس القوية ، وتداعب مشاعر الزهو الكاذبة عن الانتصار العربى على الصليبيين وطردهم من المنطقة . بل إن كثيرا من الكتابات تختزل هذه المواجهة التى استمرت على مدى أكثر من قرنين من الزمان فى معركة حطين . ولا تشير إلى الجهد العربى المشترك والذى تخللته هزائم وانتصارات ، وهدن ومعاهدات ، وحشود ومناورات ، حتى اكتملت أسباب النصر ، فقد استمر الصراع بعد حطين أكثر من مائة سنة أخرى .

وربما يكون من أسباب هذه الصورة الضبابية للحروب الصليبية فى الوطن العربى أن البحث التاريخى ظل قاصرا ، حتى الآن ، عن تكوين صورة صحيحة بشكل عام للحركة الصليبية والنضال العربى الإسلامى ضدها . فقد كان الهدف

الأساسى للحركة الصليبية القضاء على العروبة والإسلام فى المنطقة العربية . وتحويلها إلى منطقة تابعة ومجال حيوى للتوسع والاستيطان الأوروبى . وربما يكون من أسباب هذا الغموض أيضا ، عدم محاولة معظم مؤرخى الحروب الصليبية فى العالم العربى حتى اليوم ، لدراستها من منظور معاصر ، يحاول الربط بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، وهى على أية حال ، محاولة غير تعسفية وتقوم على أسس علمية وطيدة .

لقد كانت الحركة الصليبية واحدة من القوى الكبرى المحركة فى تاريخنا وتاريخ الغرب الأوروبى على السواء ، فقد دارت معارك الحروب الصليبية على نطاق واسع ، سواء من حيث النطاق الجغرافى أو المدى الزمنى ، أو من حيث أعداد الناس التى شاركت فى هذه المعارك . كذلك فإن أخبار الحروب الصليبية وأحداثها سيطرت على مشاعر الناس وأفكارهم فى العالم العربى وفى أوروبا الغربية فيما بين سنة ١٠٩٥ م وسنة ١٢٩١ م على أقل تقدير . بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن الأفكار والقيم والمثل التى تبلورت فى أتون الحروب الصليبية ظلت ماثلة فى أذهان الناس ووجدانهم فترة طويلة من الزمان ، سواء فى الوطن العربى أو فى الغرب الأوروبى . ومع تراجع الوعى العربى من الفترة العثمانية ثم تحت الاحتلال الأوروبى . ظل الغرب الأوروبى واعيا بالتجربة الصليبية ، بحيث أن كل من كتب فى الشئون الأوروبية منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن الثامن عشر ، كان يشير بشكل أو بآخر ، إلى التجربة الصليبية على نحو ما يذكر المؤرخ الشهير جونافان رايلى سميث .

ومن ناحية أخرى كان التصدى للصليبيين ، والقضاء على الكيان الصليبى ، هو الشغل الشاغل للأمة العربية الإسلامية طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بل إن بقايا الصليبيين فى قبرص ورودس ، والمشروعات الصليبية المتأخرة ظلت

تستحوذ على اهتمام الوطن العربى ، وتستنفد جهوده طوال القرنين التاليين .

فرنسـا ما وراء البـحـار

وحتى اليوم لا يستطيع أحد فى المنطقة العربية ، أو فى الغرب الأوروبى والأمريكى أن يقف موقف اللامبالاة من تاريخ الحركة الصليبية سوى عن جهل أو جهالة . فعلى مر القرون كانوا ينظرون فى تاريخ الحركة الصليبية لكى يستلهموا الأفكار والأحداث ، ذلك أن الفرنسيين فى العصر الحالى يرون فى الحملات الصليبية وفى مملكة بيت المقدس اللاتينية أول مشروعاتهم الاستعمارية . إذ كانت غالبية جيوش الحملة الأولى والحملات التالية من الفرنج أجداد الفرنسيين ، بحيث أصبح هذا الاسم مصطلحا يدل على كل الصليبيين أيا كانت جنسيتهم . كما أن الصليبيين أطلقوا على الكيان الصليبى فى فلسطين «فرنسا ما وراء البحار» باعتباره امتدادا للوطن الفرنسى الأم ، وهى نغمة استعمارية رددها الفرنسيون بالنسبة للجزائر ولكل مستعمراتهم . كما أن الإنجليز اعتبروا أنفسهم ورثة الصليبيين حين احتلوا فلسطين سنة ١٩١٧ م ، بل إن الصهاينة عندما نهبوا الأرض العربية وأقاموا دولتهم الاستيطانية العسكرية سنة ١٩٤٨ م كانوا ينفذون مشروعا شبيها بالمشروع الصليبى ولكن فى مصطلحات صهيونية .

وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية كانت فى أساسها مواجهة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية الكاثوليكية . وعلى الرغم من أن الصراع الدامى على أرض المعركة قد دار بين أبناء المنطقة العربية وأبناء الغرب الأوروبى ، فإن عددا غير قليل من المؤرخين اليهود دخلوا فى مجال بحث تاريخ الحروب الصليبية ، من منظور الصراع العربى الإسرائيلى ، ومن منطلق يختلف عن منطلق كل الباحثين العرب والمسلمين أو الباحثين الغربيين فى أوروبا وأمريكا .

فمنذ بدأن أحداث الحروب الصليبية ــ وحتى قبل أن تبدأ ــ بدأ المؤرخون فى

الكتابة عن تلك الظاهرة التاريخية الفذة ، ولم يتوقفوا حتى الآن . فقد انكب مئات المؤرخين والباحثين يفتشون بين غبار المعارك وأشلاء الضحايا ورماد الحرائق ، بين أنات الجرحى وزفرات المهزومين ، وصليل السيوف وصيحات المنتصرين ، عن أجزاء الصورة التى يريدون استردادها من ذمة التاريخ لهذه المواجهة الطويلة المضنية بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوروبى الكاثوليكى ، وخرج سيل من المؤلفات والدراسات تدور جميعها حول موضوع واحد هو « الحروب الصليبية » .

ولسنا بصدد دراسة ببيليوجرافية لهذه المؤلفات ، ولكن مايهمنا أن نشير إلى أن الصراع العربى الإسرائيلى ، الذى اشتعل منذ النصف الأول من القرن العشرين ، ومازال نيرانه تحرق المنطقة العربية بلظاها الحارق حتى الآن ، قد فرض منظورا جديدا لدراسة الحركة الصليبية . ويقوم هذا المنظور المعاصر على أساس من أوجه الشبه القائمة بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، ومع تسليمنا بوجود الكثير من الاختلافات الناجمة عن تغير الظروف التاريخية الموضوعية ، وحركة العلاقات الدولية ، ومفاهيم علاقات القوى والتقدم العلمى والتكنولوجى المذهل ، فضلا عن الوعى بالتجربة الصليبية ـ نقول إنه مع تسليمنا بهذه الفروق والاختلافات بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، ومع إيماننا المطلق بأن التاريخ لا يعيد نفسه ولا يمكن أن يعيد نفسه ، فإننا نرى أن التاريخ لا تحكمه مجموعة من الصدف العشوائية ، وإنما تحكمه قوانين واتجاهات عامة ، تجعل من المشابهة بين الحركة الصليبية فى العصور الوسطى والحركة الصهيونية فى عصرنا الحالى مسألة تستحق الدراسة والتأمل .

الخلاص والأرض الموعودة

وفى تصورى أن المكونات الأساسية لكل من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية متشابهة ومتماثلة فى بعض الأحيان . فقد ارتبطت كل من الحركتين بفكرة الخلاص والأرض الموعودة على نحو ما ، كما أن مفهوم شعب الله المختار يمثل ركنا هاما من أركان الفكرة الصهيونية مثلما كان يشكل محور الفكرة الصليبية فى العصور الوسطى . فضلا عن أن كلا من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية كانت إفرازا لحقائق السياسة الاجتماعية/ السياسية والاقتصادية فى مجتمعات بعيدة عن المنطقة العربية .كذلك فإن القوة المسلحة كانت هى الوسيلة الفاعلة فى كلتا التجربتين ، فقد تم زرع الكيان الصليبى والكيان الصهيونى بالقوة المسلحة وعلى حساب المهاجرين العرب الذين حل محلهم مهاجرين من خارج المنطقة . وكانت حال الضعف والتفكك فى العالم العربى أكبر عوامل النجاح لكل من الصليبيين فى العصور الوسطى والصهاينة فى العصر الحديث . كما ظل الكيان الصليبى يستمد العون من الظهير الأوروبى ، وهاهو الكيان الصهيونى يعيش بفضل مساندة الظهير الأوروبى/ الأمريكى .

وإذا كان التضامن العربى ، والعمل العربى المشترك ، وتوجيه موارد الأمة العربية فى الصراع ضد الصليبيين ، هو الذى كفل نجاح الأمة العربية فى هذه المواجهة الممتدة المرهقة ، فإن شرط العمل العربى المشترك يظل مفتاح النجاح فى النضال ضد الصهيونية على الرغم من كل المتغيرات ، التى حملتها القرون التى مرت على التجربة الصليبية .

ومن ناحية أخرى ، فإن مشكلات الكيان الاستيطانى المزروع فى محيط بشرى معاد ، تظل متشابهة على الرغم من اختلاف الظرف التاريخى ، فالغربة الضاربة ونقص الموارد البشرية ، والخوف الدائم من العرب الموجودين فى الداخل وعلى

الحدود ـ كلها مشكلات عانى منها الصليبيون ويعانى منها الإسرائيليون .

هذه النقاط التى تجعل للدراسة المقارنة بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية مشروعية علمية وسياسية ، لاتغنى أو تلغى ، وجود نقاط أخرى للاختلاف والتباين ، بحكم مرور الزمن وتراكم الخبرة التاريخية لدى الجانبين . كذلك فإن هذه المشابهة لا يجب أن تشكل بالنسبة لنا من « التاريخ العبء » الذى يقعد بنا عن الحركة والعمل اتكالا على أن ماحدث فى الصراع العربى/ الصليبى لابد وأن يتكرر فى الصراع العربى الإسرائيلى ، ولكن الواجب أن تكون التجربة الصليبية نوعا من « التاريخ الحافز » بمعنى أن نعى أن تجربة المواجهة ضد الصليبيين لم تكن مجرد معركة واحدة ، كما أنها لم تكن خطا بيانيا صاعدا على الدوام . لقد كانت التجربة مريرة وطويلة تخللتها المعارك والهدن والحشد والتعبئة والدبلوماسية والهزيمة والنصر ، ولكن العالم العربى خرج منها بدرس الوحدة والعمل المشترك . فحين اتحدت الأمة العربية تحت قيادة صلاح الدين نجحت فى إحراز النصر فى حطين وتقليص المساحة الصليبية على خريطة المنطقة ، وتم استرداد القدس ، وعندما انغمس خلفاؤه من منازعاتهم وخلافاتهم فقدوا المبرر التاريخى لوجودهم ، وطال عمر الصليبيين مائة سنة أخرى ، وعندما توحدت المنطقة مرة أخرى تحت زعامة الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل ، تم القضاء نهائيا على الوجود الصليبى .

وإذ وصلنا إلى هذه النقطة نجد أنفسنا أمام سؤال يطرح نفسه حول مدى وعينا حاليا بالتجربة الصليبية فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى . والإجابة على هذا السؤال تستوجب منا دراسة المنظور المعاصر الذى يرى منه الصهاينة والعرب تجربة الحروب الصليبية ، وإدراك كل من الجانبين للخبرة التاريخية التى تحملها هذه التجربة .

لقد احتلت « قصة الحروب الصليبية » حيزا كبيرا من اهتمام المؤرخين والباحثين وعامة المثقفين منذ بداية الحركة الصليبية وحتى الآن . وبينما يبدو اهتمام كل العرب والأوروبين والأمريكين بهذه التجربة أمرا منطقيا وطبيعيا ، يثير موقف المؤرخين والباحثين الإسرائيليين عديدا من علامات التعجب والاستفهام .

الصهيـونيـة واستخـدام التـاريـخ

إذ أن اليهود لم يكونوا طرفا أساسيا فى تلك المواجهة العسكرية/ الحضارية الطويلة المضنية بين العرب والمسلمين من ناحية والأوروبين الكاثوليك من ناحية أخرى . ومن ثم فلا يمكن القول بأن الباحثين الإسرائيلين ينحازون إلى أحد الطرفين . بيد أن الموقف الإسرائيلى من تجربة الحروب الصليبية نموذج دال على مدى الوعى الصهيونى بأهمية استخدام التاريخ ضمن أسلحة الصراع ضد العرب . وهذا الموقف يخدم الأهداف الصهيونية من عدة جوانب . فهو تعبير عن الاتجاه العام للإعلام الصهيونى الذى يهدف إلى خلق مجموعة من الأكاذيب التاريخية لتحسين صورة اليهودى فى الوجدان الإنسانى العام من ناحية ، ويصور العربى فى صورة العالة الحضارية التى تعيش على منجزات اليهود من ناحية أخرى . والموقف الإسرائيلى من الحروب الصليبية لا ينفصل عن الموقف الصهيونى العام من تاريخ العرب وحضارتهم ، وفيما يتعلق بتجربة الحروب الصليبية فى المنظور الإسرائيلى المعاصر ، فإننا نلاحظ عدة مسارات أساسية لهذا المنظور :

أولا : محاولة اختلاق استمرارية مايطلق عليه الإسرائيليون « تاريخ اليهود » ليس بالمعنى الدينى ، وإنما بالمعنى الحضارى الشامل ، وهو زعم تحاول النظرية الصهيونية أن تخلقه من غيابات الوهم وضباب الأساطير والتحيز ، ولا يقوم على أى أساس علمى . ذلك أن أية جماعة دينية تعيش بين جماعة اجتماعية أكبر تعتنق دينا آخر ، لا يمكن أن تشكل تاريخا مستقلا أو حضارة قائمة بذاتها . ولايمكن لقوم

مثل اليهود ، يعتنقون دينا واحدا ، ولكنهم ينتشرون بين أمم الأرض ، يتحدثون لغاتهم المختلفة ، ويأكلون طعامهم ، ويمارسون عاداتهم وتقاليدهم ، ويشاطرونهم التطور الاجتماعى العام ـ لا يمكن لقوم هذا شأنهم أن يكونوا شعبا واحدا ، أو أن يكون لهم تاريخهم الوطنى .

ولكن الدعاية الصهيونية تحاول من خلال التجربة الصليبية تأكيد استمرارية هذا « التاريخ اليهودى » المزعوم . فالمؤرخون الإسرائيليون يحاولون تصوير المتاعب وأعمال العنف التى ارتكبها الصليبيون ضد يهود أوروبا فى أواخر القرن الحادى عشر وخلال القرنين التاليين على أنها حلقة ضمن سلسلة الظاهرة التى أطلقوا عليها « معاداة السامية » وهى الظاهرة التى نفخوا فيها كثيرا لكى يبتزوا بها ضمير العالم ويبرروا بها اغتصابهم للوطن العربى فى فلسطين .

ثانيا : محاولة سرق التاريخ العربى فى فلسطين والمنطقة العربية من خلال اختلاق دور تاريخى لليهود فى التصدى للعدوان الصليبى بشكل يوحى أن اليهود أصحاب الأرض التى اغتصبها الصليبيون ، وأنهم تعرضوا للعدوان ودافعوا عن البلاد مثلما فعل العرب المسلمون ، وهو أمر يحاولون به تأكيد حق اليهود التاريخى المزعوم فى الأرض العربية ، فضلا عن تلفيق استمرارية « التاريخ اليهودى » فى هذه المنطقة .

ثالثا : دراسة الكيان الصليبى من منظور معاصر يركز على دراسة المستوطنات الصليبية ، ومحاولة فهم المشكلات التى أدت إلى فشل الكيان الصليبى باعتباره كيانا دخيلا ، ودراسة إمكانيات النجاح للكيان الصليبى المشابه مع مراعاة الثوابت والمتغيرات فى الحركة التاريخية من ناحية ، وعلاقات القوى الداخلية من ناحية أخرى .

وبطبيعة الحال ، فإن المنظور الإسرائيلى للتجربة الصليبية ، لا يستمد قراره من

هذه المسارات الأساسية الثلاثة فقط ، وإنما هناك روافد أخرى أقل أهمية تصب فى التيار العام لهذا الموقف . وهذه الروافد تختلف أيضا ، بدرجة أو بأخرى حسب الرؤية الشخصية والخلفية الثقافية الذاتية لكل من الذين تصدوا بالدراسة والبحث فى هذا الموضوع ، فهناك من يهتم ببعض الإسقاطات المعاصرة على الكيان الإسرائيلى فى مسائل الأمن والعلاقة بالمحيط العربى المعادى والرافض للوجود الإسرائيلى ، وهناك من يحاول الترويج لبعض الأكاذيب التاريخية ، مثل الدور اليهودى فى الحروب الصليبية مثل « يوشع براور » و« جويتين » كما أن هناك من يحاول التقليل من شأن الرموز القومية فى التاريخ العربى عامة ، وفى المواجهة ضد الصليبيين مثلما تحدث بعض الباحثين الإسرائيليين عن « صلاح الدين الأيوبى » أو « السلطان الظاهر بيبرس » أو « قلاوون » أو غيرهم ، هذه كلها وأمور أخرى فرعية قد تميز باحثا صهيونيا عن غيره ، ولكنهم جميعا يصبون فى الروافد الثلاثة التى تصنع المنظور الإسرائيلى للحروب الصليبية .

وفيما يتعلق بالموضوع الأول ، أى محاولة خلق استمرارية مزعومة للتاريخ اليهودى المزعوم ، فإن أهم ما يلفت النظر ، هو أن المؤرخين الإسرائيليين يفضلون عادة أن يناقشوا موقف الصليبيين من يهود أوروبا فى إطار الموضوعات المتعلقة بتاريخ معاداة السامية وهنا ينبغى أن نناقش المسألة لنتبين حقيقة الاضطهادات الصليبية ليهود أوروبا آنذاك .

كان اليهود السفارديم الذين نزحوا من عالم البحر المتوسط ، فى العصور الوسطى الباكرة (من القرن الثالث حتى العاشر الميلادى) قد سكنوا على طول الطرق التجارية ، وقاموا بدور فى تجارة أوروبا ، مع العالم فى تلك الأثناء التى شهدت تدهور اقتصاديات الغرب الأوروبى ، بسبب الغزوات الجرمانية . ولم تكن تجارة أوروبا آنذاك سوى بنظام المقايضة . على حين كانت السلع الثمينة التى يجلبها التجار اليهود مرتفعة الثمن . ومع الانتعاش الذى بدأت أوروبا الغربية تستمتع به

منذ القرن الحادى عشر ، تراجع النشاط التجارى لليهود ، وحل محلهم الإيطاليون من أبناء جنوا وبيزا والبندقية . ثم تبعهم التجار من إقليم الراين وغيره من مناطق الغرب الأوروبى . وتقوقع اليهود فى النشاط العالمى وإقراض الأموال بأرباح باهظة ، جلبت عليهم نقمة الأوروبيين . وجاءت الحركة الصليبية وما صاحبها من تطرف دينى ، وهوس وتعصب ، لتصب المزيد من وقود السخط على نيران الكراهية ضد اليهود .

ولسنا هنا بصدد التفاصيل التاريخية للاضطهادات الصليبية ليهود أوروبا ولكننا نود أن نشير إلى حقيقة أن هذه الاضطهادات لا يمكن إدراجها فى السياق العام ، لما يسمى « معاداة السامية » لأن تلك الأحداث كانت إفرازا لظروف تاريخية خاصة بالمجتمع والعصر الذى وقعت فيه ، فلا يمكن ربط ماحدث أثناء فترة الحروب الصليبية بما حدث لليهود بعد ذلك فى ألمانيا النازية . لقد كانت الحروب الصليبية نفسها ميراثا تخلف عن القرن الحادى عشر ، قرن النمو الأوروبى الأول ، والمشروعات الاستعمارية الأولى ، فضلا عن التعصب الدينى والعنصرى . ومن ثم كان لابد للحركة الصليبية أن تصب نيرانها على أعداء الكاثوليك فى الداخل والخارج .

ولسنا نقصد الدفاع عن سلوك الصليبيين بطبيعة الحال ، ولكننا لا نستطيع أن نوافق على المحاولة التعسفية من جانب الإسرائيليين لوضع هذه الظاهرة التاريخية ضمن سياق مختلق لاستمرارية « التاريخ اليهودى » بالمفهوم الحضارى .

ومن الأمور المثيرة للانتباه فى هذا الصدد ، أن الحركة الصليبية قد استخدمت فى دعايتها القصص والأكاذيب التى روجتها البابوية والكاثوليك من الاضطهادات التى يلقاها مسيحيو الشرق على أيدى المسلمين . وانطلق الدعاة البابويون يروجون لهذه القصص ، حتى تأججت نفوس أبناء الغرب الأوروبى

بالرغبة فى قتل العرب المسلمين ، ثم امتدت هذه النزعة العدوانية لتشمل اليهود باعتبارهم أعداء المسيح والكنيسة . كذلك فإن الحركة الصهيونية ارتبطت منذ بدايتها بالعمل الدعائى والحرب الإعلامية ، إذ قال تيودور هرتزل فى واحدة من خطبه الأولى : علينا أن نخلق أكبر قدر من الضوضاء حول المشكلة اليهودية .

وقد لجأت الدعاية السياسية للحركة الصهيونية إلى استخدام التاريخ والفن لتحقيق مادعا إليه هرتزل . فالفن يتسرب إلى الوجدان بحيث يترك تأثيره التراكمى عبر الأعمال الفنية التى تواصل الإلحاح على مفهوم ما أو فكرة بعينها ، كما أن التاريخ يحمل مصداقية ذاتية ، تجعل من إعادة كتابته لتحسين صورة اليهودى وتشويه صورة العربى أمرا غاية فى الأهمية بالنسبة للدعاية الصهيونية ، وإذا كان الفن والتاريخ من أهم وسائل الدعاية للحركة الصهيونية . فإننا يمكن أن نفهم حقيقة الموقف الإسرائيلى من استغلال العنف الصليبى ضد يهود أوربا فى أثناء فترة الحروب الصليبية .

وسرقة التاريخ العربى

أما الموضوع الثانى ، وهو محاولة سرقة التاريخ العربى من خلال اختلاق دور تاريخى فى المنطقة العربية ضد الهجوم الصليبى ، فهو أمر يتصل بالدعاية السياسية للحركة الصهيونية أيضا . فالمؤرخون الإسرائيليون (من أمثال جويتين ويوشع براور ، وميرون بنفستى) يتحدثون عادة عن اليهود الذين قتلهم الفرنج الصليبيون فى فلسطين وهم يدافعون عن مدنهم وقراهم ، ويركزون الحديث على يهود مدينة بيت المقدس ، ولكن هذا القول مردود بعدد من الحقائق التاريخية الواضحة :

١ ـ أولى هذه الحقائق أن اليهود فى فلسطين عند قدوم الحملة الصليبية الأولى ، ومنذ القرن الميلادى الأول ، لم يكونوا يعيشون ضمن كيانات سياسية

مستقلة ، ولكنهم عاشوا فى المنطقة العربية كلها باعتبارهم « أهل ذمة » كما أن أعدادهم فى فلسطين كانت ضئيلة إلى حد كبير بالمقارنة مع أعدادهم فى مصر آنذاك . وبعبارة أخرى فإن هذا الوضع التاريخى لم يكن يسمح لهم بأى دور عسكرى .

٢ ـ كما أن القول بأن اليهود تصدوا لمقاومة العدوان الصليبى مردود ، لأن العمل العسكرى آنذاك ، كان وقفا على المسلمين فقط . وإذا كانت المصادر التاريخية قد حدثتنا عن بعض المهارات الفردية من جانب المسيحيين الشرقيين فى أعمال المساعدة ضد الصليبيين ، فإن هذه المصادر التاريخية نفسها لم تذكر لنا مثلا واحدا على قيام اليهود بأى عمل عسكرى .

٣ ـ من ناحية أخرى لم يكن يهود ذلك الزمان أهل قتال . وهذه حقيقة على جانب كبير من الأهمية ، لاسيما إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الجنود والمقاتلين فى تلك العصور كانوا يتفرغون للحياة العسكرية ، بحيث يمضون حياتهم فى التدريب على القتال ، أو فى ميادين القتال الفعلى ، نظرا لما كان يتطلبه القتال من لياقة جسمانية عالية ومهارات حربية . ولم يكن اليهود آنذاك من ضمن مصادر التجنيد التى كانت الجيوش تستمد جنودها منها .

٤ ـ وقد أورد لنا الرحالة اليهودى الأسبانى « بنيامين التطيلى » الذى زار المنطقة فى زمن (نور الدين محمود) ـ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ـ معلومات طيبة عن أعداد اليهود والحرف التى احترفوها فى فلسطين . وتكشف أعدادهم الضئيلة والمهن التى عملوا بها عن أن ظروفهم كانت متدنية بالقدر الذى يجعلنا نرفض قبول مثل هذا التزييف للواقع التاريخى .

٥ ـ ومن اللافت للنظر أيضا أن حركة المقاومة التى بدأها العرب المسلمون ضد الفرنج الصليبيين ، لم تجتذب انتباه اليهود فى المنطقة العربية ، ولم يقوموا بأى دور ملحوظ فى الصراع السياسى العسكرى طوال مائتى سنة تقريبا . وهو أمر يتمشى مع

حقيقة حجمهم العددى ، ووضعيتهم الاجتماعية فى الوطن العربى آنذاك . حقا لم تفرق سيوف الصليبيين بين اليهود والمسلمين فى مجزرة بيت المقدس ، ولكن بينما تصدى العرب المسلمون لمقاومة الوجود الصليبى بشكل إيجابى ، كان الموقف اليهودى سلبيا تماما . وهذا الدور السلبى لليهود لا يعطى للمؤرخين الإسرائيليين الحق فى المساواة بين دور العرب المسلمين (والمسيحيين أيضا) ودور اليهود فى النضال ضد الصليبيين .

٦ ـ وقد ظل العرب على مقاومتهم العنيدة قرابة قرنين من الزمان حتى تم لهم طرد الصليبيين واسترداد فلسطين . وهو أمر يختلف عن موقف الأقلية اليهودية ضئيلة العدد ، التى لم يكن يزعجها فى استبدال حاكم بآخر ، سوى احتمال أن يكون الحاكم الجديد أقل تسامى .

وعلى أية حال ، فإن محاولة سرقة التاريخ العربى ـ بعد اغتصاب الأراضى العربية ـ من خلال الحروب الصليبية ، ليس أمرا جديدا أو غريبا على الاتجاه الفكرى للحركة الدعائية الصهيونية ، ذلك أن كتاب الأدب والتاريخ اليهود منذ القرن التاسع عشر راحوا يعيدون كتابة التاريخ . ولم يقف بهم الأمر عند مجرد تسجيل الوقائع من وجهة نظرهم ، بل بدأوا فى عملية تشويه منظمة للتاريخ العربى . ولم تقتصر حركة التأليف التاريخى لديهم ، على الدفاع عن صورتهم من جانب وتشويه صورة العرب من جانب آخر ، وإنما اتخذت لنفسها بعدا ثالثا ، يحاول إيجاد استمرارية تتمثل فى الربط واختلاق التتابع بين الأحداث المتفرقة والشذرات المتباعدة فى التاريخ . هذه الحركة تهدف إلى إحياء مايسمى (الوعى القومى اليهودى) والدفاع عن الطابع القومى اليهودى على الرغم مما هو معلوم بشأن الاقليات اليهودية ، فى شتى أنحاء العالم ، لم تكن تملك لغة خاصة ، أو طابعا قوميا خاصا ، وإنما كانت لغاتها هى لغات المجتمعات التى عاشت فى رحابها ، أو خليطا من لغة المجتمع وبعض الكلمات والمصطلحات العبرية .

وبعد نجاح الحركة الصهيونية فى سرقة الوطن العربى فى فلسطين ، وزرع الكيان الإسرائيلى ، بدأ الإسرائيليون محاولة سرقة التاريخ والتراث العربى . بل إن المشكلة

تعدت حدود البحوث والدراسات التى يمكن الرد عليها وتفنيدها . لقد سرق اليهود الصهاينة الوطن الفلسطينى وراحوا يختلقون لأنفسهم وجودا تاريخيا على الأرض ذاتها وامتدت أياديهم تسرق التراث والفن والتاريخ والتقاليد العربية ثم تنسبها إلى الإسرائيليين. فهناك على سبيل المثال مركز إسرائيلى للدراسات والبحوث الفولكلورية تابع للجامعة العبرية فى القدس. وهو يهتم بجمع وتسجيل مايسمى (التراث الفولكلورى الإسرائيلى) ولهذا المركز أرشيف يضم آلاف النصوص الشعبية ، وهو أمر يثير الدهشة والتساؤل ، فكيف يمكن أن يوجد مايسمى بالفولكلور الإسرائيلى ، ولم يكن هناك قبل سنة ١٩٤٨ شعب اسم الشعب الإسرائيلى . ذلك أن الحقيقة العلمية تفترض أنه لكى يكون لشعب من الشعوب تراث من أى نوع ؛ لابد أولا من وجود هذا الشعب على أرض يعيش عليها ويتفاعل مع معطياتها وتحدياتها ، ولغة واحدة يستطيع أن يبدع فيها ، وأن يعبر بها عن نفسه. ومن الثابت تاريخيا أن ذلك لم يحدث بالنسبة لليهود . فعلى سبيل المثال ، يطلق مصطلح « الأدب العبرى » على أدب لم يدون فى وطن بعينه أو لغة بعينها ، بل دون فى مختلف بلدان الشرق والغرب قديما وحديثا ، وبلغات مختلفة ، والقليل منه هو الذى وصلنا فى اللغة العبرية سواء قبل الميلاد أو بعده .

وما يقال عن اللغة العبرية يقال أيضا عن « الشعب اليهودى » الذى يتكون من جماعات تنتسب إلى قوميات مختلفة وثقافات متعددة ، ومراحل حضارية متفاوتة لا يجمع بينها سوى الدين اليهودى الذى لا يمكن أن يكون أساسا ، وحده ، لقيام الأمة ووجود الشعب لاسيما إذا وضعنا فى اعتبارنا الخلافات والفروق القائمة بين المذاهب الدينية اليهودية وإذا سلمنا بوجود تراث دينى مشترك لليهود ، فإننا لايمكن أن نوافق على أنه كان ليهود العالم تراث شعبى دنيوى واحد منفصل عن تراث الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها .

وعلى أية حال ، فإن الإسرائيليين ، يبذلون جهدا كبيرا من أجل إيجاد ذاتية لهم وتراث أو ثقافة ذاتية تجمعهم . وهم فى هذا السبيل يسرقون التراث العربى وينسبونه لأنفسهم ، وبين يدى العالم الآن آلاف الدراسات عما يسمونه

« الفولكلور اليهودى » و « الميثولوجيا اليهودية » و « الفن اليهودى » و « العادات والتقاليد والاحتفالات اليهودية » وغيرها مما ينسبونه إلى إسرائيل والشعب الإسرائيلى .

بل إن الإسرائيليين يطرحون فى أسواق العالم الملابس العربية المطرزة والحلى والجواهر ، والمشغولات المعدنية والخشبية الدقيقة التى اشتهرت بطرازها العربى ، فضلا عن أصناف الحلوى والمأكولات العربية ، ويدعون أنها جميعا من نتائج التراث الشعبى الإسرائيلى .

وتأتى سرقة الآثار العربية من المناطق التى يحتلها الإسرائيليون ، لتكون برهانا ماديا على جريمة سرقة التاريخ العربى التى يريدون بها تدعيم سرقتهم للوطن الفلسطينى . فقد نشطت سرقات الآثار نشاطا كبيرا مع دخول الجيوش الصهيونية إلى المناطق التى احتلوها فى فلسطين وسيناء وسوريا ولبنان بشكل يهدد السمعة التى تتمتع بها المنطقة العربية فى هذا المجال .

بل إن المشكلة أفدح وأخطر من أن نغض الطرف عنها . فقد يأتى يوم ينظر فيه العالم إلى الوطن العربى ، على أنه يعيش عالة حضارية على تراث إسرائيل وإبداع الشعب الإسرائيلى المستمر المتواصل عبر الزمان والمكان كما يزعمون . والإسرائيليون لا يدخرون وسعا فى هذا . وموقفهم من الحروب الصليبية ومحاولة اختلاق دور إيجابى ليهود العالم العربى فى مواجهتها ، جانب واحد من جوانب متعددة فى هذه المحاولة التى ينبغى التصدى لها بالعقل والعلم والصبر .

ومن المثير حقا أن الإسرائيليين يقومون بالإعداد للذكرى الثمانمائة لمعركة حطين ، وقد أعدوا لهذا الاحتفال الذى تقيمه أكاديمية العلوم التاريخية فى تل أبيب ، بدعوة عدد كبير من المؤرخين والأساتذة والباحثين من شتى أنحاء العالم . وقد وجهت الدعوة إلى عدد من الأساتذة والمؤرخين المصريين كنت واحدا منهم ، ولكن أحدا لم يرد على هذه الدعوة بطبيعة الحال .

والاستفـادة من التجـربة الصليبيـة

أما الموضوع الثالث فى الموقف الإسرائيلى من « التجربة الصليبية » فهو نابع من إدراكهم لحقيقة الوظيفة الحضارية للتاريخ ، باعتباره علما فى خدمة الجماعة الإنسانية . فهم يدرسون الحركة الصليبية مع التركيز على تجربة الاستيطان الصليبى فوق أرض فلسطين العربية ، وطبيعة علاقات الصليبيين بالمحيط البشرى العربى ، وعوامل النجاح التى حققت لهم الانتصارات الأولية ، ثم عوامل الاخفاق والفشل التى أدت إلى رحيل الصليبيين من المنطقة العربية . وإذا كنا نؤمن إيمانا قاطعا بأن التاريخ لا يعيد نفسه ، فإننا ندرك أيضا أن الظروف التاريخية المتشابهة يمكن أن تؤدى أيضا إلى نتائج متشابهة .

هذه بشكل عام ، هى المسارات الأساسية الثلاثة للمنظور الإسرائيلى المعاصر لتجربة الحروب الصليبية . ويتجسد هذا المنظور الإسرائيلى بشكل واضح فى كتابات الأستاذ « يوشع براور » أستاذ تاريخ العصور الوسطى فى الجامعة العبرية بالقدس ، وهو صاحب اسم مشهور لامع بين المتخصصين فى دراسة تاريخ الحركة الصليبية . وهو باحث ممتاز متمكن من أدوات البحث ، وعلى دراية واسعة بمصادر تاريخ الحروب الصليبية والدراسات الحديثة التى تناولتها . وهو يهتم فى دراساته عموما بمشاكل الاستيطان الصليبى والموارد البشرية ، والمقومات الاقتصادية والاجتماعية للوجود الصليبى فى المنطقة ، فضلا عن مشاكل الغربة الحضارية والتباين الثقافى بين الكيان الاستيطانى والمحيط البشرى العربى . ويؤكد يوشع براور ماسبق أن قلناه عن المنظور الإسرائيلى للتجربة الصليبية . فهو يقول فى معرض الحديث عن فلسطين والأماكن المقدسة : إن القوة المسلحة هى التى فرضت حكم الأمر الواقع بالنسبة للرومان قبل الميلاد ، ثم البيزنطيين بعد المسيحية ، وبعدهم المسلمون فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) . ثم يقول « ... ولم يزل هناك مطالب آخر بالأرض المقدسة لا يملك قوات عسكرية أو موارد امبراطورية ، ومع ذلك فهو أشد إصرارا وثباتا فى دعواه ، ألا وهو اليهودى الذى يعبر ثلاث مرات يوميا عن حنينه إلى الأرض المقدسة وعاصمتها ، وعن أمله

فى الخلاص والعودة . ولم تكن دعواه حقا مكتسبا بالتقادم ، كما أنها لم تكن دعوى قابلة للتحويل أو النقل ، فقد ربط الدين الأمة المشتتة على مدى أكثر من ألف سنة تحقق نبوءة نهاية العالم بالنبوءة القائلة بجمع الشتات والعودة إلى الوطن . . . » .

أليسّت هذه دعاية صهيونية صريحة ؟ فالذين يبحثون عن صلة ترابط الحركة الصهيونية بجذور التاريخ وأعماق الماضى يرون فى الحركة الصهيونية رمزا لنهاية الآلام ، ويرون فيها أيضا تحقيقا للتحرر اليهودى من حياة الشتات ، ونهاية لحياة النفى ، وبداية للاستقرار . وهذا كله يعنى أن فكرة الصهيونية فى تصورهم امتداد لفكرة الخلاص اليهودية . وقد وصفها البعض بأنها حركة خلاص علمانية فى الأيديولوجية وفى وسائل التنفيذ ، وهو ما يعنى أن زعماء الصهيونية قد عمدوا إلى استغلال فكرة الخلاص الدينية اليهودية وحاولوا تنفيذها بوسائل علمانية عن طريق استغلال الظروف السياسية ، وتطبيق سياسة الاستيطان العسكرى . ولم يكن يوشع براور فى كلماته التى أوردناها سوى أحد الذين يعزفون هذه النغمة المتكررة عن حنين اليهود إلى العودة إلى فلسطين .

* * *

هذه هى الخطوط العامة للمنظور الإسرائيلى لتجربة « الحروب الصليبية » . فماذا عن المنظور العربى للتجربة ذاتها ؟ ! !

بداية يجب أن نقرر بأسف ومرارة ، أن موقف العقل العربى المعاصر من التجارب التاريخية التى يحفل بها تراث أمتنا موقف يفتقر كثيرا إلى مقومات الوعى بالوظيفة الاجتماعية/ السياسية لعلم التاريخ . وعلى الرغم من بعض الكتابات الهامة لمفكرين عرب فى المشرق والمغرب تكشف عن درجة عالية من الوعى والقدرة على استخدام الرصيد التاريخى لحساب الحاضر والمستقبل ، فإن هذه الكتابات تظل جهودا فردية متناثرة هنا وهناك أشبه ماتكون بالزهور البرية ، جميلة وأخاذة حقا ، لكنها لم تحظ بالرعاية الواجبة من المؤسسات المسئولة عن إعادة قراءة التاريخ العربى ، بشكل يخرج به من نطاق «الارث» إلى مجال التراث ويحوله من نمط

« التاريخ العبء » إلى نوع من « التاريخ الحافز » .

وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزته الدراسات التاريخية فى الوطن العربى بشكل عام ، فإن المؤرخين المحترفين من أساتذة الجامعات والباحثين مايزالون يرون فى التاريخ علما يتصل بالماضى وعلاقته بالحاضر والمستقبل محدودة وضيقة على أحسن الفروض . ومن المثير حقا أن عددا من أهم الكتابات التى رأت فى التاريخ علما يتصل بالحاضر والمستقبل كانت من نتاج نفر من الناس يمكن إدراجهم فى نطاق المؤرخين الهواة ممن لم يتخذوا من البحث التاريخى حرفة ومهنة ومعاشا . ومن ناحية أخرى ، فإن الغالبية الكبرى من هذه الكتابات كانت فى مجال التاريخ الحديث والمعاصر. أما التاريخ القديم ، وتاريخ الفترات التالية فى ظل الحضارة العربية الإسلامية ، فقد ظل البحث والكتابة فيها بهدف التفسير والفهم ، وأحيانا اتخذت هذه الكتابات صفة قصصية سردية ، كما اتخذت فى أحيانا أخرى شكلا أقرب مايكون إلى قصائد الفخر العربية الشهيرة .

كذلك فإن بعض الذين أدركوا أن التاريخ علم يتصل بالماضى فى موضوعاته ولكنه يتصل بالحاضر والمستقبل من حيث هدفه ، استخدموا مواهبهم فى محاولة إعادة بناء تاريخ أمتنا العربية على أسس جديدة من التفسير التاريخى ، ووفقا لمنهج أو آخر من مناهج التفسير التاريخى التى أفرزها تقدم الدراسات التاريخية فى العصر الحالى . وظلت كتاباتهم أشبه بجزر صغيرة عامرة فى بحر الظلمات . ولم تقم حتى الآن محاولة جماعية لإعادة فهم التاريخ العربى .

واللافت للنظر حقا أننا نكتب تاريخنا بشكل فردى يبعثر الجهود ويبعدها عن مسارها الذى يجب أن يجعل من التاريخ سلاحا من أسلحة النضال العربى صوب التقدم والحرية ويخرج بنا من إطار التبعية الفكرية إلى نطاق الإبداع الفكرى والتطور الثقافى وأزمة الدراسات التاريخية فى عالمنا العربى أزمة واضحة تتمثل فى أننا نتخذ من الثقافة الأوربية ثقافة مرجعية لنا بغض النظر عن صلاحية ، أو عدم صلاحية إفرازاتها فى مجال التاريخ بالنسبة لنا . ومن أهم مظاهر هذه الأزمة

مشكلة تقسيم العصور التاريخية ، فنحن نستخدم التقسم الأوربى الثلاثى (قديم . وسيط . حديث) على الرغم من أن العمق التاريخى لأمتنا العربية ضارب فى باطن الزمن بمسافة أبعد كثيرا من العمق التاريخى لأوربا . كما أن مشكلات تطوير المنهج ماتزال تعوق البحث التاريخى فى عالمنا العربى بالرغم من بروز عدد متزايد من الباحثين والمؤرخين المرموقين . ولعل الوعى بهذه الأزمة هو ما حدا بهيئات كثيرة فى الوطن العربى إلى الدعوة لإعادة قراءة وكتابة التاريخ العربى .

وبطبيعة الحال ، فإن المنظور العربى « لتجربة الحروب الصليبية » تشوبه هذه النواقص جميعا . ذلك أن الوعى العام بالحروب الصليبية يكاد يكون معدوما ، ولست أغالى إذا قلت إن عامة المثقفين يتمثلون صورة ضبابية لهذه التجربة التاريخية الفذة . وعلى الرغم من أن التجربة الصليبية يمكن أن تخرج لنا مجموعة من الرموز القومية ترصع تاريخنا فى هذه المواجهة ، فإن غالبية الكتابات العربية عن الحروب الصليبية تنحو صوب الدراسة الأكاديمية الضيقة للظاهرة ، التى تبدو فى كثير من المؤلفات العربية وكأنها معلقة فى هواء التاريخ لا تربطها صلة ما بالماضى أو الحاضر أو المستقبل ، وفى أحيان أخرى تتخذ الكتابة العربية فى فترة الحروب الصليبية شكلا عاطفيا يميل إلى اختزال التجربة فى عدة أسماء وعدة مواقع .

على أن أهم مايلفت النظر أن كثيرا من الدراسات العربية التى خرجت إلى الوجود فى فترة صعود المد العربى ، والاحساس المتنامى بالقومية العربية وضرورة العمل العربى المشترك ، قد حملت فى مقدماتها أو عناوينها على الأقل مايشير إلى إدراك مثقفيها بالعلاقة بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية بيد أن الأمر توقف عند هذا الحد .

وإذا كانت الدراسة الأكاديمية للحروب الصليبية فى الوطن العربى اليوم قد كشفت عن تصاعد الاهتمام بهذه الظاهرة من ناحية ، كما أدت إلى مزيد من الفهم لجوانب الحركة الصليبية وأبعاد الاستيطان الصليبى من ناحية أخرى ، فإن الذين حاولوا الربط بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية أو حاولوا دراسة الحركة

الصليبية من خلال المنظور المعاصر للصراع العربى الإسرائيلى قليلون إلى حد الندرة .
وإذا كان الدكتور/ قسطنطين زريق قد حاول سنة ١٩٥٩ م إحصاء ما ساهم به المؤرخون العرب فى تاريخ الحروب الصليبية . فإن مرور أكثر من خمسة وعشرين سنة على ما كتبه كانت كافية لأن تخرج المطابع عددا أكبر كثيرا مما سبق نشره بحكم تزايد إقبال المؤرخين العرب على دراسة الظاهرة . والمتأمل فى عناوين الدراسات والبحوث التى تناولت الحروب الصليبية بأقلام المؤرخين العرب لن يجد من ربط هذه الدراسة بمنظور الصراع العربى الإسرائيلى . وهو أمر يجب أن ننتبه له بشدة .

بل إن المثير حقا أن بعض الفصائل العاملة فى الحقل السياسى تحت راية الدين تستخدم مصطلح « الصليبية » استخداما يمسخ معناه ، ويجرده من مدلوله التاريخى الرامز إلى تجربة ثرية من النضال والعمل العربى المشترك ضد عدو من خارج المنطقة . فهذا الفريق السياسى العامل تحت راية الإسلام يستخدم مصطلح « الصليبية » للتهوين من شأن خصومه ومنافسيه السياسيين فى الداخل ، بل إن بعضهم يستخدمها فى إطار فج للنيل من توجهات سياسية وقوى اجتماعية مغايرة .

هكذا ، إذن ، نرى أن المنظور العربى للحروب الصليبية لا يعالج هذه التجربة التاريخية الفذة من خلال مفاهيم التجربة التاريخية التى يحياها العرب فى مواجهة العدوان الصهيونى . بل إن قطاعات كبيرة من الجماهير العربية تكاد تسقط التجربة برمتها من رصيدها التاريخى . وفى تقديرى أن هذه الحال تحتاج إلى ما هو أكثر من مجرد الرصد والتأمل ، فعدم الوعى بالرموز القومية فى تراثنا التاريخى تجعل من هذا التراث شيئا أشبه بالارث الذى يؤول إلى وارث يبدده سفها وحمقا .

وفى تصورى أن الاهتمام العربى الواسع بالاحتفال للذكرى الثمانمائة لمعركة حطين يمكن أن يكون نقطة بداية صحيحة لإعادة قراءة تاريخنا العربى قراءة صحيحة تستخرج الرموز القومية ، وتبلور الدروس التاريخية التى تجعل من العمل العربى المشترك مفتاح كل نصر ، وسر كل تقدم أحرزته أمتنا العربية على امتداد تاريخها الطويل .

أسباب الانتصار العظيم في معركة حطّين

كلمة الأستاذ حسين مطهر - اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا » ، والصلاة والسلام على سيد الأبطال والمجاهدين ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ، وعلى من نهج نهجهم ، وسلك سبيلهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد .

فإن مما يحز فى القلب ويترك فى النفس أسى ولوعة أن نجد من هذه الأمة وهى منبع الرسالة الخالدة الحقة ، نجد من يعتريهم اليأس ، ويستحوز عليهم القنوط ، اعتقاداً منهم أن لاسبيل لإصلاح الأمة الموحدة فى العصر الذى نعيش فيه ، وأن لا أمل إلى إستعادة مجد أبنائها واسترجاع عزتها وكرامتها ، لقد أصبحنا نسمع على ألسنة من ينتمون إلى العلم والمعرفة أن لاسبيل إلى الإصلاح إلا أن يُرسل الله عز وجل لهذه الأمة من ينجدها كالمهدى المنتظر أو ينزل عليها من السماء عيسى عليه السلام ، يملأ الدنيا إيمانا وعدلاً كما ملئت كفرا وجورا ، أو من خلال شعارات جوفاء ومستوردة .

إن هذه الطائفة اليائسة عندما تتبنى هذه الوجهة من اليأس والقنوط إنما تدلل على هلاكها قبل كل شىء . وليس على هلاك الأمة الصادقة ، الصابرة ، المحتسبة . يقول الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ

« من قال هلك المسلمون فهو أهلكهم »

من كان يظن أن تقوم لهذه الأمة قائمة لما استولى الصليبيون على كثير من

بلدانها والمسجد الأقصى بالذات مايقرب من مائةعام . من كان يظن أن هذه البلاد ستحرر على يد البطل المغوار صلاح الدين فى معركة حطين الحاسمة ، ويصبح لهذه الأمة من الكيان والقوة والعزة ماشرف التاريخ . ومن كان يظن أن تقوم لهذه الأمة ، وهى خير أمة أخرجت للناس ، أن تقوم لها قائمة لما خرب المغول والتتار العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، وفتكوا فى الأنفس والأعراض فتكا ذريعا ، حتى قيل إن جبالا شامخة أقامها هولاكو- وهذا معروف- من جماجم أبناء هذه الأمة . من كان يظن أن بلاد هذه الأمة ستحرر على يد البطل المقدام « قطز » فى معركة « عين جالوت » الحاسمة أيضا . ويصبح لهذه الأمة من المجد والعظمة والرفعة ماتفخر به الأجيال .

إن التفاؤل بالنصر هو مقدمة للنصر وأن القوة المعنوية فى كل أمة هى التى تدفع شبابها ورجالها إلى تحقيق المزيد من الانتصارات الخالدة .

إننى أقدر تقديراً عاليا اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية والأسيوية . على هذه المبادرة الحيوية الهادفة التى أرادت ومن خلال هذه الندوة أن تخلق التفاؤل وتجدد الأمل فى نفس أبناء هذه الأمة الخالدة .

إن الانتصار العظيم الذى تحقق فى معركة حطين لم يكن لمجرد رغبة وقتية أو حادث عابر ، بل كان نتيجة عوامل عدة ، من أهمها فى نظرى :

١ - أن الله سبحانه وتعالى قيد لهذه الأمة رجلا صادقا ، ورعا ، تقيا ، وليس المهم هنا الحسب أو النسب ، كما يقول البعض ، أو نختلف أهو عربى أو هندى ، لكن الرجل صادق تقى ، ورع ، حقق لهذه الأمة هدفها ووحدها فسارت فى خط وطريق واحد .

٢ - القضاء على الخلافات وأسبابها ، وإحلال محلها المحبة والإخاء والإيثار .

٣ - توحيد قلوب الناس وأهدافها ، فصاروا أمة واحدة على قلب رجل واحد .

٤ ـ توحيد البلاد سياسيا ، وتوحيد القيادة ، حتى يكون المفهوم واحدا والفكر واحدا والاتجاه واحدا .

٥ ـ الوقوف صفا واحداً فى وجه المؤامرات الداخلية والخارجية والقضاء عليها ومنع أى خروج عن الصف أو مساس بالعقيدة وسلوكياتها .

٦ ـ كان للقتال هدف هو إعلاء كلمة الله ..

٧ ـ قضية التحرر كانت قضية الأمة بأكملها .

٨ ـ الإعداد والتخطيط الجيدين ، والقيادة الروحية المثالية ذات القدوة الحسنة .

هذه هى أهم العوامل ، كما قلت فى البداية ـ فى نظرى ، التى أضاءت الطريق ، وكانت سببا إيجابيا ودافعا قويا لتحقيق النصر فى معركة حطين الحاسمة ، ويمكن القول إن هذه العوامل هى بمثابة الدروس التى يجب الاستفادة منها .

إن تاريخ هذه الأمة حافل بالأحداث ، وليست هذه أول ولا آخر حدث .

إن تاريخ هذه الأمة حافل بالأحداث البارزة ، الساطعة ، التى يجب أن نتذكرها دائما وندرسها دراسة وافية ، نربى بها النفس ، وبالتالى الأجيال ، بهدف العودة إلى الحياة الصحيحة .. حياة القوة الإيمانية ، حياة وحدة الصف والكلمة .. حياة العزة واستقلال الذات .

البعض يحصر الصفات أو السلوكيات الحميدة فى شخصية القائد ذاته ، دون التنويه أن هناك العقيدة السمحاء هى التى ربت وتربى النفوس ، وعلمت وتعلم أبناءها وقادتها تلك الصفات والسلوكيات الحميدة . فالسماحة والعطف ، وحسن القيادة ، والرعاية ، والصدق والوفاء ، وأمانة الكلمة ، والشجاعة والشورى وغير ذلك ، كلها من تعاليم الإسلام . وبدون هذه الصفات نخالف تعاليم الإسلام روحا ونصا .

أخيراً ، إن التضامن المشهود ، ووحدة الصف لهذه الأمة من أبرز عوامل القوة والنصر فى جميع جوانب الحياة السياسية ، الاقتصادية ، الاجتماعية . فما أن تتوفر لنا هذه العوامل وتتحقق الوحدة حتى نعود إلى سالف مجدنا . كلنا أمل وتفاؤل بأن هذا اليوم ليس ببعيد ، وبهذا أكتفى ، مؤكداً على أننى فوجئت باسمى فى قائمة المتحدثين ، وأرجو من الله أن يثبت بالحق خطانا ، ويبارك أعمالنا ويوحد صفنا ، ويقوى عزائمنا ، وإنه على كل شىء قدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

القسم الثالث

حطِّين
ودُروس المستقبل

حوار حول المستقبل العربي
في ذكرى حطين
وصلاح الدين

بقلم: محمد حسنين هيكل

حضرات السيدات والسادة :

مرة ثانية خلال أقل من عام أجدنى فى نفس هذا المكان ، مدعوا من نفس هؤلاء الأصدقاء ـ اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية والأسيوية بالاشتراك مع مركز الدراسات العربية بلندن ـ للحديث فى نفس الموضوع وإن اختلف العنوان ، واختلف الزمان ، ففى الخريف كانت ثلاثين سنة بعد السويس ، واليوم ثمانمائة سنة بعد الحروب الصليبية .

كأننا على نفس المواقع نفتش حيارى عن أنفسنا ، وندور ملهوفين حول تخوم أرضنا ، ونخوض فى أعماق الأعماق من وجداننا نسائل التجارب ونلتمس إليها أن تبوح وأن تفضى وأن تلهم .

ولايد أن أشكر للداعين كرمهم وإن كان لايد أن أعترف أننى فى دعوة الخريف الماضى ـ عن السويس ـ أقبلت ـ لكننى فى دعوة هذا الصيف ترددت .

ما أن سمعت بعنوان الموضوع حتى استهولت مجرد إيقاعه .

٨٠٠ سنة ـ حطين ـ صلاح الدين والعمل العربى الموحد .

هذا كله الآن ، فى هذه الأوقات ؟ فى هذه الظروف ؟

لو أن هذا العنوان طرح فى الثلاثينات وبداية الأربعينات من القرن الماضى لتجاوزت ـ فمن حقنا أن نحلم .

ولو أن هذا العنوان طرح فى الخمسينات وبداية الستينات من هذا القرن

الحالى لقلت مع غيرى ــ ولم لا ؟ من حقنا أن نستعيد الحلم .

أما الآن فإن مجرد النطق بالعنوان يبدو سرابا وضبابا ، طيفا غامضا أسطوريا ضائعا وراء اللامرئى ووراء اللامعقول .

لقد كانت أحاديثنا فى هذه الندوة بالأمس كلها عن الحروب الصليبية وعن حطين بعد ثمانمائة سنة ، ولقد درسنا وتذاكرنا وتثبتنا من دروس لم يختلف عليها أحد :

- إنه ليس هناك سلام بدون قوة ــ بالمعنى الشامل للقوة .
- إن احتلال الأراضى لايقضى على الأمم ولكن يقضى عليها احتلال إرادتها ، فطالما بقيت للأمم حقوق حريتها فإن حقوق أراضيها عائدة إليها مهما استكبرت قوى العدوان .
- إن أى أمة من الأمم تنتصر بوحدتها ولاتنتصر بغيرها ، وذلك ينطبق على الأمة العربية كما ينطبق على غيرها من الأمم ، وفى حالة الأمة العربية فإن انتصارها كان دائما مرهونا بوحدة إرادتها على هذا القوس الضخم الممتد من الفرات وما حوله إلى النيل وما وراءه من غرب آسيا إلى شمال أفريقيا .

الدروس أمامنا واضحة قاطعة بينة ــ فيما يتعلق بحطين وصلاح الدين .

لكن الأمر الواقع أمامنا محير ومرهق ومؤلم ــ فيما يتعلق بالجزء الثانى من عنوان هذه الندوة ــ وهو : العمل العربى المشترك .

أسألكم هل يمكن أن تتصوروا معى مواطنا مصريا نذهب إليه فى الأوضاع الراهنة لنقول له : أملك هو العمل العربى الموحد ؟ ــ ذلك طريقك للخلاص !

سوف يشعر هذا المواطن أننا بهذا القول نخدعه .

إن بعضنا ــ وأنا بينهم ــ ينتقدون معاهدة كامب دافيد ويقفون ضدها على طول الخط ، ولكن دعونا لاننسى ــ وإذا لم نقلها هنا فأين نقولها ؟ ــ إن

الطريق إلى كامب دافيد لم يكن كله خطأ أو خيانة وإنما كانت مسافة منه كبيرة يأسا وأسى ـ وبالتالى انسياقا مع ماتجىء به الرياح !

لقد حدث ذلك حين أحس الشعب المصرى فى أحيان كثيرة أنه وحده حربا وقتالا وأن غيره يتفرج على تضحياته وأحيانا يعايره بها .

أسألكم هل يمكن أن تتصوروا معى مواطنا عراقيا نذهب إليه الآن لنقول له : أملك فى العمل العربى الموحد ؟ ـ ذلك طريقك لمواجهة الخطر !

سوف يشعر هذا المواطن العراقى أننا بهذا القول ـ أيضا ـ نخدعه .

ها هو منذ سبع سنوات يحارب ويقاتل وغيره يتفرج ويتشفى بل يفعل أحيانا ماهو أسوأ فبعض النار التى لحقت بغداد حملتها صواريخ قدمتها مصادر عربية !

أسألكم هل يمكن أن تتصوروا معى مواطنا فلسطينيا فى الضفة الغربية أو القدس أو غزة نذهب الآن لنقول له : أملك فى العمل العربى الموحد ـ ذلك طريقك إلى الوطن السليب !

منذ سنة ١٩٤٨ وهو يسمع نفس الكلمات ولقد لاح له أمل فى بعض اللحظات لكن الآمال تبددت ولم يتبق إلا غضب شعب لايريد أن يلتفت إليه أحد ، حتى لكأن هناك من يخشون أن يتحول الغضب إلى ثورة تتسع دوائرها كحجر يلقى فى ماء راكد !

أديروا بصركم نحو بقية الأوطان العربية ، وأنا أتحدث عن شعوب هذه الأوطان بالدرجة الأولى ـ معظمها تحت الضغوط . الذين لايحاربون عدوا فى الخارج يجدون فى الداخل من ألوان الظلم مالايقل جورا عن بعض أنواع الحكم الأجنبى ، فهناك نظم تستهلك أوطانها بدعاوى مختلفة ومتنوعة بتنوع الظروف والأحوال .

ولقد يقال « إننا كنا ضحية مؤامرة واسعة » ـ والقول فى جزء منه

صحيح ، فالمنطقة التى نعيش فيها مستهدفة باستمرار ولا أحد يريد فيها أمة مقتدرة ممسكة بأعنة مصائرها .

كانت المنطقة باستمرار بؤرة حاكمة فى العالم وبرزت فى وديانها وواحاتها الخضراء دول عظمى فى بعض مراحل التاريخ القديم حتى جاء الإسلام فصنع معجزة إنسانية من طراز فريد . تحولت طاقته الهائلة إلى بوتقة صهر استوعبت ومزجت حضارات من القلب ومن الأطراف ثم صاغت منها باللغة الواحدة والثقافة الواحدة والاتصال الجغرافى الممتد والأمن المشترك مشروعا تاريخيا لأمة عظيمة .

وهذه الأمة مستهدفة ليس هنالك شك ، لكن أى قدر من التآمر لايستطيع أن يفسر ما نراه حولنا على الساحة الآن .

ولقد كنا نستطيع أن نفهم لو أن التاريخ توقف بعد غارة « الصليبية الجديدة » سنة ١٩٦٧ ـ لكن التاريخ لم يتوقف لأن الأمة مضت عبر تجربة شجاعة ومقتدرة من ٥ يونيو ١٩٦٧ إلى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، ووقفنا جميعا على جسور العبور مساء ذلك اليوم المشهود ومعنا تحالف دولى هائل وإمكانيات مادية ومعنوية بغير حدود .

ثم حدث شىء ما يصعب تفسيره أو تبريره فإذا نحن من قمة العالم إلى حضيضه .

كيف حدث ذلك ؟ ولماذا ؟ وبأى منطق ساهمنا نحن فى وقوعه لاهين أو غافلين أو ما هو أسوأ ؟ وأقول على الفور إننى لا أنوى أن أترك نفسى طويلا لهذا النواح على الفرص الضائعة فالأمة كلها تحس جراحها وتعيش آلامها . أتذكر فقط قصة بسيطة وإن كانت معبأة بالمعانى .

ذات يوم جمعنى لقاء مع حكيم من حكماء هذه الأمة وهو الدكتور محمود فوزى ، وكلكم بالطبع تذكرونه بالخير وتترحمون عليه .

يومها ، معه وحيدين فى شرفة على حديقة بيته ، رحت أطرح همومى العامة عليه ، وسمعنى وسمعنى ثم جاء دوره ليقول ، وقال كعادته بأسلوب الرموز :

- هل تذكر التعبير الانجليزى الذى يقول « إن رجلا قطع أنفه لكى يغيظ وجهه » !

هل تذكر المثل الألمانى الذى يقول « الحوادث كبيرة والرجال صغار » ! »

إننى أعترف لكم أننى يومها اعترضت على الدكتور فوزى وأنا أحد محبيه واتهمته بأنه يتجنب إجابات صريحة ومحددة فى أوقات لاتتحمل فيها الظروف أحاديث الرموز ، لكنه بحلمه ورقته طلب منى أن أعيد التفكير فيما قال على مهل . وأجدنى الآن على استعداد لأن أقول معه إننا بالفعل « رجل قطع أنفه لكى يغيظ وجهه » . ثم إننا فعلا فى ظرف « تتعاظم فيه الحوادث ويتصاغر الرجال » !

أخذتنا أهواء وتلاعبت بنا مطامع ثم غلبتنا على أمرنا حقائق حياة وحقائق زمان .

خلطنا بين الثوابت والمتغيرات ، وبين الاستراتيجيات والتاكتيك ، وبين مجموعات القيم والنزوات ، وبين الأصالة والتقهقر إلى الوراء ، وبين التجديد والتقليد الأبله للآخرين .

هكذا لم تتأكد وحدة الأمة وإنما تفككت أوصالها .

هكذا لم تتحول مواردها السائلة إلى ثروة منتجة وإنما تبددت فى حقبة عبثية من الاستهلاك .

هكذا لم يصبح الموقع الحاكم أداة قوة وإنما رهينة تتوسل - وأكاد أقول تتسول - الحماية والأمان من القادرين .

هكذا لم تعد فى أيدينا سلطة قرار حقيقى على مستوى الاستراتيجية العليا للأمة أو استراتيجية أى وطن محورى من أوطانها .

* * *

ليكن .

لقد حدث ذلك كله وليست هناك فائدة ترجى من إعادة تكراره واجترار‌ه فما العمل ؟

لابد أن ألفت النظر ابتداء إلى نقطتين :

١ - إنه ليس لدى أى واحد منا تشخيصا موضوعيا لأحوالنا . لأن رؤى كل واحد منا محكومة بموقفه وموقعه .

٢ - إنه ليس عند أى واحد منا حلولا عملية ، لأن تصورات كل واحد منا للحل متأثرة بتجربته .

وهكذا فإن المتاح لنا جميعا ليس التشخيص المتفق عليه للأحوال .

ولا الحلول القابلة للتطبيق بعد التشخيص المتفق عليه .

ماهو متاح لنا - بالحق وبالضرورة - هو أن نفتح أوسع الأبواب لمناقشة المستقبل واستكشاف آفاقه .

المطلوب الأول - إذن - هو حوار حول المستقبل .

لعلى لا أذيع سرا إذا قلت إن كثيرين هنا فى مصر منهمكين الآن فى إنشاء حلقات حوار تتشوق إلى بصيص ضوء يبدو فى نهاية النفق المظلم .

فى الشهر الأخير شاركت أنا شخصيا فى ثلاث حلقات من هذا النوع يجرب إنشاءها بعض ذوى النوايا الطيبة .

وكل مرة حضرت وفى كل مرة شاركت فى الحلقات كنت أسأل الأصدقاء من الحضور :

ـ « هل أنتم متأكدون من أن لدينا شيئا نستطيع أن نقوله عن الغد وليس عن الأمس ؟ .

هل أنتم متأكدون من أننا لسنا جزءا من الأزمة وبالتالى لانستطيع أن نكون جزءا من الحل ؟ » .

لابد أن تكون لدينا الشجاعة لنواجه الحقائق فى أنفسنا أولا قبل أن نواجهها فى مجتمعنا .

وحتى هنا أمامكم فإنى أعترف أننى لست متأكدا أن لدىّ جديدا أقوله . الجديد أو ما أتصوره جديدا يبدو لى نوعا من « روايات الخيال » . أو أحلام اليقظة ، ومع ذلك يخطر لى أن أجازف وأعرض أمامكم بعض الملاحظات :

أولا ـ يخيل إلى أن الدولة القطرية مهما كان حجمها سقطت أو هى فى سبيلها إلى السقوط .

فى بداية القرن الحالى كانت تتنازعنا ثلاثة اتجاهات فى الدولة :

دولة الخلافة على أساس دينى .

والدولة الوطنية على الأساس القطرى أو الإقليمى .

ودولة الوحدة العربية (فيدرالية أو كونفيدرالية) .

إن دولة الخلافة سقطت فى الحرب العالمية الأولى وأسلمت الأمة العربية إلى هؤلاء الذين قاموا بتخطيطها وتقسيمها وتوزيعها أسلابا وغنائم على المنتصرين ، ولا أظن أن مشروع الخلافة أصبح قابلا للتجديد لأنه لايملك وحدة اللغة ولا وحدة الثقافة ولا وحدة الأمن ولا وحدة المصلحة التى يمكن أن يقوم عليها تنظيم دولة عظمى .

ولست أعرف على سبيل المثال أى وحدة لغة أو نظرية أمن أو تداخل مصالح يمكن أن يجمع فى إطار دولة واحدة كل الشعوب التى تعيش من الملايو إلى المغرب .

هناك مجال لجامعة إسلامية وليس لدولة خلافة جامعة .

إن سقوط الخلافة العثمانية استبقى أمامنا بعد الحرب العالمية الأولى إمكانيتين :

الدولة القطرية ـ بحدودها الوطنية

ودولة الوحدة العربية ـ بأسسها الراسخة وجذورها الضاربة إلى أعماق الأعماق .

وكان حلم الدولة القطرية قريب المنال سهل التحقيق وشد الكل بريقه ، ومن أعقاب الحرب العالمية الأولى وحتى الآن عاشت هذه الدولة حلمها واستيقظت منه على كابوس .

لماذا ؟

١ ـ لم تستطع الدولة القطرية حل مشكلة التنمية مهما كانت خططها طموحة ، وعلينا أن نتذكر أن حل مشكلة التنمية يتصل مباشرة بمشكلة الأمن .

فصر سنة ١٩٥٤ كانت تفكر فى التنمية قبل المواجهة مع إسرائيل ، وفى سنة ١٩٥٥ تنبهت إسرائيل إلى ذلك فإذا هى تعجل بمرحلة ساخنة من الصراع لوقف التنمية .

والعراق سنة ١٩٨٠ نفس الشيء فإن المفاعل الذرى العراق رغم وضوح هدفه السلمى استوجب غارة مبكرة عليه من نفس الذين قاموا بتوريد السلاح إلى إيران !

٢ ـ لم تستطع الدولة القطرية حل مشكلة الأمن ، فالخطر المحيط المحيق بها ليس إسرائيل فقط وإنما تناقضات أكبر بكثير من الصراع العربى الإسرائيلى وإن كان هذا الصراع قد صب هذه التناقضات فى مجرى رئيسى ظاهر.

ومن الواضح الآن أن حجم التحدى أكبر من حدود أى وطن عربى واحد حتى وإن كان أكبر أوطان هذه الأمة وهو مصر ، والتجربة العملية وراءها

وأمامنا وفى انتظارنا مع المستقبل .

٣ـ لم تستطيع الدولة القطرية حل مشكلة التحديث الضرورية للثورة الصناعية الثانية التى سوف تقاس قابلية الأمم للحياة فى الأزمنة الحديثة بمقدار الاستعداد لها ـ فالتجهيزات الأساسية اللازمة للانطلاق إلى هذه الثورة شيء يختلف عما كان لازما للثورة الصناعية الأولى .

فإذا كان واضحا أمامنا أن الدولة القطرية مازالت تتعثر فى الثورة الصناعية الأولى فكيف بالثورة الصناعية الثانية وهى مندفعة إلى مجالات الطاقة النووية والفضاء والألكترونيات ... إلى آخره .

٤ ـ لم تستطع الدولة القطرية أن تحل مشكلة الديمقراطية وحقوق الإنسان لأن تفاوت مراحل النمو واختناقات عملية التنمية والضغوط الخارجية وضرورات الأمن والتفاعل الطبيعى بين شعوب الأمة رغم كل الحدود ـ إلى جانب طبائع السلطة التقليدية التى مازالت تحكم منطق الدولة فى بلادنا تحول أوطاننا جميعا حتى بغير قصد متعمد إلى حالة حصار تكون مواجهتها التلقائية بحالة طوارئ !

٥ ـ لم تستطع الدولة القطرية أن تتعامل مع القوى والكتل السياسية والاقتصادية والمالية فى زماننا الراهن ـ على قاعدة صلبة وقابلة للاستمرار وربما تذكرنا أن تقارير الأمم المتحدة عن استشراف المستقبل توضح بجلاء أن ظروف القرن المقبل سوف تجعل أى كيان صغير يقل حجمه عن مائة مليون من البشر مشروعا غير قابل للحياة .

ثانيا ـ أن كل الخيالات أو الأحلام التى تصورناها قادرة على حفظ كيان الدولة القطرية فى مرحلة سابقة لم تعد مجدية إزاء تجارب الماضى القريب وعبر الحاضر الماثلة واحتمالات المستقبل التى لم تعد مجالا لظن .

١ ـ ليس من حق أى دولة قطرية أن تتيه عجبا على الأمة بميزة أو بسبق . فالسبق الزمنى إلى التقدم يفقد أهميته بسبب سرعة معدلات الجديدة .

وحجم البشر الكبير مع أهميته لايكتسب أبعاد قوته الفعلية إلا بالتنمية .

وحجم الثراء الطائل لامعنى له إذا لم يتحول الثراء إلى طاقات اقتصادية منتجة .

٢ ـ أنه لم يعد فى مقدور قطر عربى أن يتوهم إمكانية الاعتماد على قوة عظمى تساعد نموه وتساعد أمنه وتمسك بيده وهو يخطو إلى عوالم المستقبل .

إن كل القوى معنا بمقدار ما يناسب مصالحها ، وكل القوى ضدنا بمقدار مايناسب هذه المصالح . وليست هناك قواعد متفق عليها بالأخلاق أو بالقوانين لنسب تبادل المصالح بين الأطراف وإنما الحكم هنا هو بحجم الإرادات المتعاملة والمتقابلة .

٣ ـ أن الدولة القطرية اضطرت إلى طلب تضحيات هائلة فى سبيل قيامها ببعض ماهو مطلوب منها .

فى التنمية كان الثمن الذى دفع بالديمقراطية وحقوق الإنسان غاليا .

فى الأمن كان الثمن الذى دفع بدعوى الاستعداد العسكرى والتسليح باهظا .

وبمطالب الإثنين معا ـ التنمية والأمن ـ سواء كانت هذه المطالب حقائق أو ذرائع وصلت الدولة القطرية إلى حالة تشبه الكساح .

٤ ـ أن الدولة القطرية وصلت رغم إرادتها فى بعض الأحيان إلى وضع أصبحت فيه جماهيرها أقوى من سلطتها ، وهذه ظاهرة تبدو طيبة ومبشرة لكنها فى نفس الوقت تنذر بمخاطر.

ذلك لأن كل الدول اضطرت بحكم ضرورات العصر وضغوطه مرات . وبحكم واقع وجود الثراء مرات أخرى ـ إلى نوع من التنمية الاضطرارية كالصرف على الهيكل الأساسى والتعليم والصحة وغيرها من الخدمات ، وبفعل ظروف العصر ووسائله فى الاتصال فإن قوى اجتماعية جديدة بدأت تظهر ويتسع إطارها ويزداد قربها من حركة الدنيا . والحقيقة أن صداما مأسويا يمكن أن ينتج

بسبب هذه المواجهة بين السلطات الحاكمة وبين القوى الاجتماعية الجديدة . فالسلطات الحاكمة لاتتغير بسهولة ولكن وسائلها فى التسلط زادت قوتها زيادة رهيبة بالتكنولوجيا سواء تكنولوجيا التطويع أو تكنولوجيا القمع .

٥ ــ أن الدولة القطرية فى وطننا وبعد عجز المرحلة التقليدية واجهت مرحلة الانقلاب العسكرى ــ يتحول أو لايتحول إلى ثورة ــ وفى كل الأحوال فهذه مرحلة فات وقتها ولم يعد ممكنا تكرارها ولم يعد لائقا الاعتماد على مصادفاتها أو مغامراتها .

هكذا أجد نفسى قريبا من الظن بأن الحل يكمن فى إمكانيات العمل العربى الموحد على كل مستوى من مستوياته .

ولقد نلتفت حولنا فنجد أن الذين لا يملكون أسسا حقيقية للوحدة بينهم يبحثون عن مثل هذه الأسس . فإذا لم يجدوها قاموا باختراعها اختراعا لأن الكيانات الشظايا محكوم عليها .

فكيف السبيل إلى عمل موحد .

سوف آخذ مرة أخرى بمنطق الاستبعاد :

١ ــ لن يتحقق العمل العربى الموحد بظهور البطل الذى يقوده بل إن البطل فى حد ذاته كفيل بتعويق الهدف بما يحدثه من مشاكل إنسانية ــ فضلا عن أننى أعتقد أن ظروف الدنيا تجاوزت عصر الفرد الذى يغير مصائر فالمصائر الآن تتقرر بوسائل لم تكن قائمة فى العصور التى عرفتها البشرية ابتداء من رمسيس والاسكندر إلى نابليون وبسمارك إلى لينين وتشرشل .

٢ ــ لن يتحقق العمل العربى الموحد بدولة نواة كما كنا نتصور وكما رأينا فى تجارب توحيد أمم قبلنا فالدولة النواة سوف تخلق حساسيات يصعب التغلب عليها ، ولقد تصورنا فى بعض الأحيان أن الدولة النواة لابد أن تكون الدولة النموذجية وهذا إفراط فى حسن النية ــ ومع ذلك فلقد رأينا أن دولة قطرية واحدة لاتستطيع مهما فعلت أن تجعل نفسها نموذجا .

٣ ـ لن يتحقق العمل العربي الموحد بإقناع العالم الواسع أو استجداء طيبة قلبه أو حتى رشوته . فالمطامع الدولية أكثر ذكاء والقوى العالمية أكثر وعيا بما تريده فى المنطقة . وأليس غريبا أن الدول العربية فى مجموعها صرفت على الإعلان الصريح عن نفسها فى الفترة ما بين سنة ١٩٧٣ وسنة ١٩٨٥ ماتزيد قيمته على خمسمائة بليون دولار فى الإعلان عن نفسها وفى حملات علاقات عامة وإعلانات صريحة ومع ذلك فإن صورة العربى مازالت حتى هذه اللحظة هى صورة الإرهابى ـ السكير ـ المقامر ... إلى آخر ما تعرفونه (نفس الشىء فى مجال الأمن ففى نفس الفترة وجهت الأمة إلى شراء السلاح حوالى خمسمائة بليون دولار ومع ذلك لم تستطع أن تشترى الأمن) .

٤ ـ أن العمل العربى الموحد وإمكانياته لايتحقق بخلط الهوية القومية بالعقائد الدينية ، ولست فى حاجة إلى أن أعيد على مسامعكم حقيقة وجود أمة عربية واحدة قام الإسلام بدوره العظيم فى صهر عناصرها الأصلية ومزجها وتشكيلها عقلا ووجدانا .

٥ ـ أن العمل العربى الموحد لايستطيع أن يبدأ بجد أو يتصل بأمل إلا إذا اقتنعت شعوب الأمة العربية أن ذلك سبيلها ، ومن سوء الحظ أن ذلك حتى هذه اللحظة موضع تشكيك مقصود رغم أنه موضع الأمل الباقى فيما أظن ، ولو نظرنا إلى أعماق من مجتمعاتنا لوجدنا أن القمم العربية قابلة للهزيمة من الداخل ولكن المقاومة لاتزال حتى هذه اللحظة تحت مستوى القمم .

كيف السبيل إذن ؟

جوابى بأمانة أننى لا أعرف وقديما اتفقوا على أن « من قال لا أدرى فقد أفتى » .

ومع ذلك فلقد لفت نظرى فى مسيرة صلاح الدين بطل حطين أنه بدأ عهده فى مصر بخطوتين :

وجد فى مصر أربعة عواصم :

الفسطاط التى أنشأها عمرو بن العاص فى بداية الفتح الإسلامى

والعسكر التى أنشأتها الخلافة العباسية

والقطائع التى أنشأتها الدولة الطولونية

والقاهرة التى أنشأتها الدولة الفاطمية

ورأى صلاح الدين توحيد الكل فى عاصمة واحدة يحيط بها سور واحد وقلعة الجبل ، قلعة صلاح الدين ، فى وسطها .

وتلت ذلك كله خطوة أخرى ، فقد وجد أربعة مدارس للعلم فى مصر واحدة لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، ورأى أن تكون هناك مدرسة واحدة تجمع علم المذاهب الأربعة واجتهاداتها .

خطوة نحو التوحيد على مستوى السياسة ، وخطوة نحو التوحيد على مستوى الفكر.

خطوات تبدو صغيرة .

ولكنها كانت أول الخطى إلى حطين .

وأليس غريبا أن تكون العبر والدروس ماثلة أمامنا . ومع ذلك يبدو لنا فهمها واستيعابها نوعا من جموح الخيال وغرقا فى بحار الوهم ؟!

بؤر الاستنزاف فى الوطن العربى
وأسباب العجز عن مواجهتها

كلمة الأستاذ : منح الصلح - لبنان

لابد من توجيه الشكر أولا للجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الأسيوية ورئيسها الأستاذ أحمد حمروش على أنها بالاشتراك مع مركز الدراسات العربية بلندن ، قد دعت إلى هذه الندوة الدولية فوضعتنا تحت هذا العنوان « حطين » من عناوين تاريخنا المجيد أمام تحد كبير من تحديات حاضرنا هو العمل العربي المشترك .

لقد قربت صلاح الدين إلينا وهو القريب إلى قلوب العرب والمسلمين والإنسانية جمعاء ، لأنها طرحته مقرونا بالعمل العربي الموحد ، فعسى أن تقترب الأمة العربية بدورها من فاعلية صلاح الدين عن طريق وعيها لهذا العمل وضرورته . إذ لا موصل لماضينا المشرف إلى حاضرنا إلا سلوك هذا الطريق . وقد أصبحت فى بلادنا مدرسة فكرية متكاملة ترى خطرا فى الاشادة بالماضى ـ واختيار النقاط المضيئة منه دون سواها لأن أنوارها قد تبهر وتربك الخطى ، فالواقع والواقع وحده يجب أن يكون الحاضر الدائم .

لو أننا شئنا أن نحدد طبيعة الأزمة التى تعيشها الأمة العربية فى الوقت الحاضر لقلنا إنها أولا أزمة عجزها عن تحقيق أى قدر من العمل العربي الموحد ، فى حين تتعدد فى مختلف أطراف الوطن العربي بؤر استنزاف مفتوحة ، عسكرية وسياسية واقتصادية لم يسبق للعرب منذ فترة بعيدة أن عرفوا مثيلا لها . إن من حيث النوع أو من حيث الحجم . كلبنان ، والحرب الإيرانية ـ العراقية ، والصحراء الغربية ، وجنوب السودان ، وتشاد .

ومجرد نشوء هذه الأوضاع الاستنزافية واستمرارها إعلان صارخ عن التردى

الذى تمر به دينامية التضامن العربى ، وقد تلقت هذه الدينامية ضربة كبيرة بغياب الدور المصرى من صدارة العمل العربى وعدم استطاعة الدول النفطية النهوض بمسئولية الدور نفسه وتقلص العامل الفلسطينى فى الحياة العربية نتيجة نكساته المتوالية .

ولعل هذه العناصر الرئيسية هى التى ساعدت أزمة العلاقات العربية المزمنة على التفاقم والتضخم بحيث إنه فيما خلا مؤتمر فاس الشهير وما نشأ عنه من مشروع سلام عربى ولجنة سباعية لم يحصل فى المدة الأخيرة مايصح أن يسجل على صعيد محاولة التحرك العربى الواحد ، هذا مع العلم أن مقعد مصر فيه بقى فارغا وأن هذا المؤتمر لم يتابع بالرغم من الضرورة الواضحة لمتابعته فى مبادرات أخرى على مستوى عال .

وهناك إلى جانب موضوع هذا المؤتمر وهو موضوع السلام فى الشرق الأوسط والصراع العربى الاسرائيلى مواضيع أخرى تحتاج إلى مبادرات بالحجم نفسه وأهمها الحرب الإيرانية العراقية التى تقتضى تضامن العرب فى اتخاذ مواقف عربية صريحة وحاسمة فى العمل على إنهائها ونصرة الجانب العربى ، وإنقاذ العروبة والإسلام معا من مآسى استمرارها .

كما أن هناك حرب لبنان التى يشكل استمرارها تعريضا لكيان بلد عربى كامل بالزوال ، فضلا عما يعانيه هذا البلد من احتلال اسرائيلى هو وصمة عار على جبين كل عربى قبل أن يكون كذلك على جبين اللبنانى الذى أدى ويؤدى دوره فى مقاومته .

والإحباط الناتج عن عدم وقف الحرب الإيرانية العراقية والحرب اللبنانية ربما كان أكبر فى هذه المرحلة من ذلك الناتج عن وضع الصراع العربى الاسرائيلى نفسه ، أولا لأن كل عربى يعتقد أنه فى استطاعة العرب حل هاتين المعضلتين لو صدقوا فى عملهم المشترك ، وثانيا لأن اقتتال اللبنانى مع اللبنانى والعربى مع المسلم قد غديا مشاكل من نوع خاص ولوثا الفضاء العربى كله بسموم الطائفية

والمذهبية والتفرقة وفعلا فعلها فى الوحدات الوطنية فى أكثر من بلد عربى وإسلامى .

وفى بعض الحالات يبدو كما لو أن المسئولية العربية عما يجرى تفوق المؤامرة الأجنبية فى الفعالية . فلا أحد يصدق على سبيل المثال أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى هما اللذان تسببا فى ما يعانيه لبنان ـ ولبنان كان صديقا للدولتين وساحة للنفوذين عندما انفجرت هذه الحرب ـ فالعامل العربى الجامع والعامل الداخلى كانا باستمرار الأكثر مسئولية فى استمرار المأساة . وهذا أمر خطير لو أدركنا كل معانيه واستوعبنا عبره ، ولا يخفف منه معرفتنا بأن الولايات المتحدة قادرة من خلال إسرائيل على لعب دور حاسم فى إنهاء هذه الحرب .

إن استمرار غياب العمل العربى الموحد تقع تبعاته أولا على الحكومات العربية وسياساتها الخارجية والداخلية .. ثم ثانيا على الأوضاع الاستبدادية اللاديموقراطية داخل النظم والقوى والحركات السياسية العربية .. ثم ثالثا على عدم نهوضنا جميعا لتلافى مقتل اللاوحدوية المتفشى بلا مقاومة فى حياتنا . فاللاوحدوية المعاصرة هى أساس أيضا فى غياب العمل العربى الواحد ـ بل إنها المظهر الأساسى لنكستنا القائمة فى الوطن العربى كله . ولابد من أن نفرد لها اهتماما خاصا على كل صعيد ، بداية بالفكر ونهاية بالتجسيد فى الصغير والكبير فى أعمالنا .

لقد فهم العالم حركة التحرر العربى منذ الإرهاص بها فى أوائل عصر النهضة بأنها حركة تهدف إلى توحيد العرب ، وإقامة وجودهم السياسى على أساس وحدة شخصيتهم التاريخية والجغرافية والثقافية . وكان مطلب التوحيد يرافق دائما مطلب التحرير بل ينافسه ويبزه ويعزز شرعيته فى نظر أبناء الأمة .

ففى مصر والسودان ـ وفى الهلال الخصيب ـ وفى الخليج ـ وفى الجزيرة العربية ـ كان المشروع الوطنى الاستقلالى لا ينفصل إطلاقا عن عملية توحيد ما . سواء شاملة للعرب ككل أو مقتصرة على قسم هام منهم .

بل يمكن القول أن السمة المميزة لحركة التحرر العربي بالمقارنة مع معظم حركات التحرر الوطني فى العالم أنها حركة توحيد ، فنى هذه الصفة دون غيرها من الأهداف المشتركة بينها وبين حركات التحرر تلخصت خصوصيتها .

وقد كان مجموع العرب ينظرون إلى وحدة أمتهم العربية ولا يزالون. العاديون منهم قبل المثقفين، أحيانا على أنها الضرورة الأم فى حاجات وطنهم الكبير، فهى تعطى المعنى التاريخي والمدى الروحى والمادى لمطالبهم المتعددة فى الاستقلال والدفاع والتنمية الاقتصادية والثقافية .

ولعل المفارقة التى تعيشها الأمة أن الوحدة التى هى السمة الأبرز لحركة تحررها شبه المرادف لقوميتها الخاصة تتحول أو تحولت إلى نقطة الضعف الأكبر فى واقعها السياسى وغير السياسى ، وذلك منذ استفحال مأساة العمل العربى الموحد الحالية .

ويكاد الفرد يتفطر ألما وهو يلاحظ أنه قد أصبح لهذه الأمة تراث فى فشل مشاريع الوحدات يسمح بالقول إن موضوع الوحدة فى حياة العرب هو ساحة عجزها الرئيسية .

ويتمثل ذلك لا فى مشهد التشتت العربى شبه الكامل والمتمادى فى الزمن فحسب ، ومن مظاهره غياب الجامعة العربية مثلا ، ولا فى أن ما كان مشاريع وحدةٍ جزئية أو شاملة ، إقليمية أو عامة هو مطوى فى كل مكان، بل فى أن بعض الإنجازات نفسها التى حققها العرب فى ميادين الاستقلال والتنمية والتحرر تمت هى نفسها على حساب تراث وحدة العمل العربى . وكأن هذه الإنجازات ما سمح لها أن تقوم إلا لأنها حملت إضعافا بشكل أو آخر للعمل العربى الواحد أو على الأقل مجانبة له .

إن ميادين القصور والعجز والضعف فى حياتنا العربية كثيرة ، ولكن أبرزها من غير شك فى المرحلة الحالية فى حياة العرب هو القصور فى ميدان العمل العربى الواحد .

ونحن ندفع كثمن لهذا القصور استفحالا لمشاكلنا الإقليمية ، كحرب إيران والعراق وكلبنان وسواها ، وضعفا أمام عدونا الإسرائيلى ، وتبعية سياسية واقتصادية وثقافية لطغاة هذا العالم وأقويائه ، وندفع أيضا نموا للمذهبية والطائفية والقطرية الضيقة . وأهم ما ندفعه كثمن عاجل ومدمر هو نمو التيارات الدينية المتطرفة ، إذ بدون ذلك النفس التضامنى الوحدوى بالأساس الذى هو نفس العروبة التاريخية الأصيلة ـ سوف تظل الجماهير العربية تحت إغراء التيارات الدينية المتطرفة ، لأن هذه الجماهير تشعر فيها دفءا ثقافيا وحضاريا آتيا من ماضيها أو من تراثها بينما لاتشعر هى بالدفء نفسه فى أوضاع التجزئة والتناحر والمشاريع والأحلام القطرية الضيقة ، والشىء الوحيد الذى سيخرجها من الدينية المتطرفة ويقربها إلى الحياة وإلى الدين نفسه معا هو النجاح على صعيد العمل العربى الموحد ، إذ من هذا النجاح سينتشر الدفء الثقافى والحضارى الصحيح الذى تفتقده جماهيرنا نتيجة العزلة والتباعد والأحلام الصغيرة ، ومن هذا النجاح ستعود الأصالة والمعاصرة معا إلى حياتنا .

وروح الوحدة مهما تكن متواضعة التى تنطوى عليها أى خطوة صادقة ومدروسة وموضوعية على طريق العمل العربى الموحد قادرة على تغيير الكثير مما نشكوه فى أكثر من ناحية من نواحى حياتنا .

وشكرا

هذه هي الصّعوبات التي تعوق وحدة العمل العربي كما أراهـا

كلمة : عبد الله أحـمد حسـن
السـودان

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

عبد الله محمد أحمد حسن ، ويلزمنى أن أعرف نفسى أكثر لأنى غريب على مثل هذه الاجتماعات لأننا لأول مرة منذ ١٥ ـ ١٧ سنة نشارك فى مثل هذه الاجتماعات ، فأنا على الإطار السياسى ، عضو مكتب سياسى لحزب الأمة ، ومساعد رئيس الحزب فى الشئون الخارجية ، وعلى الإطار الرسمى ، فأنا عضو فى البرلمان عن دائرة من دوائر العاصمة ، ورئيس لجنة الشئون الخارجية فى البرلمان ، ورئيس المجلس الوطنى للتضامن والصداقة والسلام مع الشعوب ، ويضم هذا المجلس فيما يضم ، لجنة تضامن الشعوب الأفريقية والأسيوية ، مع أكثر من ثمانين منظمة تدعى وتعمل للعمل الأسيوى والأفريقى والعربى وغيره من الصداقات مع الشعوب ، فنحن فى بلد يتنسم ويتذوق الآن حلاوة الديمقراطية ، ولذلك كل مجموعة تريد أن تعمل تنظيماتها ، وتعمل ترتيباتها بأنها هى التى تنطلق من الأسلوب الأصح والأسلم فى معالجة القضايا المعاصرة من حولنا ، هذا لزوم التعريف .

أوجه شكرى للأخ أحمد حمروش واللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية والأسيوية على توجيه هذه الدعوة ، وهى فى الأصل وجهت للأخ السيد الصادق المهدى ليشارك ، ولكنه كلفنى ممثلاً له فى هذه المشاركة .

ليست لدى ورقة مكتوبة ، وليست لدى مشروعات منظمة ومرتبة ، ولكنى أحب أن أساهم من خلال مااستمعت إليه هنا فى هذه الجلسة ، ومن خلال مانسعى نحن له ولم يتم ولم ينظم حتى الآن لأن يكون مشروعا لوحدة عمل عربى .

حقيقة يا إخوانى . فإن المعالج للقضايا العربية يتوه توهانا كبيراً فى شيئين . أننا فى المنطقة العربية ، دائما نفتقر إلى الصراحة . ونفتقر إلى الوضوح . ونفتقر إلى الموضوعية فى معالجة قضيتنا العربية . دائما ، أما فى الستة أشهر الماضية . قابلت فى الخرطوم ، وسافرت إلى العديد من البلدان العربية . استمعت إلى شخصيات شعبية وقيادات غير رسمية . استمعتُ إلى مسئولين . ولكن تجد نفسك تائها حول الموضوع . لا شخص يطرق لب الموضوع . ولاشخص يتكلم الكلام الذى يجب أن يقوله . إطلاقا . نحن ندور حول الموضوعات ، ندور وندور فى بلاغة وفى فصاحة .. صدق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إن من البيان لسحرا » . فنحن عندنا بيان . عندنا سحر. عندنا ألفاظ طنانة ورنانة . ونتكلم ساعات وساعات ولكن أين الموضوع ؟ أين المشروع ؟ أين الحقيقة ؟

ستجد نفسك تائها ، قبض الريح ، دائما إذا تحدثت مع القيادات العربية شعبية ورسمية فأنت تقبض الريح .

أنا أسعى من ستة شهور ماضية لما أسميناه اجتماع حكماء العرب ، فقلنا نفتش عن الحكماء ، من هم حكماؤنا قلنا : من مفهومنا شخص لايكون فى المسئولية الرسمية حتى لاتقيد الالتزامات الرسمية المحلية والعالمية والدولية فى أن يقول لك الحقيقة ، أو يتعامل معك التعامل الذى يجب أن يتعامل معك به . قلنا : نفتش عما أسميناهم رجال الدولة ، الذى لايرتبطون بمناصب حتى لاتؤثر عليهم هذه المناصب ، نفتش عن المفكرين . نفتش عن المخلصين الوطنيين ذوى التاريخ الناصع فى القضية العربية والقضايا الدولية ، نفتش عن هؤلاء الذين لهم كلمة مسموعة بين العرب . وظللت فى الستة شهور أسافر وأفتش وأسأل وأبحث ، وأنا عندى جداول وكشوف ، ولكن نحن نريد أن نصل إلى من هم الذين ممكن أن يسمع لهم فى هذا العالم العربى ، لماذا ؟ لأننا نريد من خلال هؤلاء الرجال أن نجلس بموضوعية وبصراحة وبكلام حقيقى نابع من المسئولين لنعالج القضية العربية .

دائما نحن نقول إن هذه الموضوعية حقيقة شيء مهم جدا بالنسبة لنا إذا خرجنا من الإطار العربي إلى الإطار الديني ، واحدة من المسائل الأساسية التي علمها القرآن للرسول وللناس من حوله ، هي لابد من الدخول إلى الموضوعات بصراحة وبوضوح ، فالقرآن قال للرسول : « عبس وتولى ،أن جاءه الأعمى ، ومايدريك لعله يزكى » كلمه هكذا بصراحة. يريد أن يعلمنا أن نعالج موضوعاتنا بهذه الصراحة وبهذا الوضوح .

وجاءت قضية زواج « زينب بنت جحش » من « زيد » ، والرسول أسر في نفسه شيئا ، لايريد أن يتكلم عنه ، فقال له القرآن . إنك تسر في نفسك شيئا وسأكشفه، وكشف القضية كلها ، وقال له أنت تريد زينب ، وأنا زوجتك لها .

هذه الصراحة وهذا الوضوح هي المطلوب منا أن نأخذ بها في قضايانا ، وليست هي قضية زيد والرسول وزينب بنت جحش ، ولا هي قضية الأعمى والرسول لا ، إنها قضية أن نعلم أننا لانستطيع أن نباشر أمورنا بقوة وبوضوح إلا إذا باشرناها بصراحة .

ولذلك ، فنحن من هذا المنطلق ، منطلق الوضوح ، بدأنا نفتش ونبحث عن من هم الحكماء الذين نستطيع أن نستنير برأيهم ، والذين نستطيع أن نجعلهم رأس الرمح في معالجة القضية العربية .

ومانزال نسعى هذا المسعى .

قائد فذ واجه الحقيقة ..

أعود مرة أخرى إلى ما استمعت إليه هنا الآن ، أمس واليوم ، حقيقة في نظري أن قضية حطين وصلاح الدين ، في وقتها كانت قضية إسلامية ولم تكن قضية عربية ، قضية توحيد الناس حول هدف معين، وقادهم هذا القائد الفذ وحقق بهم انتصارات على خصومهم ، أيا كانوا هؤلاء الخصوم ، سواء كانوا الصليبيين أو كانوا استعماريين غربيين فرنجة أو غيرهم ، إنما الهدف كان تحرير

هذه الأرض وهؤلاء المسلمين فى هذه المنطقة فى ذلك الوقت ، العبرة إذن فى نظرى من هذه القضية ، هى أننا الآن فى شتات وأننا الآن معرضون لأجانب ، وأننا الآن يلزمنا قيادات توحدنا حول هدف تحرير بلادنا وأرضنا كما حدث من ذلك ، لاهى قضية أنه ، هل كان هو مسلم ؟ هل كان هو عربى ؟ هل كان هو كردى ؟ لا . القضية أن هذا الرجل فى هذه المنطقة فى ذلك الوقت ، حكمته مفهومات معينة ، هذه المفهومات علينا أن نقبلها بظروفها التى عاشتها .

ولكن العبرة فيها أنها ، رجل فذ بطل عرف قضيته الحقيقية وطرق هذه القضية ووحد حولها الناس ، ثم حرر الأرض وأعاد الحقوق إلى أهلها .

نحن الآن فى نفس الموقف .. فى موقف شتات ، فى حاجة إلى قيادة ، فى حاجة إلى توحيد لنخرج من عنق الزجاجة الذى نحن فيه الآن. هذه فى نظرى هى العبرة من كل هذه القضية .

إذن عندما نتذكر الآن حطين بهذا المفهوم ، وبعد خمس سنوات ، يبدو لنا أيضا أنه يجب أن نحتفل بمرور ٥٠٠ سنة على سقوط الأندلس ، بعد خمس أو ست سنوات ، وكذلك يلزمنا أن نجلس ونبحث العبر من سقوط الأندلس ، والعبر من سقوط بعض البلاد الإسلامية الأخرى فى أيدى غير إسلامية. العبرة من هذا الموقف كله ، هى أن نستقرئ التاريخ ونفهمه فهما صحيحا ومنه نأخذ الدروس لنستفيد بها فى واقعنا السياسى الجارى الآن .

هذا هو فى نظرى كل الدرس الذى يجب أن ننطلق منه .

الإسلام والعروبة :

النقطة الثالثة التى أريد أن أعرج عليها ، هى إذا كنا وعينا درس التاريخ فى عهد صلاح الدين فى احتفالنا هذا بمرور ٨٠٠ سنة على انتصار حطين .. الآن ، ماهى الصعوبات التى تواجهنا فى العمل العربى الموحد ؟

وقد أكون مخطئا، وقد أكون على صواب حين أقول إن أول هذه الصعوبات أن العالم العربى يموج بتيار إسلامى قوى لايقبل الوحدة العربية ، هذه حقيقة موجودة ، هناك تنظيمات سياسية ، ولدينا المثل فى السودان ، حيث أسفرت الانتخابات الأخيرة عن ١٠٢ نائب فى الجمعية التأسيسية من حزب الأمة و٦٣ نائبا للاتحادى الديمقراطى ، و٣١ نائبا لجنوب السودان ، و٥١ نائبا للجبهة القومية الإسلامية ، وهى صنو للإخوان المسلمين فى مصر وللجماعات الإسلامية فى باكستان ، أو توأم لهذه التنظيمات السياسية .

هذا تيار -على الأقل هو موجود عندى أنا الآن فى السودان- لايقبل مايسمى بالوحدة العربية ، ويتحدث ويهدف إلى الوحدة الإسلامية . وإذا تحدث عن وحدة العرب فإنما هى معبر للوحدة الإسلامية فى نظره ، ولذلك فالهدف الأقوى عنده والأسمى وكل استراتيجيته فى العمل السياسى يبنيها على الوحدة الإسلامية .

إذن هذا التيار موجود ، سواء كان فى السودان ، فى مصر فى بلاد أخرى بعضه يشتغل علنا وبعضه يعمل تحت السطح ، ولكن له وجود مؤثر ، إذا جلسنا لنتحدث عن الوحدة العربية ، لابد من وضع اعتبار لهذا التيار الذى يعمل بهذا المفهوم .

الأقليات العرقية

النقطة الثانية من الصعوبات التى تواجهنا ، وجود أقليات عرقية قوية فى العالم العربى لاتنتمى إلى العروبة ، فى بعض الأحيان بعضهم مسلمين ، ولكنهم ليسوا عربا ويعتزون بأنهم ليسوا عربا ، وأحيانا غير مسلمين ، وفى كل بلد عربى توجد مثل هذه الأقليات ، فأنا عندى فى السودان أقلية ٢٥٪ فنحن ٢٢ مليونا وهم حوالى ٥,٥ مليون ، بعضهم مسلمين ، وبعضهم مسحيين وبعضهم وثنيين ، ولكن كلهم يلتقون على شىء واحد أنهم ضد العرب ، عندى فى السودان أنهم ضد العرب بسبب واحد ، وهو أن الكنيسة

ظلت على يد الاستعمار البريطانى خمسين سنة تلقنهم أن العرب هم الذين باعوهم فى سوق الرقيق للامريكان ولأوروبا ، وأن الكنائس التى هى محل الرحمة ، ومحل الحديث عن العلاقات الإنسانية فيها صور العربى وهو على صهوة جواده أو على بعيره ومن خلفه الأفارقة مشدودين بالجنازير ومسوقين إلى سوق الرقيق . هذه صورة العربى عندهم . ولذلك لايقبلون إطلاقا أى كلام عن العروبة . الصعوبة الآن أننا نريد أن نبلغهم العربية وكلمة العربية ، الآن ، رغم أنهم يتحدثون اللغة العربية إلا أنهم معنا فى البرلمان لايتحدثون اللغة العربية ، ولكنهم يتحدثون باللغة الإنجليزية معنا فى البرلمان ، إمعانا فى عدم التفاهم مع العرب ، رغم أنك تعرف أنه يتحدث العربية ، وأنه خارج قاعة البرلمان يتحدث معك بالعربية ، لكنه داخل القاعة يتكلم الإنجليزية ليؤكد أنه لاينتمى إلى العروبة بأى شكل من الأشكال .

هذا الشىء موجود فى السودان ، وموجود فى الشمال الأفريقى فى شكل البربر وموجود فى شكل أكراد فى بلاد أخرى ، وموجود فى كل مكان فى المنطقة العربية وهذه الأقلية تتحدث الآن بلغة أخرى ، هذه اللغة ــ سامحه الله السيد نيريرى ــ قال فى خطاب من خطبه ، وهذا مايواجهوننا به الآن فى السودان ، « ليست هناك أغلبية ، يتحدثون معكم عن الأغلبيات ، والديمقراطية التى تحكمها الأغلبية والأقلية ، وأن الأقلية لابد أن تخضع لرأى الأغلبية ، ليست هنالك أقلية ، وتستطيع الأقلية أن تحكم الأغلبية إذا حملت السلاح ، تفرض رأيها على الأغلبية أو على الأقل تؤثر فى رأى الأغلبية إذا هى حملت السلاح » .. إذن فالأقليات الآن غذيت بهذه المفهومات عندنا فى المنطقة الأفريقية ، نحن مثلا فى جنوب السودان هذه الأقليات الآن تحمل السلاح لتعمل تحييد لرأى الأغلبية ، لأنه يريد أن يفرض رأيه معك على قدم المساواة لأنه يحمل السلاح ، وأنت إذا حملت معه السلاح تكون أنت المعتدى فى نظر جهات أجنبية كثيرة تحميهم وتغذيهم وتساعدهم باسم الإنسانية والمنظمات الخيرية والمنظمات الدولية وهلم جرا .

إذن فهو يحمل السلاح ، وأنت يحرم عليك حمل السلاح بأشكال كثيرة إنسانية ودولية ومقاطعات دبلوماسية وغيرها ، واتهامات بالعصبية والعرقية وبالتطرف الدينى ، وكل هذا يحيطونك به ويمنعونك من حمل السلاح لتأديبه ، ولكن هو يحمل السلاح (ليحمى حقوقه منك) (أنت الأغلبية التى تتغول عليه) .

هذه الفكرة أبرزها وقواها السيد نيريرى فى الشمال الشرقى الأفريقى ، والآن انتشرت هذه الفكرة ، وأصبحت هذه الأقليات مهما تحدثت ومهما لبس بعضها جلود الحملان ، إنما بطونهم وضمائرهم تموج بحقد دفين على العربية ، غُذى مثلاً عندنا بهذه المفهومات .. أن العرب هم الذين باعوكم ، هم الذين استرقوكم ، هم الذين اضطهدوكم ، ولذلك مهما تكلموا معنا بلغة لينة فهم فى قلوبهم يحملون حقداً دفيناً على فكرة الوحدة العربية ويخشونها .

هذه الأقليات كذلك مسنودة كما قلت بقوة منظمات دولية ، ومسنودة بقوة سلاح ، ومسنودة بترتيبات اقتصادية . إذا كنا لانعى ذلك ، فيجب أن نعيه ، كل هذه الأقليات على مدى كل العالم العربى ، علنا وسرا ، مسنودة بهذه القوى .

أغنياء وفقراء :

وعندما نتحدث عن الوحدة العربية كلما يرتفع صوتنا عن الوحدة العربية بقوة كلما تنفتح قنوات المساعدة لتقوية هذه العناصر الأقلية الموجودة بيننا .

إذن هذه صعوبة من الصعوبات نطرحها قبل أن نستعرض العمل العربى الموحد .

النقطة الثالثة من الصعوبات .. أن العالم العربى الآن فيه قوتين اقتصاديتين قوى تستمتع بكل الرخاء ، وقوى بكل الشقاء ، هناك طبقتين ، بلدان فى يدها كل شىء اقتصاديا ، وبلدان لاتملك أى شىء ، ومثال ذلك السودان ومصر من البلدان الفقيرة .

فى شهر واحد حضرت المنتدى العربى فى عمان ، بعض الأخوان الموجودين هنا حضروه ، فى مرحلة من المراحل دار النقاش بيننا حول مبلغ ، أحد الأخوان كان يتحدث عنه باعتباره مبلغ تافه ليس له قيمة ، الأخ عبد اللطيف الحمد ، المبلغ هو ٤٠٠ بليون دولار ، حصلت عليها البلاد النفطية بين ١٩٧٨و١٩٨٢ وأن هذا المبلغ وُظف ١٠٪ فقط منه فى البلاد النامية بين أفريقا وأسيا والـ ٩٠٪ الأخرى منها ٦٣٪ ذهبت إلى أمريكا ، و٢٧٪ إلى انجلتر أو غرب أوربا .

وكنا نناقشهم لماذا وجهتهم ٩٠٪ من هذه الأموال لأمريكا وأوروبا ، فقالوا لأنها بلاد مستقرة وأن عوائدنا من هذه المبالغ تعود على اطمئنان ، فأموالنا هناك مأمونة ، ليس هناك تأميم أو تلاعب ، وعائداتها وإن كانت ضعيفة إلا أنها مأمونة ، أما أنتم فغير مأمونين ، فقد تصيبكم حالات جنون فتقومون بثورات وتؤممون وتصادرون وغير مأمونين .

وفى الحقيقة وجهت سؤالا : هل تستطيع ياأخى عبداللطيف الآن أن تسترد ٥٪ من المبلغ الموجود فى أمريكا أو فى انجلتر؟ فقال لا لا يمكن ، فقلت إذن الآن أنت أصبحت عبدا لأمريكا ولانجلترا بهذه الأموال ، لاتستطيع أن تستردها ولاتستطيع أن تسترد أى نسبة منها ، بينما أنت تستطيع أن تستردها منى أنا الفقير بحكم القرابة والدم والعلاقة ، وتكون قد ساندتنى اقتصاديا ، وملكتنى بها ، فأنا لاأقاومك ، وهناك أشياء كثيرة بيننا تجعلنى أرد لك أموالك ، حتى لو أصابتنى ساعات هستيريا وجنون ، فأرجع لعقلى مرة أخرى ، وأقدم لك حقوقك ، وحدث ساعات هستيريا وجنون فى مرحلة من مراحل تاريخنا ، ولكن عدنا وعملنا مواثيق وأعدنا الأموال ، ولكن هل تستطيع أن تسترد ما أصبح الآن جزءا من نظام مالى قوى مؤسس فى أمريكا وفى انجلترا ، لاتستطيع لا فى هذا القرن ولافى القرن القادم .

هذه القوى الاقتصادية المتميزة ، وهذه الأفهام المتميزة ، أموال بهذه

الأحجام عند البعض ، وفقر كما هو موجود عندنا وعندكم فى مصر ، هذه صعوبة كذلك من الصعوبات التى يجب أن تطرح للنقاش عندما نتحدث عن الوحدة العربية .

إذن هذه واحدة من الصعوبات الموجودة ، ولابد من بحثها بطريقة جادة . فإذا كنا نقول الشمال الغنى والجنوب الفقير ، وأن أوروبا وأمريكا أغنياء ونحن فقراء وبائسين في آسيا وأفريقيا ، .ويجب أن نبحث عن قاعدة لحل مشكلة الديون التى يرهقوننا بها ، فمن الأولى أن نبحث عن وسائل لنقارب فيما بيننا .

والخلافات الحزبية :

الصعوبة الرابعة كذلك ، والتى يجب أن نضعها موضع البحث ، هى السيطرة السياسية لأحزاب معينة لها وجهات نظر ، فبصراحة ، مثلاً الآن ، البعث العراقى والبعث السورى ، وهما فكرين من أصل واحد ، ولكن هل الآن تستطيع أن تُجلس السورى والعراقى ليتفاهما معا ، تلك واحدة من الصعوبات الآن ، كيف نضع البعث العراقى مع البعث السورى معاً ؟ هذا نموذج ، وهناك أحزاب أخرى فى أماكن أخرى ، وهناك أنظمة ، كالنظام الديمقراطى فى السودان ، هناك ١٧ حزبا . عندنا حزب الأمة والحزب الاتحادى والجبهة الإسلامية الديمقراطية و٧ أحزاب جنوبيين ، وعندنا حزب البعث السورى وحزب البعث العراقى وعندنا اللجان الثورية ، والحزب الاشتراكى الإسلامى ، وتقريبا كل الأحزاب المصرية هنا لدينا منها هناك ، كالحزب الناصرى ، وحزب العمل ، وحزب العمال والمزارعين والعمل الاشتراكى ، كل هذا موجود ، وكل هؤلاء يعتبرون أفكارهم أفضل من أفكار غيرهم . صحيح أن هناك أنظمة ديمقراطية فيها هذه الصنعوبة ، وحين نتحدث عن موضوع توحيد العرب ، نجد حزبا يقول نحن لدينا منطلقات أخرى فاللجان الثورية عندها الكتاب الأخضر ، والوحدة العربية إما تكون طبقا لما جاء فى الكتاب الأخضر وإلا فلا ، وهكذا .

وهناك أنظمة شمولية أخرى ، عندها رئيس واحد وله رأى واحد ، وإذا قال فختامه مسك ، وهناك أنظمة ملوكية .. ملوك متربعين على العروش وهم أصحاب دماء لها رأى معين .. وهكذا .

وهناك أنظمة أخرى مابين بين ، شىء من الديمراطية وشىء من الشمولية . إذن ، فتلك واحدة من الصعوبات .. هذا العالم العربى يموج بهذه الأشكال المختلفة من التنظيمات السياسية ، ومن القدرات السياسية ، هذه القدرات والابتكارات السياسية الهائلة ، كيف تستطيع أن تجمع بينها على حد أدنى من التفاهم ؟ هذه صعوبة من الصعوبات ، أنا أقول بصراحة إننا محتارين أمامها .

إسلاميون واشتراكيون :

الصعوبة الخامسة ، واحدة من الصعوبات الأساسية ، وهى عندنا مثلا فى السودان ، أن الرأى العام منقسم بين اتجاهين ، فالرأى العام عندنا فى السودان منقسم بين اتجاهين . وفعلاً أرغم الأحزاب السياسية على أن تأخذ بهذا الاتجاه أوذاك ، فنحن فى حزب الأمة ، والاتحادى الديمقراطى وغيرهما ، لا نستطيع أن نواجه الرأى العام الذى يصوت لنا ويؤيدنا إلا إذا تحدثنا عن الإسلام وعن المواثيق الإسلامية وعن أشياء منبثقة من الفكر الإسلامى ، بينما هنالك جهات أخرى تتحدث عن الاشتراكية ، ولتروا إلى أى مدى قد تصل الأحوال ، كان عندنا احتفال بالإمام الهادى زعيم الأنصار ، الذى قتله النميرى ودفنه فى محل ، وبعد عناء سنة كاملة عرفنا أنه مدفون فى إحدى الغابات ، وحفر رفاته ، وأقمنا احتفالا شعبيا جامعا لكل الناس بدون تمايز سياسى ، وأردنا أن نحتفل به كرجل صادم النظام الديكتاتورى وقتل مظلوم ، ونحن نريد أن نكرمه ، فجاء الإسلاميون وقالوا : لن نجلس مع الاشتراكيين فى أى اجتماع .

وإذا أخذنا ذلك على نطاق العالم العربى ، فهنالك إسلاميين واشتراكيين والاشتراكيين نفسهم درجات مختلفة ومتفاوتة ، إشتراكيات عربية واشتراكيات دولية ، واشتراكيات محلية .. وهكذا .

وهذا لايريد الجلوس مع ذلك ، وذلك لايريد التفاهم مع هذا .

ولننظر إلى اليمن الشعبية حيث حمل الاشتراكيون وهم فى حزب واحد السلاح ضد بعضهم البعض .

إذن ، تلك واحدة من الصعوبات ، فكيف تستطيع أن تجمع بين هذا الشتات المنقسم بين الإسلاميين والاشتراكين وغيرها .

التحالفات الدولية :

كذلك ، أقول النقطة السادسة والأخيرة .. الارتباطات السياسية الدولية ، فالآن ، البلاد العربية المختلفة ، بعضها مرتبط بالشرق وبعضها مرتبط بالغرب ، وكل من الطرفين له مصالح ، وكل من الطرفين مساق وراء هذه المصالح ، وأنتم تعرفون من هو المربوط ارتباطا كاملاً بأمريكا ، ومن هو المربوط ارتباطا كاملاً بروسيا ، ومن هو بين بين يتلاعب على الحبلين ، وهكذا .

هذا ، كذلك ، نوع من الخلاف الذى يؤثر على قضية العمل العربى الموحد .

الواقع يا إخوانى ، واقع العالم العربى الذى ذكره الأخ عبد الوهاب الزنتانى ، هوكذلك فى مجمله واحدة من هذه الصعوبات ، فالعراق متورط فى حرب مع إيران ، لبنان بؤرة من النيران ، جنوب السودان فيه قتال ، المغرب يقاتل فى بقعة فى الصحراء ، وتختلف معه الجزائر ، وليبيا حول موقفه من الصحراء وهكذا ، متورطين فى مشاكل كثيرة جداً هى نفسها تشكل واقع ، وهو نفسه يشكل أزمة من أزمات الاتفاق العربى .

إذن يا إخوانى ، نحن الآن نريد كخطوة أولى أن نجمع الحكماء العرب ليناقشوا هذه الصعاب ـ فى نظرنا ـ بهدف أن نجد حداً أدنى من الاتفاق ، هذا الحد الأدنى فى طموحنا يحقق التالى :

١ ـ كيف نخرج مصر من ورطة كامب ديفيد .
٢ ـ كيف نجمع بين متناقضات الأنظمة العربية نفسها ، ابتداء من سوريا والعراق إلى الخليج .. إلى .. إلى .. إلى السودان وإلى المغرب ؟
٣ ـ كيف ننظم القدرات الاقتصادية فيما بيننا قبل أن نلجأ إلى خصومنا ؟
٤ ـ كيف ننسق بين ارتباطاتنا العربية مع الشرق والغرب بشكل يحفظ مصلحتنا العربية قبل مصالح هذه الدول ؟
٥ ـ كيف نصنع حداً عسكريا استراتيجيا يحمى مصالحنا ويحمى قدراتنا فى هذه المنطقة ؟ خصوصا وأنه فى عالم اليوم إذا ماعُرف أن ليس عندك هذا الحد الأدنى من القوى العسكرية فأنت لاتساوى شيئا فى عالم السياسة الدولية . ونحن بحمد الله عندنا قوى عسكرية ، ولكن كيف نرتب هذا الحد الأدنى من التنسيق العسكرى فيما بيننا لنحمى نفسنا ، ولنجعل لنفسنا قيمة فى المجال الدولى ؟
٦ ـ كيف نوفق بين آرائنا المختلفة حول الوحدة الإسلامية والوحدة العربية والتعامل مع من هم يشتركون معنا فى العقيدة ولكنهم ليسوا عربا ؟ كيف نوجد علاقة ، فهم خط الدفاع الثانى بالنسبة لنا فى المجال الدولى ؟ كيف نوفق بين مصالحنا ومصالحهم ، ونوجد هذا الحد الأدنى الذى يحمينا فى المجال الدولى ؟

كيف نعيد النظر فى التنظيمات العربية ، كالجامعة العربية والمنظمات المنبثقة عنها ، كى نجعل لها فعالية ؟

آسف ، فقد أطلت ، ولكن يا إخوانى فى نظرى أن هذه القضية ، قضية هامة . ولقد كانت لدى ارتباطات كبيرة وقوية فى عدة محلات ، وآثرت أن أهرع إلى هنا لأستمع ولأتفاكر ، لأننا فى طريق ترتيب مايمكن أن ينظم

العمل العربى الموحد وآمل أن أراكم عندما نرتب أمورنا فى هذا المجال، أرى كل من يستطيع أن يكون معنا فى الخرطوم ، لنستطيع أن نبنى هذا البناء ، الذى نطمع فى أن يكون بداية لعمل عربى موحد .

وأشكركم على حسن الاستماع ، وسعة صدر المنصفة ، وآسف على الإطالة .

تجربة العمل العربى الموحّد فى ٦ أكتوبر
كيف نستعيدُها فى الأوضاع الراهنة ؟

كلمة الدكتور : محمد حسن الزيات

سيداتى وسادتى :

اسمحوا لى أن أبدأ هذا الحديث بتقديم أصدق الشكر إلى الهيئتين اللتين قامتا على تنظيم هذه الندوة ، فإن اختيارهما لموضوعها ، وللمشاركين فيها ، قد أتاح للقاهرة أن تشهد صباح أمس افتتاح ندوة ترقى إلى أعلى ما ترقى إليه الندوات السياسية والفكرية فى العالم كله . الأستاذ الصديق أحمد خمروش والأستاذ الصديق عبد المجيد فريد يستحقان حقيقة أن نسجل لهما هذا الفضل وأن يستزيدا منه .

لقد أحسست بالحرمان حقيقة لأن انعقاد مجلس الشعب فى جلسات صباحية ومسائية هذا الأسبوع قد حرمنى من حضور جلسة مساء أمس وجلسة صباح اليوم وأنا أعتذر مقدما إذا كنت سأكرر ما يمكن أن يكون قد قيل خلال هاتين الجلستين .

سيداتى وسادتى

فى أحد التقارير السنوية التى بدأ مستشار الأمن القومى فى البيت الأبيض الأمريكى إعدادها منذ عام ١٩٧٠ ، عن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية ، لتقديمها بتوقيع رئيس الجمهورية إلى الكونجرس الأمريكى فقرة جاءت تحت عنوان (الشرق الأوسط) قرر فيها واضع التقرير أن فى هذه المنطقة مشاكل عديدة منها المشكلة العربية الاسرائيلية ثم قال إن أهم ماينبغى أن يشغل اهتمام بلاده بشأن هذه المنطقة هو ملاحظة أنها أول منطقة من مناطق العالم

المسمى بالنامى (أى فى الحقيقة المتخلف) التى توفر فيها الآن رأس المال اللازم ، كما توفرت فيها الخبرة الفنية الضرورية ، وأن اجتماع هذين العنصرين من عناصر التنمية فى المنطقة جدير بأن يخرجها قريبا من عداد الدول النامية (أو المتخلفة) إلى عداد الدول المتقدمة ، ونبه التقرير إلى أن حكومة الولايات المتحدة مطالبة بأن تستعد للتعامل مع هذه المنطقة فى عهدها الجديد المنتظر بشكل جديد وأن تعيد بناء على ذلك رسم خطط تعاملها معها فى ميادين السياسة والاقتصاد والتشريع .

تلك كانت فقرة كتبها أستاذ العلوم السياسية على أساس ما كان أمامه من إحصاءات وخرائط وأوراق ـ تلك كانت نتيجة من نتائج الدراسة النظرية لموارد وإمكانات المنطقة ، ولكن أستاذ العلوم السياسية عندما انتقل إلى موضع تنفيذى وهو موضع وزير خارجية الولايات المتحدة قد تكشف له الخطأ الأساسى الذى وقع فيه عندما كتب تلك الفقرة ، تكشفت له الحقيقة ـ المحزنة ـ وهو أنه لاتوجد منطقة متماسكة متكاملة اسمها المنطقة العربية أو منطقة الشرق الأوسط وأن رأس المال الذى وجد فى بعض أماكن هذه المنطقة لايرتبط مع عنصر القدرات الفنية الموجودة فى أماكن أخرى إلا تكاملا ضئيلا عشوائيا وأن الواقع هو أن المنطقة لاتعرف وحدة التخطيط والتنفيذ ورأس المال موجود فى أماكن منها وتوجد القدرات الفنية فى أماكن أخرى وحيث يوجد رأس المال لاتتوفر القدرات اللازمة وحيث توجد القدرات الفنية لايوجد رأس المال الكافى .

وقبل كل ذلك وبعد كل ذلك فإنه لاتوجد الإرادة السياسية الضرورية لاستهداف العمل الموحد .

وأصبح من الواضح أنه لاتوجد فى الواقع ضرورة ملحة أو حتى غير ملحة للاستعداد للتعامل مع هذه المنطقة بعد خروجها من مناطق التخلف ، لأن حقائق الواقع تدل على أن هذا الخروج سيتأخر وقتا طويلا ، ليست هناك ضرورة إذن للاستعداد لاستقبال المنطقة فى دنيا الشعوب التى كسرت طوق التخلف .

كما أنه ليست هناك ضرورة ولا حكمة فى التعامل مع هذه المنطقة باعتبارها وحدة ، ولا للتعامل مع أقطارها بنفس المعاملة وأن الحكمة هى فى التعامل مع عدد من أقطار هذه المنطقة بشكل فردى وعلى أساس قيمتها فى ميزان المصالح مع الاطمئنان التام إلى إهمال مافى المنطقة من مشاكل ومسائل حتى تحل على مهل ودون لهفة على الوصول إلى أى حلول .

فى الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٣ كان وزير الخارجية الأمريكية يقول إنه سيذهب إلى الصين حيث توجد مسائل هامة يتباحث بشأنها هناك ثم سيذهب إلى أوربا حيث كان ينوى أن يعلن سنة ١٩٧٣ باعتبارها سنة أوربا ثم سيعود إلى واشنطن وعندئذ سيطلب ملف الشرق الأوسط ليفتحه ويبدأ القراءة فيه على مهل وفى الهدوء المطلوب .

وعندما وقعت مفاجأة السادس من أكتوبر أسرع وزير خارجية أمريكا يتصل بملوك المغرب والأردن والسعودية ... وهنا كانت المفاجأة .

إننى أعتقد أن أكبر مفاجآة حرب أكتوبر ١٩٧٣ هى اكتشاف أمريكا فى هذه الاتصالات وجود وحدة للعمل العربى .

- ٢ -

كانت المفاجأة هى وجود أو قيام عمل عربى سياسى موحد ، ثم كانت مفاجأة أخرى هى وجود عمل اقتصادى عربى موحد فيما يخص البترول والأموال العربية .

ولايزال الباحثون حتى اليوم يبحثون عما إذا كانت الأقطار العربية قد رسمت وخططت فعلا لهذا العمل العربى الموحد أم أن ماحدث كان مجرد انفعالات ومصادفات .

وحدة العمل العربى السياسى فى خريف ١٩٧٣ كانت مفاجأة .

ووحدة عملهم الاقتصادى كانت مفاجأة .

* وكذلك كانت التصرفات فى الأموال العربية لصالح العالم العربى المشترك .
* وكذلك كان تضامن العرب فى اكتساب تأمين دول أوربا وآسيا وأفريقيا فى داخل الأمم المتحدة بحيث وقع أمر حذر كسنجر من وقوعه وهو وحدة أمريكا وإسرائيل أمام العالم . وفى دنيا السياسة كل فعل له رد فعل مضاد مفاجأة العمل العربى الموحد وفعاليته فى حرب ٧٣ استدعت رد فعل مضاد وجاد لمواجهة هذا العمل العربى الموحد والحيلولة دون وجوده فى المستقبل وتحقق نجاح العمل المضاد .

نحن الآن فى عام ١٩٨٧ بعد أكتوبر ٧٣ بأربعة عشر عاما . وحدة العمل العربى لا وجود لها . الأقطار العربية ليست متباعدة فقط ولكنها متباغضة .

* العالم الصناعى لم يخش شيئا فيما يخص البترول العربى لأنه قد اختزن فى أرضه مايحميه من كل مفاجأة .
* الأموال العربية تحرق يوميا فى حرب الخليج وفى مغامرات تشاد .
* أموال العرب فى المستقبل قد أصبحت شبه مرهونة فإنه عندما تتوقف حروب اليوم ستبدأ أعمال إعادة التعمير وإعادة التسليح ولن يتيسر ذلك إلا بقروض من خارج المنطقة .
* وإذا ماكان كل فعل يستوجب رد فعل ملائم فما هو رد الفعل المطلوب من العرب القيام به اليوم إزاء هذا الموقف المتردى .
* واضح أن على العرب اليوم أن يستهدفوا الوصول إلى وحدة العمل العربى فى كل الميادين على أنه إذا كان تحديد الهدف سهلا فإن من العسير حقا تخطيط الطريق للوصول إليه .
* ومن هنا أهمية ندوتكم وندوات مثلها .
* سيداتى وسادتى :

فى الأوقات الحاضرة وفى بلادنا المختلفة تظل السياسة هى فن الممكن فما هو الممكن الآن :

أولا : التواصل الثقافى بالفنون والمسرح والغناء والعلوم .

* هذا تواصل لم ينقطع أبدا ، هذا هو الأساس الثابت للعمل العربى الموحد منذ ألف عام قام أبو الريحان البيرونى بالرد على الشعوب فقال إنه من بيرون ـ من تركستان من بلاد قالوا إن ثقتها لو كتب فيها علما لاستغرب استغراب الزراخة فى الميزاب .
* وقال إن العروبة ليست دماء ولا نسبا ولكنها لغة وأدب وعلم من أنشأ فيها وتلقن علومها وأنتج فى لغتها فهو العرب .
* وحديثا كان محمود عزمى يفضل تعبير بلاد العربية على تعبير البلاد العربية يعنى أن اللغة هل العنصر الأهم فى هذه المنطقة .
* علينا أن نشجع كل تواصل وتعاون وتداول وتبادل فى هذه الميادين وهذا متيسر وهو قائم إلى حد ما ويتصل نشاط الجامعات فقد يمكن النظر مثلا فى تقليد السنة الثالثة التى يقضيها طالب الجامعة العربية فى جامعة عربية أخرى ويحتسب له نجاحه فيها فى جامعته الأولى .

ثانيا : يتصل بذلك النشاط العربى فى ميادين الهيئات والنقابات والاتحادات .

ثالثا : الاتحاد البرلمانى العربى كان موجودا وإحياؤه عمل جدير بكل مايبذل فى سبيل ذلك .

رابعا : النشاط المشترك فى ميدان هام وهو ميدان التسليح ، فإن دول الشرق الأوسط هى أكبر دول مستوردة للسلاح وعودة هذا التصنيع لتعمل فى إطارها العربى السابق هو خطوة فى سبيل العمل العربى الموحد .

* هذه خطوات مبدئية أو ابتدائية يعززها خطوات أخرى هى تلقين الشباب فى كل مكان أهمية العمل العربى الموحد بكتاب مبسط يتاح لطلاب المدارس والجامعات بقدر الإمكان .
* وللعمل العربى الموحد بعذ ذلك نماذج مختلفة يمكن أن تجريه وأن تتدرج فيها على مثال اتحاد دول اسكندنافيا .

لقد ذكر أن إسرائيل ستدير ندوة حول هذه المعركة ومايتصل بها من أمور جسام .

لقد درس الصهيونيون من قبل كيف زالت ممالك الصليبيين فى فلسطين .

لقد انتهوا إلى أن زوال حكم الصليبيين كانت له أسباب من أهمها أسباب ثلاثة :

أولا : انقطاع صلة المستعمرات الصليبية بالمصادر التى كانت تمدها بالقوة والمال خارج فلسطين . والصهيونيون مصممون اليوم على ألا تنقطع أبدا صلاتهم بالمصادر التى تمدهم اليوم بأسباب القوة والمال من خارج فلسطين .

ثانيا : اهتزاز العقيدة الصليبية فى ضرورة إقامة مملكة للصليبيين فى فلسطين لأن مملكة المسيح هى فى القلوب والرءوس كما سمعنا وليس فى أرض الآخرين. والصهيونيون اليوم مصممون على أن تكون عقيدة التجمع فى أرض الميعاد تتويجا لنداءاتهم فى كل العصور وكل البلاد : العام القابل فى القدس .

وتعصبهم لهذه العقيدة يقوى ولايضعف ويدعو إلى التجمع لا إلى التفرق .

ثالثا : وهذه نقطة تستحق منا الكثير من التأمل لقد أضعف الصليبيين فى رأى الصهيونيين أنهم فتنوا بما وجدوا فى المنطقة العربية من حضارة وعملوا على نقل بعض معالم هذه الحضارة إلى بلادهم واعتقدوا بإمكان التعاون وتبادل النفع بين الأراضى الأوربية ومنطقة الشرق. والصهيونية اليوم حريصة كل الحرص على أن تبين للعالم الغربى أن الإسلام مانع ضخم من موانع التفاهم والتواصل وتبادل النفع مع أى عالم سوى عالمه وأن الطريقة الوحيدة للتعامل مع العالم الإسلامى هى فى التباعد إذاعة تكن فى التصدى والمخاصمة .

سيداتى وسادتى : –

علينا ونحن نذكر حطين ألا نخلد إلى الأمل فى أن ماكان سوف يكون . علينا ونحن نذكر حطين أن ندرس كيف كان النصر لنعمل كما كانت أوائلنا تعمل ونصنع مثلما صنعوا . على مفكرينا وساستنا والمهتمين بمستقبل بلادنا وعلى شبابنا وعلينا نحن أيضا أن ندرس ماتقدم من تاريخنا قديما وحديثا لاختيار الطريق الذى نسلكه لتحقيق العدالة أساسا للسلام ولتحقيق السلام أساسا للتقدم .

لقد ساهم العرب من قبل فى مسيرة موكب الحضارة خير مساهمة .

ونحن الآن قادرين على أن نعود مساهمين مجتمعين فى موكب الحضارة من جديد .

اختــراق الأمــن القــومى العــربى
نظـــرة معـــاصرة

كلمة: الدكتور عصام عبد على - العراق

أيها الأعزاء

اسمحوا لى أولا أن أثنى بتقديرى على هذهالمبادرة الرائعة من اللجنة المصرية للتضامن ومركز الدراسات العربية فى عقد الندوة احتفالا بمرور ثمانية قرون على معركة حطين وانتصار صلاح الدين على قوى العدوان الأجنبى بإرادة الأمة العربية ووحدتها ووعيها .

والعمل العربى الموحد الذى نتحدث عن قضيته اليوم لا ينقطع عن التاريخ بل يتفاعل معه ويتحقق فى ذاكرتنا حقيقة ساطعة تقول إذا كان التاريخ لايكرر نفسه بالتفاصيل والأحداث فإنه يخطئ فى اعتباراته العامة وأحكامه وفى تفسيراته الصائبة لأحداث الحاضر والمستقبل من خلال الوعى بحكمته وتجربته الفنية .

وللعراق القيادة والشعب مع بطولة صلاح الدين وبطولاته أواصر حب وأمجاد وذكريات ذات معنى خاص تتجدد فى الضمير والوجدان، يستعيدها العراق معطرة بالحب والفخر ومصمدة بالدم والشهادة والصمود. فالبطل صلاح الدين ولد فى أرض العراق فى تكريت وهو واحد من أبنائنا النجباء وإذا كان الجندى العراقى المقاتل ابن البصرة وكربلاء لا يجد الوقت فى ساحة القتال والدفاع لاستعادة تفاصيل بطولته وحياة صلاح الدين فهو يستحضرها فى كل لحظة ويعى حقيقة المسئولية الملقاة على عاتقه للدفاع عن التاريخ البطولى للأمة العربية والدفاع عن مبادئ صلاح الدين وأمجاده من أجل أرض العرب وشرفهم ووجودهم ، وصلاح الدين ليس حالة طارئة أو معجزة ظهرت من فراغ . إنما هو ظاهرة صحة وإبداع وانتماء وبطولة ترعرعت فى أرض العرب لتعبر عن ضمير

العربى ووعيه وانتمائه ، وكان هو الرمز والتعبير الحقيقى لأصالة الأمة وقدرتها على الصمود والدفاع عن نفسها أمام المخاطر والتحديات .

وليس الأمر مصادفة أو اعتباطا أن تسمى قيادة العراق وهى تشكيلات وفيالق باسم صلاح الدين يواجه رجالها بصدورهم الخطر الداهم من الشرق من أرض إيران مستهدفا الحدود الشرقية للوطن العربى حاملا الموت والدمار لأمة العرب وتاريخها ووجودها .

وإذا كان صلاح الدين موجودا فى كتب الروايات والتاريخ والأحداث بطلا وقائدا وصورة رائعة فى المكتبات ودور الكتب فهو موجود أيضا فى خط النار .

وفى الجبهات الأمامية مع المقاتلين العراقيين فى شرق البصرة وبيان ومندلى طودا شامخا فى كل خندق قتال وراية فخر ترفعها هامات الرجال تؤكد حقيقة لاتقبل الشك تقول :

إن الغزو الأجنبى الذى جاء من الغرب قبل ثمانية قرون باسم صلاح الدين عاد ثانية بثوب جديد وباسم الدين قادما من الشرق يستهدف الأمة والهوية والانتماء .

إن هذه الجحافل التى تضم أبناءكم وإخوانكم من شباب العراق وكهوله تدافع اليوم عن البصرة مدينة الجاحظ والفراهيدى وتقسم أن تبقى مدينتكم بغداد مدينة المنصور والسلام والحضارة وراعية القيم والأفكار عن تاريخ صلاح الدين وقلاعه وأرض ميلاده .

وهذه الجحافل فخورة بقدرها أن شرفتها الأمة بمسئولية الدفاع عنها فى غياب العمل العربى الموحد وانهيار مؤسساته وفقدان التقاليد الأصيلة لمعنى المواطنة والانتماء ووحدة المصير وهى تشعر بالفخر أيضا لأنها لاتقاتل الغزاة القادمين من الشرق باسم الدين فقط وإنما تقاتل المهزومين الناكثين للعهد الذين يكذبون على الله والحقيقة والتاريخ ويتحدثون عن الأمة العربية والأمن العربى

القومى والعمل العربى الموحد ويطعنون حدة القدين من الخلف ويعملون على اختراق جداره وانهياره .

أيها السادة :

لقد ملأ الحديث عن العمل العربى الموحد مجلدات وكتبا وقامت حوله نظريات وأبحاث ولست هنا بصدد البحث فى تفاصيل المسلمات والثوابت فى العمل العربى ولكنى أجد لزاما على أن أستعيد أمامكم أسسها بعد أن تعرضت هذه الثوابت للاهتزاز والاختراق على الخارطة العربية .

والذين بدأوا حياتهم السياسية فى الخمسينات ومابعدها يتذكرون بمسيرة الأمال والمطامع القومية أيام النهوض القومى وعبد الناصر وصحوة الجماهير العربية ومواجهة التحدى الصهيونى والامبريالى ووحدة الشعب العربى الحقيقية فى الانتماء والمواجهة والصمود وتهون المطامح فى هذه الأيام العصيبة ونحن نبحث عن أمل وعن أرضية جديدة للدفاع عن العمل العربى الموحد نظريا وتطبيقا وأصبحنا نحتم مرة أخرى برد حاسم بالجامعة العربية ومؤسساتها وبكلام عام عن التضامن العربى .

وعن لقاء للأنظمة على نقطة لقاء واحدة يعرفون من خلالها بداية الطريق نحو النور .

إذا خط المسائل التى يتعرض لها العمل العربى الموحد اليوم أن أكثر الأنظمة النظرية التى تحكم الأرض العربية لاتبحث عنه وتخاف من حقيقته وترى حياتها مرسومة ولقد كان فى الماضى تناقض بين ماهو قومى ونظرى ولكننا اليوم حالة صدام وتقاطع بينهما .

وكان هناك إيمان عميق بالأمن القومى العربى بكونه حيط حاميا للأراضى العربية وللأنظمة ولكن هذا الأمن القومى العربى تتساقط أسسه وقواعده على صعيد السياسة والسلوك .

وتغيب معه النظرة العربية المستقبلة وينهزم الفكر وتتعرض الثقافة وتعاليمها إلى

أكثر من اختراق فى المفاهيم والتحليل ويصبح العدوان على شعب عربى فى العراق من قبل عدو أجنبى نظام غير عربى مسألة تقبل التأويل وينتقل الشقيق إلى موقع العدو غير مكترث بالخطر الداهم الذى قد يأتيه غدا فى عقر داره .

إن أية بداية لعمل عربى موحد على صعيد الشعب أو على صعيد الأنظمة لابد أن يبدأ باحترام بل تقديس الثوابت القومية فى الحفاظ على الأرض العربية والقومية العربية والوجود العربى وتحديد مواطن وأبعاد الخطر الداهم.

وهنا لابد أن نؤكد من الثوابت على دور مصر.. مصر النضال والحضارة والنهضة ضمانة العرب فى الحاضر والمستقبل .

أيها السادة : يدعون إلى أن نبحث من جديد عن ميثاق شرفى عربى على صعيد المنظمات والجماهير والأنظمة يحمى كل عربى يدافع عن الشام والقدس ولبنان والعراق وطرابلس يحقق الضمانات الحقيقية لأجيال العروبة القادمة لتعيش سيدة على أرضها وترابها .

وهنا لابد أن أستذكر معكم ما أعلنه قائد العراق الرئيس صدام حسين قبل أن تشتعل الحرب ويقع العدوان الإيرانى حيث كان الإعلان القومى الذى دعا إليه العراق دفاعا عن أرض العرب من الخليج إلى المحيط لمواجهة الأخطار ولكنه مما يؤسف له أن أغلب الأنظمة القطرية كانت غارقة فى أحلامها عايشة بمخاطر المستقبل إلى أن داهم الخطر بيوتهم وحياتهم .

إن الدعوة اليوم إلى ميثاق شرف عربى للدفاع عن الأمة ضرورة مصيرية بداية لابد منها للخروج من المأزق قبل أن يغطى السيل الداهم أرضا واسعة من خارج الوطن العربى .

أيها السادة :

نحن فى العراق القيادة والشعب نعيش قضية العمل العربى الموحد وضرورته كل لحظة وندافع عنه بالدم والشهادة ونثق أيضا فى أن قلوبكم معنا وسيوفكم على

البعد معنا ومع الحق ولو أنها فى أغمادها وساحة الشرف فى الدفاع عن بغداد والقدس مطرزة بدماء الشباب وأمجادها .

فقد قدر للعراق مرة أخرى أن يدافع عن تاريخ صلاح الدين وحطين من جديد .

إنه أمل أن يولد العمل العربي الموحد رغم كبر التضحيات فى المستقبل الذى ننتظره يستحق التضحية والفداء .

الغزوة التي واجهها صلاح الدين تتكرر اليوم بشكل أشرس وأعقد

كلمة الأستاذ : عبد الوهاب الزنتاني
نائب رئيس منظمة التضامن
بليبيا

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة والأخوات .

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

يسعدنى أن أتقدم بالشكر والتقدير والثناء إلى إخوتى أعضاء اللجنة المصرية للتضامن وإخوتى فى مركز الدراسات العربية بلندن على هذه الفرصة الطيبة ..

أشكرهم أولاً على دعوتنا للمشاركة فى هذه الندوة وهو مانعتز به ، وأشكرهم ثانيا على مابذلوا من جهد فى ترتيب وتنظيم هذه الندوة المهمة ، وأشكرهم ثالثا على فرصة اللقاء بهذا الجمع الكريم الذى يشارك فى هذه الندوة ولقد أسعدنى أن أسمع الذين تحدثوا فى جلسة الافتتاح وماتلاها ، ولاأخفى إعجابى بحديث قداسة البابا شنودة المسهب والمركز ، وهو حديث يليق برجل دين له مواقف شجاعة ، خدمة للحق والعروبة والدين .

* أيها الإخوة والأخوات .

أستميحكم فى أن أعرج قليلا على موضوع العمل العربى الموحد لأننى أعتقد أن حطين وصلاح الدين قد حازا على الجزء الأكبر من البحث والمناقشة ، ولربما يكون أخى عصام قد أعفانى من الحديث والخوض فى وضع النظم العربية ، والمواقف العربية ، والتناقض العربى ، وإن كنت أزعم أننا نأمل من هذه الندوة أن تنتهى إلى بيان أو نداء يضع النقاط على الحروف وينبه إلى مايحيط بالوطن العربى ، ويُدبر للأمة العربية . فكيف نرى خريطة الوطن العربى ؟

أمر مروراً سريعا فأقول إننا نرى أن هناك فى الجزيرة العربية من حاول أن ينزوى فى ركن قصى ، قد يمكن تسميته بنادى الأغنياء ، ولم ينتبهوا إلا ولهيب نار الحرب يلامس أطراف لحافهم ، فاندفعوا يشترون السلاح المتقدم الذى قد لايستخدمونه على الاطلاق ، ويصرفون الأموال التى كانت مقدسة خوفا من لهيب النار ، ونرى قريبهم العراق وقد فُرضت عليه حربا مدمرة ، أو هو دُفع إليها . بدأت تأكل الأخضر واليابس ولا أمل فيما نتصور على إنهائها ، ونرى إخوتنا فى عدن وقد تقاتلوا فيما بينهم ، فدمروا ماتوفر لبلد ، وهو قليل ، ونجد لبنان الذى كان بلداً مستقلا وواحة للديمقراطية قد وصل فيه دمار الحرب الأهلية إلى العظام ، وأصبح مجموعة من الكانتونات أو عدداً من الجيوش التى تسمى مليشيات ، وقد يظهر فيه عدد من الاعلام والاناشيد الوطنية ، ونلاحظ أن سوريا وقد فرض عليها ربما أمنها الوطنى ـ أن تتدخل فى لبنان ، فتشغلها مشاكله إضافة إلى مشاكلها ، ونجد أن مصر وقد أحاطت بها الصعاب ، وأرادوا أن يدبروا لها مؤامرة دينية طائفية تمزقها ـ لاقدر الله ـ مصر التى رضعنا من أرضها . واستفدنا بعلم رجالها ، واستظلينا بظل مناضليها ، فوجب علينا أن نقول : حماك الله يامصر من كل المؤامرات لأنك قلب الوطن العربى ورأس الأمة العربية . ثم نلاحظ أن السودان صلة الوطن العربى بقارته الأفريقية قد تقاتل جنوبه مع شماله ، وقد تنبت فى ظهره إسرائيل سوداء ونجد أن ليبيا قد انحشرت بين البحر والصحراء ، بين تهديد أمريكى وتدخل سافر من جانب ومؤامرات فرنسية من الجانب الآخر ـ ثم أيها الإخوة والاخوات ـ يتبين لنا بقية المغرب العربى وقد أنهكه الصراع حول قطعة من الأرض قد لايكون فيها زرع ولازراع . ثم نجد أن إسرائيل تتقدم كل يوم وتخطط لكل شىء وقد دخلت عصر الفضاء والذرة .

ويذكرنا التاريخ أن الغزوة التى واجهها صلاح الدين تكرر الآن بشكل أشرس وأدوات تدمير أعمق ، فما هو العمل ؟.

أيها الإخوة :

أجزم أننا فى حاجة إلى وقفة مع النفس ، وفى حاجة إلى سياسة عقلانية تتعامل مع الواقع وتدرك المتغيرات ، وأننا فى حاجة إلى أن نلتقى على الحد الأدنى من التفاهم لنناقش فيما بعد مانختلف عليه .

إننا يجب أن ننادى بإيقاف حرب الخليج ، ويجب أن نطالب بعقد مؤتمر قمة عربى يوقف الخلاف العربى والتقاتل العربى ويضع استراتيجية للعمل العربى .

وإذا كنا قد انتشينا بانتصارات وبطولات صلاح الدين ، ودغدغ مشاعرنا تاريخ النصر ، فربما أمكن للحكام العرب أن يتناسوا خلافاتهم ويستفيدوا من التاريخ . فيقدموا عملاً يذكرهم به التاريخ من أجل الوطن والأمة .

أيها الإخوة والأخوات :

ذلك بعض مايجب أن نقوم به والله الموفق .
والسلام عليكم ورحمة الله .

التنمية فى مواجهة التخلف ، بداية الحل

كلمة الدكتور : محمد أحمد خلف الله

لن أطيل ، فلم يكن من المفروض أن أتحدث إليكم ، وكان من المفروض أن يتحدث الأخ الأستاذ لطفى الخولى ، ولكن الأخ أحمد حمروش طلب ألا تخلو المنصة من ممثل للجنة المصرية ، ولو اقتصر الأمر على أن يُمثل فى المنصة أحد لاكتفيت بالجلوس إلى جانب إخوانى . ولما كان لى شرف الحديث إليكم ، لكن مشكلات السودان التى استمعت إليها الآن من الأخ عبد الله أحمد حسن أثارت فى الشىء الكثير.

فنحن أولا حينما ندعو إلى عمل عربى موحد ، من المفروض أن ننطلق من الواقع العربى الذى نعيشه ، ولن ننطلق من هذا الواقع إلا بعد أن نتفهم كل مافيه من مشكلات ، نفعل ذلك بهدف تحسين هذا الواقع ، وعلى هذا الأساس فكل ما أثاره من مشكلات ، هى من الناحية المنهجية واجب فكرى علينا أن نسلكه قبل كل شىء .

وعندما نفكر فى المشكلات التى طرحها ، لنتخذ منها أهدافا للأمة العربية أكاد أشعر بأن الهدف الأول هو التخلف ، أو التنمية فى مواجهة التخلف فكثير من المشكلات التى أثارها ترجع فى جذورها إلى التخلف ، فالعلاقة بين العروبة والإسلام إذا لم تكن مفهومة حتى اليوم ، فذلك نوع من التخلف ، والعلاقة بين الأغنياء والفقراء إذا لم تكن مفهومة حتى اليوم ، ولم يكن لها حل ، فهى نوع من التخلف ، فالواجب أولاً وقبل كل شىء هو أن نجعل الهدف الأول من أهدافنا هو التنمية ، والتنمية الثقافية بوجه أخص ، حتى تكون كل هذه المشكلات لها حلول فى ثقافتنا ، بحيث تستطيع هذه الحلول أن تُقدم لكل فرد من أبناء الأمة

العربية ، وبذلك تزول كثير من الحواجز أو من الخلافات التى ثارت حول هذه المشكلات .

من الأمور الأخرى التى أشار إليها ؛ التبعية ، وواضح من حديثه أن التبعية إحدى المشكلات الكبرى فى الوطن العربي ، وهذا يجعل الهدف هو التحرر أو الحرية : يجب أن نتحرر من هذه التبعية .

وهناك مشكلة ثالثة ، هى التجزئة ، ليست التجزئة السياسية فقط ، وإنما التجزئة الفكرية أو التجزئة المصلحية ، وهذه هدف التخلص منها هو الوحدة .

ومعنى ذلك نستطيع أن نصل إلى أن أمام الأمة العربية أهدافاً ثلاثة يجب أن نسعى فى تحقيقها ، وكل هدف منها يحل جملة من المشكلات التى ذكرها أو التى أشار إليها .

الهدف الأول التنمية ، الهدف الثانى التحرر من التبعية ، الهدف الثالث الوحدة أو التخلص من التجزئة .

ولو نظرنا إلى واقع العالم العربي لوجدنا هناك من يأخذ ببعض الحلول لهذه المشكلات . فمن الظواهر الموجودة عندنا أن هناك نزوعا قوميا يدعو بعض الدول إلى أن تلتقى أو إلى أن تتحد . والظاهرة الجديرة بالالتفات أن التقدميين ، أو من يسمون بالتقدميين ، هم الذين يفترقون فيما بينهم أكثر مما يختلف أو يفترق الرجعيون .

فنى الرجعيين نجد دول الخليج متعاونة ، نجد دولة الإمارات قائمة . بينما فى الدول التقدمية ، لاتكاد هذه الدول تلتقى حتى تختلف مرة ثانية .

على كل ، ليس معنى هذا أن التخلف عندنا أو الرجعية هو الأساس وإنما أذكر هذا لأننا فى حاجة فعلاً إلى أن ندرس واقعنا دراسة كاملة . وبعد هذه الدراسة نستطيع أن نلتقى على عمل موحد ، وكل عمل يستطيع أن يرضى عنه المجموع العربي بغالبية تكون له الأولوية .

ندرس مشكلات الحياة ، نقترح الحلول . والحل الذى يُرضى الأكثرية هو الذى نسعى فيه ، وليس معنى هذا أن نتوقف حتى نحل المشكلات . وإنما نفكر ونحصى المشكلات ، ونفكر فى تقديم الحلول . وأى حل نتوجه إليه نقيسه بمقياس المصلحة العامة لجماهير الأمة العربية ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نخطو بعض الخطوات ، وأقف عند هذا الحد لأفسح المجال لمن يريد أن يتحدث من الإخوان .

وشكرا .

بيان عن الندوة

(٨٠٠ عام على حطين والعمل العربي الموحّد)

إن الندوة الدولية التى دعت إليها اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية . ومركز الدراسات العربية بلندن عن (٨٠٠ عام حطين والعمل العربى الموحد) وشرفها بالحضور فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر ، وقداسة البابا شنودة بطريرك الأقباط .. وشارك فيها عدد من المؤرخين والمفكرين والمثقفين العرب والأجانب وانعقدت فى القاهرة خلال يومى ٢٠ ، ٢١ يونيو ١٩٨٧ ... كانت تعبيرا عن رغبة عربية جارفة فى استجلاء معالم التاريخ لتسليط الضوء على الأحداث والشخصيات البارزة التى أسهمت بدور مجيد فى توحيد العرب لمواجهة الأعداء والغزاة والانتصار عليهم ، فى وقت نعانى فيه من التمزق واحتلال الأرض العربية .

وقد خلصت الندوة خلال الحوار إلى أن الحروب التى تمت تحت اسم الصليب إنما كانت حروبا استعمارية لغزاة طمعوا فى الأرض العربية .

وما كان نجاحها إلا نتيجة للتمزقات والتناقضات التى سادت المنطقة فى هذه الفترة التاريخية إلى أن ظهرت شخصية البطل صلاح الدين الأيوبى الذى كان استجابة لمتطلبات الأمة العربية فى هذه الفترة من تاريخها وتبلورت حوله آمال وطموحات الأمة العربية والإسلامية ، فقادها إلى الوحدة التى استطاعت أن تنجز التحرير بهزيمة الغزاة واستعادة القدس بعد أن احتلت لمدة ٩٠ عاما تقريبا .

واستلهمت الندوة من التاريخ أن جوهر الصراع مازال مستمرا بين العرب وأعدائهم الطامعين فى المنطقة ، وأن وسيلة النصر هى توحيد النضال العربى ضد الغزاة. الأمر الذى يستدعى بذل كافة الجهود من أجل الوحدة الوطنية والتضامن

القومى ... واعتبار ذلك مسئولية كافة القوى الوطنية والشعبية والديموقراطية .

ولتكن هذه الندوة بداية لقراءة جادة معاصرة لتاريخنا نستلهم منه الانتصارات والبطولات ، ونسلط الضوء على رموزنا القومية وقدرة أمتنا على النضال والنصر لننزع اليأس من النفوس وتغرس الأمل فى غد مشرق بالحرية والتقدم .

رقم الإيداع ٠ ٨٨٠٤٤٧١
الترقيم الدولى ٠ ـ ٢٤٤ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

الغلاف للفنان حلمى التونى



ف أعمال الندوة بالحديث والبحث فضيلة الإمام
شيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر
دكتور محمد سيد طنطاوى مفتى الديار المصرية وضيافة
ردة بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية .
عصمت عبد المجيد نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية
سنين هيكل وعبد الرحمن الشرقاوى رئيس منظمة
الدكتور محمد حسن الزيات وعبد المجيد فريد والدكتور
، أبو العز . والدكتور محمد أحمد خلف الله (مصر)
كارول هيلبراند بجامعة أدنبرة والدكتور مونتجمرى
ج البريطانى والدكتور ديفيد جاكسون بجامعة سانت
ين مطر (اليمن) وعبد الله أحمد حسن (السودان)
. قاسم (مصر) ومنح الصلح (لبنان) وعبد الوهاب
بيا) والدكتور عصام عيد على (العراق) .

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣